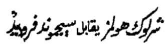


شرلوك هولمز يقابل سيجموند فرويد

تأليف: نيكولاس ماير
ترجمة د/ لطفي فطيم

الهيئة المصرية العامة للكتاب


شرلوک ہولمز بمقابل سیجمونڈ فرویڈ

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

لمياء محرم

شرلوك هولمز يقابل سيجموند فرويد

تأليف
نيكولاس ماير
ترجمة
د. لطفى فطيم



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لكتـــاب :

The Seven-Per-cent Solution : Being a reprint from the reminiscences of John H. Watson M.D.

By

Nicholas-Meyer

الفهرس

الموضـــوع	الصفحة

مقــدمة المترجــم

هل كان شرلوك هولمز شخصية حقيقية ؟

كان الحافز الاكبر لاعجابى بهذه الرواية واقدامى على ترجمتها هو فكرتها اللماحة فى الجمع بين شخصية روائيــة هى « شرلوك هولمز » ، وشخصية حقيقية هى العالم النفسى النمساوى الأشهر « سيجموند فرويد » • والحافز الثانى هــو اعتقادى أنها كانت ستلقى استحسانا من أسـتاذنا الراحــل الدكتور مصطفى زيور (١٩٠٧ ـ ١٩٩٠) رائد التحليــل النفسى فى العالم العربى والذى تلقينا ذلك العلم عــلى يديه ابان الصبا •

وأغلب ظنى أن شخصية «شرلوك هولمز» التى ابتدعتها قريحة الكاتب الانجليزى الكبير « السير آرثر كونان دويل » (وكان بالمناسـبة طبيب عيون) سـتظل الى نهـاية الدهر المــرجع الأول فى كل ما يتعلق بفن الرواية البوليســية • فهذه الشخصية الأسطورية ، شخصية المخبر السرى العبقرى، الذى يستخدم العقل والمنطق ببراعة يحسـدها عليــه أعظم العلماء والفلاسفة ليكشف غوامض جرائم يعجز عن الاتيان بها أعظم عباقرة الاجرام ، لا شك أن هذا كله سـيظل دوما المرجع الذى يغذى كل من له اهتمام بهذا النوع من الفنــون الانسانية •

وفى تقديرى أن كافة نماذج شخصية البوليس السرى التى تزدحم بهــا الروايات المعــاصرة أمثـال « بوارو » « شارلى شان » و « ماجنوم » و « الفهد القرمزى » وما الى ذلك ، انما تقتبس كلها من ذلك العبقرى « شرلوك هولمز » •

وقد بلغ صيت هذا المخبر السرى مبلغا جعل السينما تنتج عددا كبيرا من رواياته ، بل ان هذه الرواية التى نقدمها اليوم أخرجتها السينما فى فيلم معروف فى السبعينيات • ولسوء الحظ لم تف السينما هذه الروايات حقها وهى معذورة فى ذلك ، فبراعة شرلوك هولمز تتجلى فى استخدام العقل والمنطق أقل مما تتجلى فى الأحداث المثيرة والعنف ، وهذا أمر من الصعب على السينما أن تفيه حقه ، ولذلك فقد تبدو هذه الأفلام التى يقوم ببطولتها شرلوك هولمز اما مملة وبطيئة الايقاع واما سريعة الحركة لا يكاد المشاهد أن يلتقط بدقة خيوط فكرتها • وقد يرجع ذلك أيضا الى براعة الممثل الذى يقوم بدور هولمز •

ومن حيث علاقة شرلوك هولمز بعالم الأدب والكتابة فقد نشأت فى العالم فى ثلاثينيات القرن العشرين جماعات أدبية متعددة تنتسب الى شرلوك هولمز تتدارس فيما بينها تلك الروايات ، وتتعمق فى فهم خفايا النفس البشرية على الطريقة « الشرلوكية » • وفى عالم الكتابة ظهر مالا يقل عن ثلاثين رواية تتناول كلها شخصية هولمز أو شخصية «موريارتى» عدوه اللدود أو تقدم مغامرات جديدة منسوبة الى البطل المعروف • وفى عام ١٩٩٤ نال الدكتور كيث أوتلى ، أستاذ علم النفس التطبيقى فى جامعة أونتاريو بكندا جائزة الكومنولث البريطانى (مقدارها ٣٠٠٠ جنيه استرلينى) عن أول رواية كتبها بعنوان « قضية اميلى » • ومن المدهش أن أحداث تلك الرواية تدور حول لقاء آخر بين شرلوك هولمز وسيجموند فرويد ، اذ يكتشف الاثنان أنهما يبحثان قضية واحدة ، وذلك عندما لجأت السيدة اميلى فنسنت الى فرويد فى فيينا لعرض حالتها النفسية عليه وأخفت عنه أنها قتلت زوج أمها وهو يحاول الاعتداء عليها، وهى الجريمة التى كان شرلوك هولمز يعمل على حل ألغازها(١) • من الواضح اذن أن تلك العلاقة لا تزال مصدرا لوحى والهام

---

(١) The Psychologist, Vol. 8, 1995.

كثير من المفكرين • والرواية الحالية من تأليف روائى ليست له شهرة كبيرة اسمه « نيكولاس ماير » ونشرت لأول مرة فى انجلترا عام ١٩٧٥ •

والاسم الأصلى للرواية هو :

The seven-per-cent Solution : Being a reprint from the reminiscences of John H. Watson M. Das edited by Nicholas Meyer.

وترجمتها الحرفية ، « المحلول الذى تبلغ درجة تركيزه ٧٪ من ذكريات د• جون واطسون كما حررها نيكولاس ماير » • وكما ترون فانه اسم طويل ليس له جرس موسيقى لذلك فضلت اختيار اسم مستمد مباشرة من موضوع القصة• ويورد المؤلف فى « اعترافه بالفضل لذويه » ان الافكار التى بنى عليها روايته قد استقاها من مئات الكتب التى تناولت شرلوك هولمز ، وأن فى عنقه دينا لعدد كبير من الكتاب لعل أهمهم ويليام بارينج ــ جولد مؤلف « شرلوك هولمز ساكن شارع بيكر » والذى استعار منه فكرة أن البروفسور موريارتى كان مدرس الرياضيات لشرلوك هولمز فى صغره• كما استعار من كتاب تريفور هوارد « شرلوك هولمز : عشر دراسات أدبية » فكرة العلاقة الآثمة التى نشأت بين والدة هولمز ومدرس الرياضيات ثم قتلها على يد أبيه ، وكذلك تاريخ أسرة هولمز الذى يفسر الكثير من جوانب شخصية المخبر السرى الشهير •

ومن مقال الطبيب النفسى المعروف دافيد موستو الذى نشره فى « مجلة اتحاد الأطباء الأمريكيين » استقى فكرة الربط بين هولمز وفرويد من خلال الكوكايين ، كما استقاها أيضا من كتيب ايرفينج جافى « مسألة بديهية يا عزيزى واطسون » •

وهو مدين أيضا لكتابى مايكل هاريسون : « فى خطى شرلوك هولمز » و « لندن فى زمن شرلوك هولمز » بالمعلومات

الوفيرة عن عصر الملكة فيكتوريا وأحوال العالم أيام شرلوك هولمز . أما الفضل الأول والأخير فيرجع طبعا الى العبقرى مبتكر شخصية هولمز آرثر كونان دويل . وعلى أية حال لقد تمكن الكاتب من أن يصور لنا ببراعة جانبا من حياة فرويد وطريقته العلاجية من خلال مغامرة شيقة من مغامرات شرلوك هولمز .

ويبلغ هوس الانجليز ببطلهم هذا حدا كبيرا ، بل لقد توحدوا به الى درجة أن حولوه من شخصية روايةالى شخصية حقيقية عاشت فى شارع بيكر فى لندن . فيتناول الكثيرون ممن بحثوا ودرسوا شخصية شرلوك هولمز الامر على أساس أنه شخص حقيقى ، فكان موضوعا لافلام سينمائية بلغت الثلاثمائة بالاضافة الى أفلام الأطفال (الكارتون) ، كما كانت سيرته موضوعا لباليه ؟ فضلا عن عدد كبير من الكتب بما فى ذلك ثمانى سير طويلة ، ولا يزال مكتب بريد لندن يتلقى سنويا مئات الرسائل الموجهة الى هولمز .

أما فرويد ــ وهذ هو الأمر الغريب ــ فمايزال المؤلفون يكتبون سيرة حياته وآخرها كتاب بيترجاى : « فرويد : حياة من عصرنا » الذى صدر عام ١٩٨٨ . ومنذ وفاته عام ١٩٣٩ حتى الآن صدر مالا يقل عن ثلاثين سيرة لحياته بمعدل سيرة جديدة كل سنة تقريبا .

ونشرت مجلة علم النفس البريطانية عام ١٩٨٨ بحثا حاول فيه مؤلفه اثبات أن أشهر من بحث السلوك فى القرن التاسع عشر لم يكن عالما سيكولوجيا وانما كان مخبرا خاصا، هو شرلوك هولمز . واستند فى ذلك الى استعراض لحياته وأعماله التى تتطابق ــ كما يقول ــ مع علوم النفس البازغة فى ذلك الحين خاصة التحليل النفسى .

وقد عقدت مقارنات كثيرة بين هولمز وفرويد ، فقد ولد فرويد عام ١٨٥٦ بينما ولد هولمز ــ كما تجمع المصادر

ـ عام ١٨٥٤ • وابتكر كلاهما مهنة جديدة : المحلل النفسى والمخبر الخاص • وحصل كلاهما على الشهرة بعد ان نبذته مؤسسته المهنية فى بادىء الأمر • وكان الاثنان من كبار المدخنين ، السيجار لفرويد والغليون لهولمز • وقد ظهرت مباحث شرلوك هولمز لأول مرة فى الصحف البريطانية فى نوفمبر ١٨٨٧ بينما افتتح سيجموند فرويد عيادته فى فيينا يوم الأحد ٢٥ آبريل ١٨٨٦ •

ولا شك أن فرويد كان يعلم بوجود هولمز ، فقد أشار اليه فى خطاب الى يونج ، كما آن مريضه المشهور المسمى « بالرجل الذئب » اشار الى محادثة دارت بينه وبين فرويد بشأن هولمز • ولنا آن نتساءل ما اذا كان هذان الرجلان العظيمان قد تقابلا يوما من الأيام ، ان هذا التساؤل هو موضوع القصة التى نقدمها اليوم ولو أن هناك من يستبعد حدوثها •

وكان بكل من هولمز وفرويد حرص شديد على قيام الدليل والبرهان ، فى حالة هولمز كان يعنيه صدور هذا الدليل عن فاعل رئيسى فى شكل اعتراف يتلوه فى بعض الحالات صدور ادانة من المحكمة ، وفى حالة فرويد قبول المريض للتفسير - وقد انتقى الاثنان من أعمالهما ما يريدان عرضه على الناس، فالكم الهائل من كتابات فرويد لا يحتوى الا «دستة» من الحالات التى عرضت بكاملها بينما أشار الى حوالى ١٣٠ حالة أخرى • آما ما هو عدد الحالات بالضبط التى باشرها خلال حياته المهنية التى امتدت الى حوالى أربعين عاما فلا نعلمه • وبالنسبة لهولمز فلدينا ستون حالة معترف بها واشارة الى ما يزيد على ثمانى حالات وذلك من مجموع يزيد على ١٥٠٠ قضية غالبا • كما كان الاثنان على دراية واسعة باللغات والاداب • وبالاضافة الى كل تلك التشابهات هناك تطابق واضح فى المفهومات ، فالصراع الأساسى فى نظرية التحليل النفسى هو الصراع الأوديبى الذى يشمل صراع الطفل

ضد الأب الذى يعتبره مسيطرا مستبدا ويمثل خطرا داهما عليه ، وكذلك تخيل تدمير هذا الأب أو دمار الطفل على يديه • ويظهر مثل هذا الأب بوضوح فى ٢٣ حالة من حالات هولمز •

هولمز وأصحاب علم النفس غير فرويد :

بدأ هولمز حياته المهنية فى عام ١٨٧٧ أى قبل سنتين من التاريخ المتعارف عليه لقيام أول مختبر لعلم النفس ، وهو معمل « فونت » فى لايبزيج بألمانيا • ولكن لم يستقر به الحال الا عام ١٨٨١ عندما استأجر هو والدكتور واطسون المسكن الشهير فى ٢٢١ ب شارع بيكر فى لندن • فالى أى حد عرف هولمز الاتجاه العلمى فى تناول السلوك ؟

لقد كان بالتأكيد عارفا بداروين ــ انظر رواية « دراسة فى اللون الأحمر » ــ (وقد ظهرت فى السينما بنفس الاسم) • كما كان ذا اهتمام شديد بالوراثة ، وعلى دراية بقوانينها ــ انظر رواية « الوجه الأصفر » ١٨٨٦ • وكان يعتقد فى وراثة «السمات الشخصية» فنجده فى رواية « أشجار الزان النحاسية » يستدل على الشخصية الكريهة لكل من مستر ومسز كاسل مما شاهده من استمتاع طفلهما بقتل الحشرات بحذائه • وزعم هولمز أن قدراته هو نفسه كانت موروثة • ونجده أيضا فى رواية « المنزل الخالى » يدعم نظرية أن تطور الفرد يلخص تطور النوع كله ، وهو أمر لا يبعد كثيرا عن نظرية داروين •

ويدعو كل ما سبق الى نوع من المقارنة بأفكار السير فرانسيس جالتون ، ولا نعلم أن أحدا أشار الى أن هولمز قد قابل جالتون، ولكن يمكننا آن نقارن غرام جالتون بالأرقام بما قاله هولمز من أنه من أنصار قانون المتوسطات • وكان هولمز خبيرا فى استقراء الشخصية من الخط «علامة الأربعة» • مثلما كان جالتون يعتبر الخط اختبارا دقيقا للاختلاف فى تنظيم الشخصية وأوصى باستخدامه فى التشخيص النفسى •

وكان هولمز يعتبر نفسه ، بالتأكيد ، عالما حيث يقول : « الاستقراء علم مضبوط ، أو يجب أن يكـون كذلك ، ان الصفات المطلوبة فى المخبر المثالى هى : الملاحظة والاستقراء والمعـرفة » • ومع أن ثقافته كانت واسعة الا أنهـا كانت منتقاة • ولقد سبق هولمز ويليام جيمس فى تفسـير الذاكرة فشبهها بحجرة فارغة يملؤها العـامل المـاهر بالأدوات التى تساعده فى عمله فقط ولديه منها تشكيلة كبيرة متنوعة فى حالة جيدة وصالحة للاستعمال « دراسة فى اللون الأحمر » • بينما يصفها جيمس بأنها « الطريقة التى يفكر بها الخبير فى خبراته وينسج منها شبكة من العـلاقات ، بينما قد يلاحظ وقائع كثيرة عديمة الفائدة ولكنه سرعان ما ينساها » • كما تجلت لدى هولمز ما أسماه جيمس بالذاكرة الاستطرادية ، وهى القدرة على تذكر كميات كبيرة من المواد التى يبدو أن لا قيمة لها •

ويرى هولمز بوضوح أن المـلاحظة ليست هى الادراك فيقول لواطسون : « أنت ترى ولكنك لا تلاحظ » ، كما كان يؤكد باستمرار أولوية الوقائع عـلى النظرية « فمن أكبر الأخطاء أن تضع نظرية قبل أن تكتمل لديك الوقائع » وقال أيضا : « ان الميل الى وضع النظريات الفجة وفقا لوقائع غير مكتملة هى آفة مهنتنا » • ولعله كان يتحدث بلسان أصحاب علم النفس حين قال : « استبعد المستحيل ، وما يبقى بعـد ذلك ، مهما بدا غير محتمل يجب أن يكون الحقيقة » •

كان علم النفس ــ عموما ــ فى أيام هولمز يحـاول أن يصبح موضـوعيا • كان بادئا فى التجريب ، ولكنـه كان لا يزال شديد الاعتماد على الطريقة التاريخية أو ما يسمى « اعادة بناء الأحداث » لفهم الأسباب • وكان شرلوك هولمز فى شتى مسالكه يشـكل نوعا من التـوازى مع باحثى علم النفس المعاصرين له خاصة فرويد • وكان مثلهم يستلفت انتباه الرأى العام ويلهب خياله ، وبشـكل أكثر دراميـة

بالتأكيد ، وكان كل ما يفعله هولمز يصبح « موضة » على التو . وقد ارتدى الناس السواد عندما أعلن عن موته خطأ عام ١٨٩٣ . ولعل بافلوف كان الوحيد من بين أصحاب علم النفس الذى نال مثل هذا التكريم .

ولعله من المعقول أن نفترض أن مغامرات شرلوك هولمز تضرب لنا مثلا مقبولا فى كيفية النظر الى السلوك الانسانى: دراسته وتفسيره ، وأن طريقته مشابهة للطرق التى اتبعها أصحاب علم النفس الأكاديمى، ولكنها أقرب للأفكار الشهيرة والمثيرة للجدل للتحليل النفسى . وكانت تلك الأفكار ــ ولا تزال ــ بالنسبة للكثيرين النموذج أو النمط الأوحد لنظرية فى السلوك وأسلوب دراسته . ولا تتطابق حالات هولمز من نواح كثيرة مع التحليل النفسى فحسب بل لقد كانت أيضا بشيرا به .

أما الى أى حد أثر نموذج هولمز بالفعل على دارسى السلوك الانسانى ، والى أى مدى يعكس ذلك تغيرات عامة فى طرق التفكير ، فهذه مسألة أكبر شأنا ، وربما تذكرنا حالاته بأن طرق تفكير أصحاب علم النفس فى السلوك فى لحظة معينة ليست نهائية أو نسيج وحدها . وعلى أية حال فقد كانت له كلمة مأثورة يرددها دائما :

« الانسان .. ذلك اللغز الغريب » وهو قول لا يمكننا معارضته .

د . لطفى محمد فطيم
أستاذ علم النفس
زميل الجمعية النفسية البريطانية

٢٣ مايو ١٩٩٤ .

مصـــادر مقـــدمة المترجم

1. Dakin, D.M. (1972). A Sherlock Holmes Commentary. Newton Abbot : David and Charles.

2. Doyle, A.C.`(1981). The Penguin Complete Sherlock Hoimes. — Harmondsworth : Penguin Books.

3. Freud, S. (1925) : an autobiographical Study. (Trans. 1935). London : Hogarth Press.

4. Freud, S. (1974) : Letter to C.G. Juno in W. Mcguire (ed.) The Freud-Jung Letters. London : Hogarth Press.

5. Hall, T.H. (1978). Sherlock Holmes and His Creator. London Duckwoth.

6. Marcus, S. (1984). Sigmund Freud and the Culture of Psychoanalysis. London : George Allen and Unwin.

7. Musto, D. F. (1960). Sherlock Holmes and heredity. Journal of the American Medical Association(196 (I), 165-169.

8 Musto, D.F. (1967). A study in cocaine. Journal of American Medical Assoiation, 204. (1) 125-130.

9. Pankeyev, S. K. (1972). My recollections of Sigmund Freud, London : Hogarth Press.

10. Rosenberg, S. (1975). Naked is the Best Disguise. London Arlington Books.

11. Shepherd, M. (1985). Sherlock Holmes and the Case of Dr. Freud. London : Tavistock.

12. Peter Gay (1988) Freud, A life for our time, Papermag 1993, reprint) London.

تمهيـــد

لقــد كان إكتشــاف مخطوطة لم تنشر من قبــل لجون واطسون ، مثيرا لقدر كبير من الدهشة بل والشــك فى عالم الكتابة والأدب ، ولعل تصور اكتشاف مخطوطة أخــرى من مخطوطات البحر الميت أقرب الى الذهن من تصور مخطوطة أخرى من يد ذلك الكاتب المترجم الذى لم يمل قط .

ولقد أتخمنا أخيرا بعدد من الوثائق المزورة ـ لا مفر من الاعتراف بأن بعضها متقن وبعضها الآخر مجرد ادعاء ـ بحيث ان مجرد ظهور وثيقة تاريخية أصلية أخــرى قد يثير بشكل أوتوماتيكى نوبة من العداء المشوب بالملل فى صدور الدارسين الجادين للشرائع ، من أين أتت تلك الوثيقة ولماذا لم تظهر قبل الآن ؟ هذه هى الأسئلة المحتومة التى سيضطر الدارســون الى القائها المرة تلــو المرة قبــل الانصراف الى تصنيف وتعديد التناقضات الكثيرة جدا فىالأسلوب والمحتوى والتى ستصم الوثيقة بأنها « زائفة » .

وبالنسبة للمخطوطة الحالية ، فليس من المهم أن أعتقد فى صحتها أم لا ، وبالنسبة لقيمتها فلنقل اننى أعتقد فيها ، أما كيف وصلت الى يدى ، فذلك بصراحة بسبب المحاباة كما يتضح من خطاب عمي ، الذى أورده بنصه فيما يلى

لندن فى ٧ مارس ١٩٧٠

عزيزى نيك

أعلم أننا ـ أنا وأنت ـ تفترسنا مشاغل كثيرة ، ولذلك فسأتجه مباشرة الى لب الموضــوع « ولا تقلق من الحــزمة

المرفقة ، فهى لا تمثل محاولة منى لاظهار أن حياة سمسار الاوراق المالية هى حياة رائعة أو سهلة » •

اشترينا ــ أنا وفينى ــ منذ ثلاثة شهور منزلا فى هامبشير من أرمل يدعى سوينجلين(١) « تصور الاسم ! » وكانت زوجة الرجل المسكين قد توفيت لتوها ــ كانت فى منتصف الخمسينات كما أتصور ــ وكان الرجل محطما ، يريد ترك المسكن بأسرع ما يمكن ، وقد عاشا فيه منذ الحرب وكانت مسألة تنظيف « الصندرة » أو السقيفة مسألة ثقيلة على نفسه ، وكانت كل متعلقاته وأوراقه « يا لهذا الكم الهائل من الأوراق التى يجمعها المرء فى حياته ! » التى يحتاج اليها موجودة فى المنزل وقال لنا يمكنكما تنظيف « الصندرة » اذا أردتما ، وأى شىء تجدونه فيها تستطيعون الاحتفاظ به •

وليس من المعتاد أن « ينكش » المرء فى مخلفات شخص آخر ويأخذ ما يريد ، وأصدقك القول أننى كلما فكرت فى الأمر قل حماسى للقيام به ، كان المكان مزدحما بالأثاث ، والكواكيب ، والمصابيح ، وأشياء غطتها الأتربة ، بل وصندوق ضخم من ذلك النوع الذى يحمل فيه المسافرون بالبحر حاجياتهم ! الا أننى كنت مستاء من التنقيب فى ماضى المسكين سوينجلين ــ حتى ولو كان ذلك باذنه •

ومع أن فينى كانت تحس بنفس شعورى ولكنها ، خلال تأثيثها للمنزل ، دار بذهنها أنه قد يوجد فى ذلك المخزن شىء ينفع ، خاصة أن أسعار الأثاث أصبحت كما تعلم ، كما كان لديها فى نفس الوقت أشياء تريد تخزينها وازاحتها من الطريق ، وهكذا صعدت الى المخزن ونزلت تكاد تختنق بالتراب ملطخة الوجه حتى بدت كمنظفى المداخن •

---

(١) وتعنى بالانجليزية « محتال » •

لن أطيل عليك ، فقد وجدنا رزمة من الأوراق هي التي نرفق لك صورة منها • ومن الواضح أن المسز سوينجلين كانت طباعة على الآلة الكاتبة « وكان اسمها قبل الزواج ولسون » تعمل في ايلزورث هاوس وهو شبه مصحة لكبار السن انتقلت ملكيته أخيرا الى هيئة الصحة القومية • وخلال عملها ــ وكان يشمل مساعدة المرضى في كتابة الخطابات لذويهم ــ كتبت على الآلة الكاتبة « وهي بالمناسبة توجد أيضا في المخزن بحالتها » الرزمة المرفقة وأملاها عليها طبيب يدعى جون • هـ • واطسون !

وقد استغرقت قراءة تلك الأوراق وقتا • ولكنني لم أمض فيها اكثر من ثلاث او اربع صفحات فيما سماه المؤلف بالمقدمة ، حتى اكتشفت حقيقتها ، وخطر ببالي بالطبع انها قد تكون عملية تزييف كبرى ، لم تر النور ودفنت في ذلك المخزن ، ولذلك فقد تمعنت في الأمر ، فوجدت أولا ان مستر سوينجلين لا يدري عنها شيئا ، فقد سألته سؤالا عابرا فلم يتذكر شيئا ، بل ولم يبد أي اهتمام • ثم ذهبت الى ايلزورث هاوس وطلبت منهم مراجعة الملفات وكان هناك بعض الشك فيما اذا كانت ملفاتهم لا تزال قائمة حتى ذلك التاريخ ــ فقد قلبت الحرب كل شيء ــ ولكن لازمني حسن الحظ • ووجدت أنه في عام ١٩٣٢ أدخل الى المصحة من يدعى دكتور جون • هـ واطسون « التهاب مفاصل روماتزمي شديد » وذكر في ملفه أنه يتبع فرقة نورثمبر لاند الخامسةللبنادق ! ولم يعد هناك مجال لأي شك على الأقل فيما يتعلق بي ، وكنت أتحرق شوقا لمعرفة تفاصيل الملف « ألا تشتاق لمعرفة حقيقة أين أصيب واطسون » ولكن كبيرة الممرضات لم تتح لي الفرصة فلم يكن لديها وقت لتنتظرني كما أن الملف سري « آه أيتها البيروقراطية •• ماذا تفعل هيئة الصحة القومية بدونك ! » •

على أية حال كان ذلك برهانا قويا على صدق المرفقات ،

التى أرسلها اليك لتستخدمها أفضل استخدام تراه فأنت « الشيرلوكى » الوحيد فى العائلة وستعرف كيف تتصرف فيها ، واذا كانت فيها فائدة « نقسمها بالنص » .

أفضل تحياتى اليك

هنرى

ملحوظة : تقول فينى ان لها نصيبا هى الأخرى فهى التى وجدتها .

ملحوظة أخرى : نحن نحتفظ بالأصل وسنرى ان كانت صالة سوثبى تحب أن نعرضها فى المزاد وسواء اكانت المخطوطه اصيله ام لا ، فانها تحتاج الى اعادة صياغه ، وربما كان تحقيق طبعة لبلوتارك أسهل من مواجهة المشاكل التى تخلقها مخطوطة عثر عليها حديثا لواطسون . ولقد تبادلت مراسلات كثيرة مع « أنصار شرلوك هولمز » وعددهم يفوق الحصر بحيث لا يمكن ذكر أسمائهم هنا ، وكانت لهم جميعا ملاحظات قيمة ، ولم يتوانوا فى تقديم النصائح والتعليقات والأفكار اللامعة فيما يتعلق بذلك الاكتشاف الجديد . ولعل أعظم اعتراف بالفضل لهم هو صدور هذا الكتاب فى حد ذاته ، فلقد تمكنت بفضل مساعداتهم من الاحتفاظ بأسلوب د . واطسون فى السرد بما يجعل القصة متسقة .

ولم يتمكن واطسون قط ، لأسباب غير معروفة تحديدا — فى حدود ما نعلم — أن يعيد صياغة وتحرير هذه المخطوطة ولعل موته ، أو ربما ظروف الحرب ، هى التى منعته ، ولذلك حرصت عند تجهيز الكتاب للنشر أن أعمل ما اعتقدت أنه كان سيفعله هو نفسه ، فاستبعدت التكرارات ، فكبار السن لديهم ميل لتكرار أنفسهم ، ورغم أن ذاكرة واطسون فيما يتعلق بالوقائع يبدو أنها ظلت سليمة فانه كان أميل الى تكرار التفاصيل المهمة ، كما استبعدت بعض « الشطحات » التى كان

يقوم بها من حين لآخر ، عندما كان يبدو أن عقله يسرح من القصة الأصلية وينطلق بلا قيد فى السنوات التى تفصل بين الحوادث «وهذه الذكريات لها قيمة فى حد ذاتها ولا شك أننى سأسردها فى شكل ملاحق فى الطبعات التالية » وأنا أدرى الناس أن الهوامش تشتت الانتباه خلال سرد القصة ولذلك فقد تعمدت أن أبقيها فى أدنى حد ممكن ، وذكرت فقط تلك التى لابد منها ، بشكل غير ملحوظ قدر الامكان ٠

وبالنسبة لباقي المخطوطة فقد تركتها على حالها ، فالدكتور واطسون بارع فى سرد القصص ولا يحتاج الى أى تدخل منى ، واذا تركنا جانبا الاغراء الذى كان ينتابنى أحيانا بأن اختزل أو «أصنفر» عبارة هنا أو هناك ــ فلا شك عندى أن الدكتور كان سيفعل الشيء نفسه عند المراجعة وفيما عدا ذلك فقد ظل كل شيء كما خطه المخلص الأمين الدكتور واطسون ٠

نيكولاس ماير ــ لوس أنجلوس ، ٣٠ أكتوبر ١٩٧٣ ٠

تقـــــديم

ظللت لسنوات عدة ــ لحسن حظى ــ شاهدا ومؤرخا ، وأحيانا ، مساعدا لصديقى مستر شرلوك هولمز فى عدد من القضايا التى عهد بها اليــه بصفته التى انفرد بهــا الا وهى « المخبر السرى الاستشارى » ، والحقيقة أنه فى عام ١٨٨١ عندما أودعت الورق محتوى أول قضية قمنا بها معا ، كان مستر هولمز ، كما قال ، المخبر السرى الاستشارى الوحيــد فى العالم ، وشهدت السنوات التالية تحسن هــذا المــوقف بدرجة كبيرة حتى اننــا نرى اليــوم ــ فى عام ١٩٣٩ ــ انتشار المخبرين السريين الاستشــاريين ــ وان لم يحملــوا هــذا الاسم ــ فى كافة بلاد العــالم المسمى بالمتمــدين • ويستخدم الكثيرون منهــم ــ لشــــدة سرورى ــ الأساليب والطرق التى أنشأها صديقى المتميز من زمن بعيد ولــو أن الكثيرين منهم لا يعترفون بالفضــل لتلك العبقرية بالدرجة التى تستحقها •

وكان هولمز ، كما حاولت أن أصفه دائما ، فردا يحب الخصوصية بدرجة شــــديدة ، وكان فى بعض النــواحى معتزلا لدرجة الغرابة والشــذوذ ، وكان مغرما بأن يبــدو ساكنا حازما عابسا متباعدا كما لو كان « ماكينة مفــكرة » ليس لها اتصال مباشر أو تواصل مع ما يعتبره الواقع المادى الدنىء • والحقيقــة أن ما اشــتهر به من برود كان فعــلا مقصودا ومتعمدا من صنعــه هو نفســه ، ولم يكن يســعى بذلك الى اقناع أصدقائه ــ وهم قلة ــ أو كاتب سيرته بذلك الجانب من طبعه انما كان يريد أن يقنع نفسه •

ولقد مكنتنى السنوات العشر التي انقضت منذ موته من التأمل والتفكير في مسألة شخصية هولمز ، ووصلت الى ادراك حقيقة كنت أعرفها بالتأكيد ـ ولكننى لم أعرف أننى كنت أعرف ـ ألا وهى أن هولمز كان شخصا عميق العواطف، وكان استعداده للانفعال عنصرا من عناصر شخصيته يحاول أن يقمعه ولو بجسده ، لقد كان هولمز يعتبر انفعالاته نوعا من التشتيت ، بل عبثا ، وكان مقتنعا بأن ترك العنان للمشاعر سيؤثر على الدقة المطلوبة لعمله ، وأن هذا أمر لا يمكن السماح به ، لقد تنزه عن العاطفية ، أما تلك اللحظات فى حياته التى أرغمته فيها الظروف على التخلى عن تحفظه فقد كانت نادرة تماما ، ولكنها كانت دائما رائعة يكاد يحس الملاحظ لها أنه شاهد شهابا لامعا يبرق فى سماء مظلمة ٠

ولم يكن هولمز يحب تلك اللحظات ، والتى كانت تحدث فجأة بحيث تفقده اتزانه ، بل واتزان أى شاهد ولذلك فقد كان يمتلك ترسانة حقيقية من التصرفات التى يلجأ لها والتى كان هدفها الحقيقى ـ سواء اعترف بذلك أم لا ـ هو التنفيس عن الضغوط عندما يكون ذلك التنفيس أمرا لابد منه ٠ ولما كانت ارادته الحديدية قد سدت الطريق أمام الأساليب التقليدية للتعبير ، فقد كان يلجأ الى القيام ببعض التجارب الكيميائية ـ الغامضة ـ والتى كانت تبعث غالبا رائحة كريهة ، أو يرتجل على الكمان ألحانا لساعات طويلة (ولقد ذكرت فى أماكن أخرى مدى اعجابى بملكاته الموسيقية) ، أو يزين حوائط مسكننا فى شارع بيكر بآثار الطلقات النارية يرسم بها عادة الحروف الأولى من اسم صاحبة الجلالة الملكة ، أو اسم غيرها من المشاهير الذين يلفتون انتباه عقله ، ذلك العقل الذى لا يقر له قرار ٠

كما كان يتعاطى الكوكايين !! •

وقد يندهش البعض ، من هــذه الطريقة الملتوية التى اتبعتها فى سرد قصة أخرى من انجازات صديقى اللامعة ، ولكن الأغرب من ذلك أن أبدأ فى سرد قصة من قصصــه فى هذا التاريخ المتأخر • وكل ما آمل فيه ، بعد أن أبدأ قصتى وأبين مصدرها أن أفسر السبب فى تأخرى فى عرضها عــلى الناس •

ان مصــادر هــذه المخطوطة تختلف اختــلافا نسبيا عن المصادر التى استندت اليها فى الحالات التى سبق لى تسجيلها ففى تلك الحالات كنت أرجع الى المذكرات التى دونتهــا فى وقتها ولكن لم توجد مثل هذه المذكرات خلال الفترة التى حدثت فيها الواقعة الحالية •

وهناك سببان لما يبدو اهمالا منى ، أولا أن هذه الواقعة بدأت بطريقة غريبة بحيث انها سارت فى طريقها دون أن أنتبه الى أنها قضية فعلية • وثانيا ، ما أن أدركت ما يحدث حتى تيقنت أنها مغامرة لا يجب أن ترى النور قط •

ولقد أخطأت فى ذلك التقدير ، ولعل المخطوطة الماثلة بين أيديكم ، خير دليــل عــلى ذلك ، ولحسن الحظ أنه رغم اقتناعى ـ أخلاقيا ـ أنه لن تنشأ قط الظروف التى تسمح لى بتدوينها ، فان تلك القصة من الحالات التى أتذكرها بكافة تفاصيلها ولى كل الحق فى ذلك ، ويمكننى القول ان ركائز تلك القصة محفورة فى ذاكرتى وستبقى هناك حتى مماتى وربما بعد ذلك •

الا أن الأســباب التى دعتنى الى التأخر فى عرض تلك القصة على الرأى العام كثيرة ومتراكبة • وقد ســبق لى أن قلت ان هولمز كان شخصا يحب الانفراد ، وهذه قصة لا يمكن وصــفها دون استكشــاف بعض نواحى شــخصيته ، وهــو استكشاف لم يكن ليستسيغه فى حياته وأرجو ألا يعتقد أحد

أن وجوده حيا كان هــو المشــكلة الوحيدة ، فلو كان ذلك صحيحا ، لم يكن هناك ما يمنعنى من كتابتهــا منــذ عشرة أعوام عنــدما لفظ أنفاسه الأخيرة فى تلال سوســكس التى كان يكن لها أكبر اعزاز • كما اننى لم أكن لاشــعر بحــرج للكتابة عن القضية « على جثته » كما يقولون •

فقد كان هولمز ملحدا لا تعنيه سمعته فى العالم الآخر كما كان شديد اللامبالاة بانعكاس ذلك عــلى تشــخصيته فى الحياة الدنيا ، أو متى ما رحل الى ذلك العالم المجهول الذى لا يؤوب منه راحل •

كلا ، لم يكن هناك شىء من ذلك ولكن السبب فى التأخير هو انه كان هناك طــرف ثالث فى القضــية وكان الاحترام والتوقير لتلك الشخصية هو الذى جعله يكبلنى بأشد المواثيق والعهود ، حتى لا أفشى هــذه المسألة الا بعــد أن تكون تلك الشخصية قد رحلت عن عالمنا ، أما اذا رحلت أنا قبلها فتلك مشيئة الله • وقد شاء القدر أن يعالج تلك المسألة بما يخدم مصلحة الأجيال التالية ، فلقد توفى الشــخص المعنى منــذ أربع وعشرين ساعة ، وبينما انشغل العالم فى دبج قصائد المــدح والرثاء « وانشــغل البعض بتشــييعه باللعنــات » واستعيدت سيرته واستعرضت مآثره فى طبعات صدرت على عجل ، بدأت أنا الآخر وأنا مازلت متمتعــا بصــفاء الذهن وثبات اليد ــ ولقد بلغت السابعة والثمانين أى الشيخوخة ــ أقول سارعت الى تدوين مالا يعرفه أحد وأعرفه أنا فقط •

ولا ريب أن ما سأميط عنه اللثام سيثير جدلا فى عــدد من الدوائر ، خاصة أنه سيشمل ما سبق أن أعلنتــه من أن حالتين من قضايا هولمز التى كتبتها كانتا من وحى الخيال • فقد أشار الدارسون المتتبعون لكتاباتى أنه توجد فيهما أوجه تناقض وطريقة واحدة فى تزييف اسم أو تاريخ مما أثبت لجميع المهتمين أن من كتب هاتين الحالتين اما أحمق سخيف أو

على الأقل أخرق شــارد الذهن • بينما رأى بعض البــاحثين المدققين ــ أو الطيبين ــ ان ما يبدو من اخطاء هى في الحقيقه تحريفات مقصودة ، بالاضــافة أو الحــذف ، ارمى بها الى حماية او اخفاء بعض الحقائق أما لأسباب واضحة او لاسباب لا يعرفها أحد غيرى ، عــلى أننى لا أنوى هنــا أن أدخل فى عمليات طويلة من التصــحيح والتعديل للمعلومات واقبلوا اعتذارى عن ذلك •

وتفسيرى البسيط هو اننى عند كتابتى للحالات غالبا ما كان يتم دلك فى عجلة فائقه وكثيرا ما انجا الى ما بدا لى أيسط وسيلة للخــروج من مازق الحــاجة الى التغطيــة او اللياقة ، وعندما استعيد هذه الأمور يبدو لى الآن ان ذلك الأسلوب كان أكثر صعوبة من سرد الحقيقة كما هى، الا أننى كنت أفتقر الى الشجاعة أو فى بعض الحالات الى التدقيق •

الا أن نفس هــؤلاء الباحثين الجــادين الذين ســبقت الاشــارة اليهــم لم يصــفوا قط بالــزيف الحــالتين اللتين اقتطعتهما من النسيج العام وعزلتهما عن بقيــة الروايات ولا أقصد هنا تلك الروايات الزائفة التى كتبتها أيد أخرى غير يدى والتى شملت قصصا تافهة من أمثال « عرف الأسد » و « جوهرة مازالين » و « الرجل الزاحف » و « الحــوائط الثلاث » • وانما أشير الى « المشكلة الأخيرة » التى حــكيت فيها عن المبارزة القاتلة بين هــولمز وأعــدى أعــدائه ذلك الشيطان المسمى البروفيسور موريارتى والى مغامرة «المنزل الخالى » التى صاحبتها • وفى هذه الرواية الأخيرة حــكيت عن عودة هولمز للظهــور بطريقــة دراميــة وقدمت عرضــا مختصرا للسنوات الثلاث التى قضاها فى التجوال فيما بين وسط أوربا وأفريقيا والهند هاربا من صنائع وأتباع عدوه الذى رحل• وقد أعدت لتوى قراءة هاتين الحالتين وتعجبت ، والحق يقال ، لقلة دهائى • فكيف فات على قرائى النابهين الحاحى الزائد على صدق ، ما زعمته ؟ وما القول في كل

تلك التعبيرات المسرحية النثرية والتى هى أقرب الى ذوق هولمز من ذوقى أنا ؟! (فقد كان ، رغم حبه الواضح للمنطق الصارم ، فى قرارة نفسه كاتبا مسرحيا من النوع الرومانسى الميلودرامى الذى لم تنله يد التهذيب) .

وكما عبر لى شرلوك هولمز فى أكثر من مناسبة فان الأدلة التى يبدو أنها تشير بلا جدال الى اتجاه معين قد تتحول ، اذا نظرنا اليها من منظور مختلف قليلا الى التعبير عن تفسير مضاد تماما . وهكذا فقد يصح الأمر أيضا فى الكتابة اذا ربما كان الحاحى المتكرر فى « المشكلة الأخيرة » ، على صدقها الصافى، قد أثار بعض الشك لدى قرائى وجعلهم يتوخون الحذر .

وربما لم يحدث شىء من ذلك الا أن السرية ، كما سوف نرى ، كانت أمرا لازما فى ذلك الوقت وقد آن الأوان اليوم للكشف عن القصة الحقيقية بعد أن تحققت الشروط التى وضعها هولمز .

ولقد أشرت فيما سبق الى أننى قد بلغت السابعة والثمانين ، ومع اننى أدرك جيدا أننى قرب حافة الموت الا أننى من الناحية الانفعالية أستطيع مقاومة النسيان مثلما يستطيعه رجل يبلغ من العمر نصف ما بلغته أو ربعه ومع ذلك فاذا لم تحمل القصة التى سأحكيها فيما يلى من الصفحات أحيانا بصمات أسلوبى المعتاد ، فلابد أن ذلك يرجع جزئيا الى السن بالاضافة الى حقيقة أنه قد انقضت سنوات عدة منذ أن كتبت لآخر مرة ، ولا شك أن الحكاية التى أكتبها اليوم والتى لا تستند الى المذكرات الدقيقة التى تعودت كتابتها تختلف بشكل ملحوظ عن أعمالى السابقة مهما بلغت دقة ذاكرتى .

وهناك سبب آخر لما قد يبدو من اختلاف وهو أننى لـم أعد أكتب بيدى فلقد حال التهاب المفاصل الروماتيزمى بينى وبين القيام بتلك المهمة ولذلك، فأنا أملى هذه الذكريات على آنسة لطيفة تكتبها على الآلة الكاتبة « مس دوبسون » وهى تكتبهـا بطريقـة الاختزال وستنقلها فيما بعـد الى اللغـة الانجليزية كما وعدت ٠

وأخيرا فقد يبدو أسلوبى مخالفـا لكتاباتى السابقة ، وذلك لأن هذه المغامرة من مغامرات شرلوك هولمز تختلف كلية عن أية مغامرة كتبتها من قبـل ولن أكرر خطئى السـابق وأحاول التغلب على شك القارىء بأن أذكر له بأن ما أسرده هو الصدق بعينه ٠

جون ٠ هـ ٠ واطسون

دكتـور فى الطب

محلة الزورث ـ هامبشير ١٩٣٩

الفصـــل الأول

البروفيسور موريارتى

كما سبق لى القول في مقدمتى لحالة « المشكلة الأخيرة » أدى زواجى وما تبعــه من افتتاح عيادة خاصــة بى الى تغير خفى ولكنه محدد فى نمط صداقتى مع شرلوك هولمز ، ففى البداية كان يزورنى فى منزلى الجديد بشكل منتظم وكنت أرد له هذه الزيارات وأقيم معــه لفترة قصــيرة فى مقرنا بشارع بيكر حيث كنا نجلس أمام المــدفأة ندخن الغليــون ويخبرنى هولمز بأحدث اكتشافاته ٠

الا أن هـــذه الترتيبات سرعان ما طرأت عليهــا بعض التغيرات فأصبحت زيارات هولمز متباعدة وانكمشت فتراتها ومع ازدياد ضغط العمل أصبح من الصعب عــلى أن أرتب زياراتى له ٠

وخلال شتاء ١٨٩٠ ـ ١٨٩١ لم أره اطلاقا بل وعلمت من الصحف بوجوده فى فرنسا ولم اتلق منه سوى مذكرتين كانتا هما كل المعلومات التى أدلى بها الى عن الموضوع وكانتا شديدتى الايجاز وتوضحان أنه كان مطلوبا فى مكان آخر ٠ وكان الربيع مطيرا مما زاد من العمل فى عيادتى الخاصــة ومضى الوقت حتى شهر أبريل دون كلمة من هولمز خلال تلك الشهور وفى يوم ٢٤ على وجه التحديد وكنت عــلى وشــك تشطيب بقايا اليوم فى غرفة الاستشارة ـ فلم أكن فى وضع يسمح لى بأن أستأجر سكرتيرة ـ عندما دخل صديقى ٠

ولقد دهشت لمرآه ــ ليس بسبب الساعة المتأخرة التى حضر فيها ، فقد كنت معتادا على حضوره وانصرافه فى اوقات شاذة ــ ولكن بسبب التغير الذى طرأ عليه فلقد بدا اشد نحافة وشحوبا عن المعتاد مع أن مظهره المعتاد كان أميل الى النحافة والشحوب ، وبدا لون جلده مريضا كما فقدت عيناه بريقهما المعتاد . وكانتا تدوران فى محجريهما بلا استقرار تتجولان بلا هدف فى أرجاء الغرفة ــ كما بدا لى ــ ومع ذلك لا تستقران على شىء .

ــ هل لديك مانع من اسدال « شيش » النافذة ؟

كانت هذه أول كلمات ينطق بها ، وقبل أن أستطيع الرد تحرك بسرعة بجانب الحائط وبحركة سريعة أسدل الشيش وأغلق المتراس باحكام ولحسن الحظ كان هناك مصباح يضىء الغرفة وعلى ضوئه رأيت حبات العرق تنساب على خديه ، فسألته :

ــ « ما الأمر ؟ » .

ــ « البنادق الهوائية

وأخرج سيجارة وبيدين مرتعشتين أخذ يفتش فى جيوبه عن عود ثقاب . ولم أره قط من قبل فى مثل تلك الحالة .

ــ تفضل ، وأشعلت له السيجارة ونظر الى بتمعن للحظة من خلال الثقاب المشتعل حيث أدرك بلا شك مدى دهشتى لسلوكه

ــ « لابد لى من الاعتذار لحضورى فى هذا الوقت المتأخر » ، وأخذ نفسا عميقا بارتياح وهو يلقى برأسه الى الخلف .

ـ « هل مسز واطسون موجودة ؟ » ٠

واستمر فى حديثه حتى قبل أن أستوعب اعتذاره وأخذ يذرع الغرفة الصغيرة متجاهلا حملقتى فيه ٠

ـ « لقد خرجت فى زيارة » ٠

ـ « صحيح ٠ أنت وحدك اذن » ٠

ـ « نعم » ٠

وتوقف فجأة عن الحركة ونظر الى ولانت تعبيرات وجهه استجابة لما بدا على وجهى :

ـ « يا صديقى العزيز لابد أن أفسر لك الأمر فلا شك انك تجد تصرفاتى غريبة جدا » ٠

واعترفت بذلك واقترحت عليه أن ننتقل ونجلس بجانب المدفأة ونتناول بعض البراندى اذا لم يكن لديه مانع ٠ وأخذ يتدبر الاقتراح وقد بدا عليه التركيز الشديد وهو أمر يبدو مضحكا لولا أننى أعلم عن هولمزأنه شخص لا تزعجه التفاهات ٠ ووافق فى نهاية الأمر مشترطا أن يجلس على الأرض وظهره الى المدفأة ٠

وانتقلنا الى غرفة الجلوس حيث أضفت مزيدا من الوقود الى المدفأة وأعددت الشراب وجلست فى مقعدى بينما جلس هولمز على الأرض بجانب اللهب وانتظرت أن يبدأ بالحديث ليشبع فضولى ، فسأل :

ـ « هل سمعت قط عن البروفيسور موريارتى ؟ » ٠

منطلقا بذلك الى صلب الموضوع بعد أن تناول رشفة أو رشفتين من الشراب ٠

وكنت فى الواقع قد سمعت بالاسم ولكننى لم أخبره ، لقد كان اسم موريارتى هو النداء الذى كنت أسمعه أحيانا

يغمغم به عندما يكون غارقا في نشوة الكوكايين ، وعندما يتلاشي أثر المخدر لم يكن يشير قط الى هذا الشخص • وقد فكرت مرارا فى أن أساله عن ذلك الاسم ودلالته بالنسبة اليه ، الا أنه كان فى طبع هولمز ما يمنعنى عادة من هذا الاستفسار ، وكان يعرف تماما كيف أننى كنت آكره من صميم قلبى تلك العادة القبيحة « تناول الكوكايين » ولذلك لم أكن أرغب فى أن يتفاقم الأمر بأن أتناول سلوكه وهو تحت تأثير المخدر • أجبته :

ـ « كلا لم أسمع به مطلقا » •

ـ « آه هذا هو الشيء المدهش والعبقرى فى نفس الوقت ؟ » •

وانطلق فى الحديث بحماس دون أن يغير من مكان جلوسه :

ـ « لقد غزا الرجل لندن ، بل العالم الغربى كله ، ولم يسمع به أحد » •

وزاد من دهشتى أنه انطلق فى مونولوج لا نهاية له عن « البروفيسور » وآخذت أصغى باندهاش متزايد وتوجس بينما هولمز يصف لى هذه العبقرية الشريرة أو « أمير الانتقام » كما كان يسميه • ونهض على قدميه وأخذ يذرع الغرفة فى قلق ونسى خطر البنادق الهوائية رغم أنه كان من المستحيل أن يصبح هدفا لها وهو فى غرفة الجلوس وفى مثل هذه الساعة وهذا الضوء ، وأخذ يقص على بالتفصيل تاريخ حياة ذلك الرجل الذى وصل الى الحضيض فى كل أنواع الرعب والاجرام •

أخبرنى أن موريارتى قد ولد فى عائلة طيبة ونال تعليما ممتازا ووهبته الطبيعة ملكة فذة فى الرياضيات ، وفى سن الواحدة والعشرين كتب رسالة عن « نظرية ذات الحدين » لاقت استحسانا فى أوروبا وأدت سمعته الى أن

يفوز بمنصب أستاذ كرسى الرياضيات فى احدى جامعاتنا الصغيرة • الا أن الرجل كانت لديه ميول موروثة من النوع الشيطانى المخيف وتفاعلت مع قدراته العقلية الفذة فلم يمض وقت طويل حتى دارت الشائعات حوله فى البلدة التى تحتوى تلك الجامعة واضطر فى النهاية الى أن يستقيل من منصبه ويستقر فى لندن كمستشار للجيش فى الرياضيات رغم يكن ذلك الا ستارا •

ومال هولمز نحوى وحملق فى وجهى بينما استندت يداه الى حافة الكرسى واستطعت رغم الضوء الخافت أن أرى انسان عينيه يتسع بشدة وفى اللحظة التالية عاد ليذرع الغرفة بطريقته المخيفة •

ـ وخلال السنوات الماضية ـ يا عزيزى واطسون ـ كن وعيى يزداد باستمرار بأن هناك قوة تقف وراء الافعال الاجرامية الشريرة ، قوة تنظيمية عميقة تقف دائما سدا أمام القانون وتبسط حمايتها على كل مرتكبى الآثام والشرور ، وأحسست بوجود تلك القوة مرارا وتكرارا وفى قضايا متنوعة ـ تزوير ، سرقة ، قتل ـ كما استنتجت وجودها فى كثير من الجرائم التى لم يتم اكتشاف فاعلها والتى لم أدع للمساهمة فيها ، ولقد ظللت لسنوات أحاول اختراق ذلك الحاجز وأهتك حجب أسراره وها قد حان الوقت أخيرا فأمسكت بخيط وتتبعته فقادنى بعد آلاف الحيل والمكائد الى أستاذ الرياضيات المعروف البروفيسور موريارتى • فقاطعته :

ـ « ولكن يا هولمز » ••

ـ « انه نابليون عالم الجريمة يا واطسون » •

واستدار صديقى على عقبيه من موقعه أمام المدفأة وأضفت ألسنة اللهب المتصاعدة خلفه وصوته الحاد غير

العادى على هيئته طابعا مخيفا وكنت أرى عروقه وقد انتفضت وبرزت الى أقصاها ·

ـ انه المنظم لنصف الشرور ولكل ما لم يكتشف بعد من جرائم فى هده المدينة الكبيرة وفى سجل الجريمة المعاصرة · انه عبقرى وفيلسوف وآستاذ فى التفكير المجرد ، انه يجلس بلا حراك كالعنكبوت فى منتصف شبكته ، تلك الشبكة التى تتشعب الى آلاف الخيوط ، ويدرك تماما كل هزة فى أى خيط منها وقد يمكن الامساك بعملائه وقد تكتشف جرائمهم أو يحتاط لها أما هو فلا يمسه شىء قط ، بل انه فوق مواطن الشبهات ·

وهكذا انطلق هولمز فى حديثه غامضا أحيانا ، وأحيانا أخرى كما لو كان يتحدث من فوق خشبة المسرح معددا الجرائم التى قام بها البروفيسور ، فتحدث عن أنظمةالوقاية والحماية التى وضعها لتحميه من كل شبهة أو أذى ، كما ذكر بحماس كيف أنه ، أى هولمز ، قد تمكن من اختراق الشبكة الدفاعية التى شيدها البروفيسور وكيف أن أتباع البروفيسور ، عندما اكتشفوا ما نجح فيه ، يقتفون أثره الآن حاملين بنادقهم الهوائية ·

وقد استمعت الى هذا الحديث المتناثر بانزعاج متزايد وبذلت جهدى لكى أخفيه فلم أعرف قط عن هولمز آنه يقول غير الصدق ، كما أدركت فورا أن هذا الحديث لم يكن واحدا من مقالبه المعهودة فقد كان يتكلم بجدية صارمة ، بل يكاد يرتعش من الخوف اذ لم يوجد قط بشر يحمل سجله تلك الفظائع التى نسبها هولمز الى البروفيسور · لقد ذكرنى حديثه رغما عنى بعدو « دون كيشوت » اللدود ؟

ولم ينته الحديث نهاية تقليدية فقد انتقل هولمز تدريجيا من عباراته التقريرية الى همهمات غير مفهومة حتى

وصل الى حد الهمس وصاحب هذا التغير فى نبرة الصوت هبوط فى الحركة النشطة ذهابا وجيئة فاستند الى الحائط حتى ألقى بنفسه دون وعى على كرسى وقبل أن أنتبه الى ما حدث سرعان ما كان يغط فى النوم ٠

جلست فى صمت أمام النار الخابية أتفحص صديقى ، لم أره قط من قبل فى مثل هذا الاضطراب العميق ، بل لم اكن ادرى ما هو نوع الاضطراب وبدا لى من الطريقة التى تكلم بها انه واقع تحت تأثير مخدر قوى ٠

وخطر لى خاطر مفزع فقد تذكرت للمرة الثانية فى هذه الليلة المناسبة الاخرى التى سمعت فيها هولمز يتكلم عن موريارتى آلا وهى عندما يكون واقعا تحت تأثير الكوكايين ٠ تسللت بهدوء عبر الكرسى الذى كان يستلقى عليه وقد راح فى غيبوبة وأزحت جفنيه وفحصت انسان عينيه ثم قست نبضه وكان ضعيفا مضطربا وفكرت بالمخاطرة بنزع سترته وفحص ذراعيه لأرى ما اذا كانت هناك علامات لحقن فيها ، الا أننى فضلت ألا أخاطر بايقاظه من النوم ٠ وعدت الى مقعدى مسترجعا أفكارى : فى الماضى كان هولمز يتعاطى الكوكايين أحيانا لمدة شهر أو اكثر وخلال تلك الفترة كان يحقن نفسه ثلاث مرات يوميا بمحلول من الكوكايين يبلغ تركيزه ٧٪ ولقد ظن الكثير من القراء ، خطأ ، أن هولمز كان يستغل صداقتى حتى أحصل له بوصفى طبيبا على ما يريده من هذا المخدر الفظيع ، بل لقد سمعت أخيرا أن استجابتى لرغبة هولمز فى امداده بهذا المخدر كان السبب الوحيد الذى جعله يطيق صحبتى ، ولن أعلق على سخافة هذا الكلام يكفى أن أقول ان هولمز لم يكن يحتاج لذلك ، ففى القرن الماضى لم تكن هناك قوانين تمنع المرء من شراء الكوكايين أو الأفيون بأية كمية يرغبها ، ولذلك لم يكن هذا الأمر غير قانونى بأى حال من الأحوال ، كما كان نفورى من

امداده بالكوكايين أمرا يخرج عن نطاق الموضوع وعلى أية حال فقد أشرت فى أماكن أخرى الى محاولاتى المتعددة لكبح جماحه عن الاستمرار فى هذه العادة المرذولة والمدمرة للذات .

ولقد نجحت فى مسعاى خلال فترات معينة ، على أن الآمر لم يكن راجعا الى قدرتى على الاقناع فحسب وانما الى ما يضاف اليها عندما تحال اليه قضية جديدة ومثيرة ، فقد كان العمل هو « أفيون هولمز » وكانت المشكلات التى تستعصى على الحل وتتحدى القدرات هى ميدانه الأصيل فاذا ما اندمج فى قضية من هذا النوع لم تكن به حاجة الى اللجوء الى اى منبهات اصطناعية ونادرا ما كنت تراه خلال تلك الحالات يتناول أكثر من كأس من النبيذ مع العشاء ، وكان ذلك بالاضافة الى كميات كبيرة من التبغ هى الملذات الوحيدة التى يمتع نفسه بها عند اندماجه فى قضية ما .

الا أن مثل تلك القضايا المتحدية كانت نادرة ، وكان هولمز دائما ينعى انعدام الابتكارية لدى فئات المجرمين وكانت قولته الدائمة لى والتى تتسم بالمرارة عندما كنا نسكن معا فى شارع بيكر : « لم تعد توجد جرائم عظيمة هذه الأيام يا واطسون ! » .

فهل أمكن ، ما بين غياب الجرائم المحيرة وبين رحيلى من شارع بيكر ، أن يقع هولمز فريسة مرة أخرى ــ وبلا عودة هذه المرة ــ أن يقع فريسة فى مخالب الكوكايين ؟ .

وما لم تكن القصة الخيالية التى حكاها لى لتوه هى الصدق بعينه لم يكن أمامى الا هذا التفسير لما سرده على من وقائع ، ومن حكم هولمز الشهيرة أنه عندما تستبعد كافة الامكانات المحتملة ، فان الباقى مهما بلغت درجة لا معقوليته سيكون هو الحقيقة .

وما أن وصلت الى هـذا الحـد من التفـكير حتى قمت وأفرغت رماد غليـونى فى المـدفأة وقررت الانتظار لارى ما ستتمخض عنه الأحداث ، وألقيت غطاء على جسد صديقى الهامد واطفأت المصباح ٠

ولا أستطيع القول كم مضى على وأنا قابع فى الظلام ، ربما مرت ساعة او ساعتان ، حيث اننى كنت مستسلما للنوم عندما استيقظ هولمز وأيقظنى ، وتاه من عقلى ، للحظـة . أين أنا وماذا حدث ؟ وبسرعة البرق استعدت نفسى ثم أضأت المصباح ٠

وكان هولمز هو الآخر يستعيد نشاطه وأدار عينيه فيما حوله بنظرة تائهة ولاحظت أنه هو أيضـا قد نسى المـكان وماذا اتى به هنـا ٠ ثم تثاءب فى ارتيـاح وقال : « غليون وجرعة من الخمر يا واطسون ــ لا شىء يعادلهما فى ليـالى الربيع المطيرة ، هل غفوت أنت أيضا واستسلمت لمورفيوس اله النوم ؟ » ٠

وأجبته : « يبدو أن الأمر كمـا تقول » ٠ ثم تجرأت وسألته عن البروفيسور موريارتى ٠

ونظـر هولمز الى نظـرة لا معنى لها وقال : « من ؟ » وحاولت شرح ما كنا نتحدث فيه بشأن هذا السيد قبل أن يلعب البراندى والدفء بأعطافنا فأجاب بحدة : « هراء ، لقد كنا نناقش كتاب ويندوودريد « تضحية الانسـان » وكنت أستشهد بشىء أو بآخر من أعمال « جان ــ بول » وهذا هـو آخر ما أتذكر » ، ونظر الى نظرة ذات معنى وقال : « أما اذا كنت تتذكر شيئا آخر فكل ما يمكننى قوله هو أن البراندى الذى شربناه أقوى بكثير مما يزعم صانعوه » ٠

اعتذرت لهولمز وقلت ان ما تذكرته هو غالبا من صنع الخيال وتبادلنا بعض الكلمـات وودعنى هـولمز ، ولم يأبه

لاعتراضاتى أنه من الصعب الخروج فى الساعة الثالثة صباحا ٠

ـ « سينعشنى هواء الليل أيها الرجل العجوز وأنت تعلم انه لا يوجد خبير مثلى بشوارع لندن فى تلك الساعات الغريبة بلغ نسكرى الى مسز واطسون لهذه الليلة الممتعة أيها الرجل الطيب » ٠

ذكرته بأن زوجتى مسافرة الى الريف ونظر الى بحدة للحظة ثم هز رأسه وذكر البراندى مرة أخرى ورحل ٠

أغلقت الباب بالمزلاج خلفه يملؤنى التوجس والارتياب وصعدت درجات السلم الى غرفتى وبدأت فى خلع ملابسى ولكنى عدلت عن ذلك وجلست فى مقعدى واضعا يدى على ركبتى بجانب مدفأة غرفة النوم ــ وكانت نارها قد خبت منذ وقت طويل ٠

راودتنى فكرة أن هولمز كان على صواب وأنه قد اتى الى ليقضى سهرة مسائية متأخرة وأننا دخنا غليونا أو اثنين وشربنا كأسا أو ثلاثة وأننى قد تخيلت كل ذلك الحديث عن البروفيسور موريارتى بينما دار الحديث بيننا فى مسائل أخرى مختلفة تماما ، هل كان ذلك ممكنا ؟٠ وكنت فى حالة من الاجهاد تمنعنى من التفكير بوضوح مثلما يحدث حين يستيقظ المرء بعد كابوس مخيف ويظل لفترة غير مدرك انه قد استيقظ منه ٠

وكان لابد لى من دليل ملموس فتسللت هابطا أحمل مصباحا فى يدى ولاشك أن منظرى كان سيبدو غريبا لو ان الخادمة رأتنى ، رجل فى أواسط العمر دون حذاء وبقميص مفتوح يتسلل على سلم منزله وقد ارتسمت على وجهه أمارات الذهول ودخلت غرفة الاستشارة حيث بدأت مشاهد هذه

الفانتــازيا ـ اذا كانت فانتــازيا فعــلا ـ وفحصت شيش النافذة ، كان مغلقا بالمزلاج ولكن من الذى أغلقه ؟ هولمز كما أذكر ام أنا ؟ وجلست فى مقعدى محاولا أن أتذكر كل تفاصيل الحديث وتصورت اننى هــولمز نفســه ينصت الى عميل يعرض قضيته فى غرفة الجلوس بمنزلنا القــديم فى شارع بيكر ، ولقد كان المنظر اذا تصادف ورآه أحد ، امرا يبعث على السخرية فها هو رجل فى أواسط العمر دون حذاء يجلس فى قاعة الاستشارة يضيئها مصباح واحد ويتحدث الى نفسه . وكنت أفعل مثلما يفعل هولمز ، أتوقف بين كل سؤال وآخر لاتمعن ما يقال ودار بينى وبين نفسى الحــوار التالى : هل تستطيع أن تتذكر أى شىء قاله أو فعله الرجل بشأن الحديث الذى دار قبل أن تستيقظا معا ويشير هو الى البراندى الذى تناولتماه سويا ؟

ـ كلا . لا أتذكر ، ولكن لا !! انى أتذكر شيئا .

ـ عظيم يا واطسون عظيم ! .

ـ كانت هذه هى العبارة المألوفة ولكن الصــوت هــذه المرة كان صوتى أنا .

ـ لقد سألنى عندما دخل غرفة الاستشارة لأول مرة : أين مارى ؟ وأجبته بأنها فى زيارة بالخارج وأننا وحدنا ، وبعد ذلك ـ بعدما أخذنا غفوتنا كل منا على كرسيه ـ وكان على وشك المغادرة طلب منى أن أنقل شكره الى زوجتى لهــذه الليلة الممتعة ولما أخبرته أنها غير موجــودة بدت الدهشــة عليه اذ لم يتذكر ما سبق أن أخبرته به .

ـ هل أنت متأكد من أنك ذكرت له هذا الأمر من قبل ؟

ـ نعم بالتأكيد ولو أننى غضبت للسؤال .

ـ ألم يكن من الممكن اذن طالما كان هناك تأثير للبراندى أنه قد نسى ببساطة ما ذكرته له من قبل ؟ ٠

ـ نعم ٠ نعم ، لكن هذا هراء فلم يكن أى منا سكرانا ٠

ونهضت والجوارب فى قدمى وأمسكت بالمصباح وانتقلت الى غرفة الجلوس فى محاولة للفرار من صوتى الثانى وأزحت الستائر فى غرفة الجلوس ورأيت أن ضوء النهار فى طريقه الينا ، ولقد كنت مجهدا عندما ظهر هولمز لأول مرة أما الآن فيبدو أننى قد أنهكت تماما ٠

ـ هل جاء فعلا ؟

وكانت هذه فكرة أشد جنونا ولعنت نفسى لمجرد أننى فكرت فيها ولو فى أعماق نفسى وتحولت عن النافذة و بدايات ضوء الفجر ٠

طبعا لقد كان هنا ٠

رأيت أمامى الدليل على ذلك ، كان هناك الكأسان اللتان شربنا منهما أنا وهولمز ٠

واستيقظت فى الصباح التالى ، أو على وجه الدقة فى نفس الصباح وكنت فى سريرى ويبدو أننى ألقيت بنفسى عليه دون أن أنزع ملابسى خلال تأملاتى التى لم تصل الى شىء بشأن الليلة الماضية وكان المنزل قد بدأت فيه الحركة استعدادا لليوم الجديد ، ونهضت وأنا أنوى البحث من جديد فى هذا الأمر ٠

بدلت ملابسى وأتممت حلاقة ذقنى ونزلت حيث تناولت طعام الافطار ولم تلفت نظرى صحف الصباح لقد كان عقلى شاردا فى مكان آخر، لقد تذكرت الآن أننى قست نبض هولمز

وفحصت انسان عينيه فى الليلة الماضية ومرة أخرى راودنى السؤال : هل كان هذا واقعا أم كان جزءا من الحلم ؟

ألح على السؤال بجنون فأنهيت افطارى بسرعة وذهبت الى زميلى كولينجوورث وطلبت منه أن يحل محلى فى عيادتى هذا الصباح وكان سعيدا بذلك فطالما طلبت مساعدته دون اخطار مسبق واستدعيت عربة وشددت الرحال الى شـــارع بيـــكر ٠

كان النهار لا يزال فى بدايته عندما ترجلت من العربة على الرصيف المألوف أمام رقم ٢١٢ ب ونقدت السائق أجره واستنشقت نسيم الصباح وكان لا يزال نديا وقرعت الجرس ففتحت لى الباب بسرعة مدبرة منزلنا المسز هدســون وبدا عليها أنها أكثر من فرحة لرؤيتى وصاحت دون مقدمات :

ـ حمدا لله يا دكتور واطسون أنك آتيت ٠

ولدهشتى جذبتنى من كم سترتى الى داخل المنزل ٠

ـ ماذا هنالك ؟

ولكنها وضعت اصبعها على شفتيها مشيرة بقلق الى أعلى السلم ٠ كانت أذنا هولمز مرهفتين ، وبدا أن حديثنا المتبادل القصير قد وصل الى سمعه ، وجاءنا صوته الحـــاد من أعلى « يا مسز هدسون اذا كان الطارق يحمل اسم البروفيســور موريارتى فدعيه يصعد وسوف أسوى حسابى معه » ٠

ـ « ها أنت ترى يادكتور واطسون » ، همست مديرة المنزل التعيسة فى أذنى : « لقــد تحصن فى الغرفة العليـــا ولا يتناول طعامه ، ويسدل ستائره طوال النهار ثم يتسلل خارجا فى الليل بعــد أن أكون قد أغلقت البــاب بالمــزلاج وذهبت الخادمة الى فراشها » ٠

ـ صاح هولمز : « يا مسز هدسون » ٠

ربتت على ذراعها لأطمئنها وقلت : « سأصعد لأراه » ولكننى فى الحقيقة لم أكن واثقا من نفسى ، هناك اذن بروفيسور موريارتى ، على الأقل فى خيال هولمز ، وصعدت الدرجات السبعة عشر الى مسكنى القديم وقلبى مثقل ، ترى ما الذى دهى هذا العقل النابه ؟!

طرقت الباب فصاح هولمز من الناحية الأخرى : « من الطارق ؟ أهذا هو أنت يا موريارتى » ٠

ـ « أنا واطسون » وأعدت ذلك القول عدة مرات حتى وافق أخيرا أن يفتح زاوية من الباب ونظر الى نظرة غريبة من خلال الفرجة ٠

ـ « انه أنا يا هولمز دعنى أدخل يا رجل » ٠

ـ « ليس بهذه السرعة » ، وكان قد دس رجله خلف ضلفة الباب وقال : « قد تكون أنت موريارتى متخفيا ، أثبت لى أنك واطسون » ٠

فولولت صائحا : « كيف ؟ » ولم تكن لدى أية فكرة عما يمكن أن يثبت له حقيقة هويتى ٠

ـ فكر قليلا ثم قال : أين أحتفظ بتبغى ؟

ـ تحتفظ به داخل خفك الفارسى ٠

ويبدو أن هذه الاجابة السريعة قد خففت من شكه بعض الشىء فلان صوته وسأل :

ـ « وأين أحتفظ بمراسلاتى ؟ » ٠

ـ « على رف المدفأة وبجانبها مطواة » ٠

فأصدر صوتا نم عن التأييد :

ــ وما هى أول كلمات وجهتها اليك ؟

ــ « يبــدو أنك كنت فى أفغانستان » · وصــحت فى هولمز أستعطفه : « افتح يا رجل بحق السماء » ·

ــ « حسنا ، يمكنك أن تدخل » · يبدو أنه اقتنع أخيرا فأزاح قدمه من خلف الباب وفتحه فتحة ضــيقة وجــذبنى بشدة الى الداخل وأغلق الباب خلفى بسرعة وجــذب عــدة مزاليج وأقفال لم أرها قط خلال اقامتى معه وأخذت أراقبه مشدوها بينما يقوم بتلك العمليات ثم وضع أذنه خلف الباب يحاول الانصات لشىء لا أدريه وأخيرا اســتقام والتفت الى مادا يده ·

قال وقد ارتســمت عــلى شفتيه ابتسامته المعهــودة : « اعذرنى يا واطسون لشكى فيك ولكن كان عــلى أن أتأكد فانهم لا يتورعون عن شىء » ·

ــ تقصد عصابة الأستاذ ·

ــ تماما ·

وقادنى الى داخل الغرفة وعرض على تناول الشاى الذى صنعه بنفسه مستخدما كمــا بدا لى موقدا التقطه من أدواته الكيميائية وكأسا زجاجية ! قبلت دعوته وجلست أنظر فيما حولى، كان المكان كما عهدته عندما كنت أشارك هولمز السكن، ولكن شيش النوافذ كان مدعما بمزاليج كما كانت الستائر مختلفة عن تلك التى أعرفها فقد أصبحت مصنوعة من الحديد وكان هذا الشــيش والأقفال خلف الباب هى كل التغييرات التى لاحظتها ·

ــ « تفضل أيها الرجل العجوز » وامتدت ذراعا هولمز

لنقدم لى قدح الشاى ، وكان يرتدى ثوبه المنزلى (الروب) ذا اللون الرمادى ، وانكشفت ذراعاه وهو يقدم لى الشاى وكانتا مليئتين بندوب الحقن •

ولن أسهب فى تفاصيل تلك المقابلة المؤلمة فلا ريب ان موضوعها واضح لكم ، كما أننى لا أريد أن ألقى أى ظل من الشك على ذكرى هذا الرجل العظيم بأن أحكى ما أحدثه هذا المخدر البشع فى ملكاته الذهنية •

تركت شارع بيكر بعد ساعة وقد خرجت مشيعا بنفس الاحتياطات التى صادفتها عند الدخول واستدعيت عربة وعدت الى منزلى •

وصلت وأنا مازلت تحت تأثير صدمة مقابلة هولمز وهناك واجهتنى مفاجأة مزعجة فقد أخبرتنى الخادمة حال دخولى أن هناك سيدا ينتظرنى •

ـ ألم تخبريه أن دكتور كولينجوورث يحل محلى هذا الصباح ؟

ـ لقد فعلت يا سيدى ولكن الرجل أصر على رؤيتك شخصيا • ولم أشأ أن أغلق الباب فى وجهه ولذلك تركته ينتظر فى غرفة الاستشارة •

وكان هذا أكثر مما أحتمل وزاد غضبى وكنت على وشك التعبير عنه عندما قدمت الى الفتاة بطاقة وهى تقول : « هذه هى بطاقته يا سيدى » ، وتناولت البطاقة وشعرت برجفة تنتابني وتحول الدم فى عروقى إلى جليد • لقد كان الاسم المدون على البطاقة هو « البروفيسور موريارتى » •

الفصـــل الثانى

ســيرة الحيـــاة

حملقت بغباء لمدة دقيقة فى البطاقة وانتبهت لوجـــود الخادمة فدسست البطاقة فى جيبى ودخلت غرفةالاستشارة ٠

لم أكن أجرؤ على التفكير بل لم أرغب فيه ، فليوضح لى هـذا السيد مهما كان ومهما كان اســمه ، تلك الأمور فلم تعد بى مقدرة على التخمين أكثر من ذلك ٠

نهض الزائر حالما دخلت الغرفة وكان شــخصا خجـولا ضئيل الحجم فى الستينيات يحمل قبعته فى يده وعلى وجهــه امارات انزعاج سرعان ما تحولت الى ابتسامة وجلة عنــدما قدمت نفسى اليـــه ٠ وقدم الى يدا صـــغيرة عانقت يـــدى باختصار ٠ كان حسن الهيئة ولكن ملابسه لم تكن من النوع الغالى وكانت عليه أمارات أصحاب المهن ولكنه ، رغم ذلك ، بدا غير معتاد على صخب الحياة وضجيجها ، ربما كان ينتمى الى دير حيث عيناه الزرقاوان المصابتان بقصر النظر لا عمل لهما الا الانكباب على الأوراق القديمة وفك ألغاز معانيها ٠ وكانت رأسه تؤيد الانطباع الذى كونتـــه عن طبيعته بأنه أميل الى أن يكون رجل دين ، فقد كانت صلعاء تقريبا مع وجود خصلات خفيفة من شعر أبيض رمادى يحيط بمؤخرة الرأس والجانبين ٠

ــ قال بصوت خافت ولكن قلق : « أرجو ألا أكـــون قد سببت لك ازعاجا باحتلالى غرفة استشارتك ٠٠ فان طبيعة

مهمتى عاجلة الى أقصى حد وشخصية جدا فأنت هو الشخص الذى أريد أن أقابله وليس الدكتور كولينجورث » ٠

فقاطعته بخشونة لاحظت أنها أزعجته ٠٠ « حقا حقا أرجو أن تخبرنى بهذا الأمر » ٠٠ خففت من حدة صوتى وأشرت اليه أن يجلس ، وجلست على مقربة منه ٠

ــ « الحقيقة أننى لا أعرف من أين أبدأ » ، وكانت لديه عادة مزعجة وهى آن يدير قبعته بين يديه وهو يتكلم ، وحاولت أن أتصوره فى الصورة التى وصفه بها هولمز ــ شيطان شرير ذكى يجلس بلا حراك فى مركز كافة المؤامرات الدنيئة التى ينسجها الانسان ــ الا أن هيئته لم تكن تنبىء عن هذا ٠

واستمر البروفيسور فى حديثه بتصميم وحيوية قائلا: « لقد جئت اليك لأن قراءتى لقصصك بينت لى أنك صديق مستر شرلوك هولمز الصدوق » ٠

ــ « انى أتشرف بذلك فعلا » قلتها بصوت خشن وهزة من رأسى فقد صممت على أن آخذ حذرى ورغم أنى حكمت على مظهره بأنه غير مؤذ الا أننى قد عزمت على ألا يخدعنى منظره ٠

ومضى فى حديثه يدير قبعته بيده : « لا أعرف كيف أقول لك ولكن مستر هولمز ٠٠ أعتقد أن الوصف الوحيد لما يفعله هو أنه يضطهدنى » ٠

ــ فصحت : « يضطهدك أنت ؟ » ٠

ــ « نعم » قالها بسرعة وقد بدا عليه الانزعاج مرة أخرى لنبرة صوتي ولو أنه كما بدا لى لم يلحظ نبرة التوكيد ٠

ـ « أنا أعلم ان حديثى يبدو سخيفا ولكنى لا آرى سبيلا آخر لوصفه ، انه يقف خارج منزلى فى الطريق وفى الليل » واختلس نظرة الى ليرى أية استجابة تفصح عنها ملامحى ، ولما اطمأن الى أننى لست على وشــك الانفجــار من الغضب استمر فى حديثه :

ـ « انه يقف خارج منزلى ليلا ، ليس فى كل ليلة وانما عدة مرات فى الأسبوع ، وهو يتبعنى أحيانا أياما بطولهــا يقتفى إثرى ولا يعنيه أننى أراه ، كما أنه يرسل الى خطابات» .. قالها بعد تردد

ـ « خطابات ؟ »

ـ « حسنا انها ليست خطابات بل برقيات تحتوى جملة أو جملتين .. موريارتى خذ حذرك ؟ لقــد أصبحت أيامك معدودة ؟ وأشياء من هذا القبيل بل لقد قابل ناظر المدرسة بشأنى » .

ـ « ناظر المدرسة ؟ أى ناظر تعنى ؟ » .

ـ « انه المستر برايس جونز ناظر مدرســة كرويلوت التى أعمل بها مدرسا للرياضيات » . (وكانت مدرسة عامة غير مشهورة فى منطقة غرب لندن) « لقد استدعانى ناظــر المدرسة وطلب منى الرد على مزاعم مستر هولمز » .

ـ وماذا قلت له ؟

ـ « لقد قلت اننى فى حيرة من أمرى ولا أستطيع التفسير حيث اننى لا أعلم ما هى تلك المزاعم فأخبرنى بها » .

وتململ موريارتي في مقعده وصوب عينيه الزرقاوين الى وقال : « يا دكتور واطسون ان صديقك يعتقد أنني نوع من ٠٠ وبدا عليه انه يبحث عن الكلمة المناسبة ــ انني نوع من العقل المدبر لعالم الاجرام بل ومن عتاة مجــرمي هــذا العالم » وأردف ذلك بهزة استسلام من منكبيه ومتعجبا بكلتا يديه :

ــ « واني أســألك يا سيدى بكل أمانة هل ترى في أي ملامح لمثل هذا الشخص ؟ » ٠

ولم يكن هناك بد من الاعتراف بأنني لا أستطيع أن أرى ذلك ، وتابع الرجل حديثه بصوت متألم :

ــ « ولكن ما العمل ؟ ٠٠ انى أعلم أن صديقك رجــل طيب وتلهج انجلترا كلها بالثناء عليه ولكنه في حالتي قد ارتكب خطأ فاحشا وأصبحت أنا ضحية تعيسة له » ٠

ولم أقل شيئا فقد دارت رأسي من التفكير ٠

واستمرالرجل في حديثه المتألم : «ان آخر ما أرغب فيه هو أن اسبب له اى ازعاج أو حرج ، الا آن السبل قد تقطعت بي واذا لم يتم عمل شيء بهذا الخصوص ، أى بشــأن هــذا الاضطهاد ، فليس أمامى من سبيل الا أن ألجأ الى محامى ؟ » ٠

ــ أجبت بسرعة : «لن يكون هذا ضروريا ولو أنني في الحقيقة ليست لدى أية فكرة عما سأتخذه في هذا الصدد » ٠

ووافق الرجــل عــلى كلامي وقال : « أرجــو مخلصــا ألا نضطر الى ذلك ، وهذا هو السبب في لجوئى اليك » ٠

ــ فأجبت ، وقد بدأت أتحسس طريقى : « ان صديقى ليس على ما يرام في هذه الأيام ، فهذا التصرف ليس من طبعه ولو كنت قد تعاملت معه عندما كان بكامل صحته ٠٠

فقاطعني البروفيسور بدهشة بالغة : « نعم لقد عرفته آنذاك » .

ـ « عرفته ؟ » .

ـ « بالتأكيد .. ولقد كان شابا غاية في الظرف السيد شرلوك الصغير » .

ـ « السيد شرلوك الصغير ؟ » .

ـ « أجل .. لقد كنت أدرس له الرياضيات » .

وحملقت فيه وقد فغرت فمي من الدهشة .. وبدا لي من التعبيرات التي تتالت على وجهه انه كان يظن انني أعلم ذلك .. فقلت له بأنني لا أعلم ورجوته أن يخبرني .

ـ قال وقد زاد اضطراب نبرات صوته وضوحا : « ليس هناك الكثير مما يقال فقبل مجيئي الى لندن منذ عدة سنوات بعد تخرجي من الجامعة ..

فقاطعته : « اسمح لي، هل تصادف أنك كتبت رسالة عن نظرية ذات الحدين ! » .

فحملق في وجهي وقال : « كلا بالتأكيد فلا يوجد لدى أحد ما يمكن ان يضيفه الى هذه النظرية وعلى أية حال فلست في وضع يمكنني من معرفة ذلك » .

ـ « لا تؤاخذني ، استمر من فضلك » .

ـ « كما سبق لي القول تخرجت في الجامعة وقبلت وظيفة معلم للرياضيات في منزل الوجيه هولمز وهناك علمت السيد مايكروفت والسيد شرلوك .. » .

ـ « أعتذر مرة أخرى عن مقاطعتك » قلتهـا وأنا فى غاية الدهشـة • اذ لم يذكر لى شرلوك شـيئا عن اهله ابدا خلال مرحلة صداقتنا كلها « وأين كان ذلك ؟ » •

ـ «كان ذلك بالطبع فى سوسكس مقر ضيعة العائلة» •

ـ « هل أتت العائلة من سوسكس ؟ » •

ـ « الواقع انها لم تكن هناك أصلا ، بمعنى ان عشـيرة هولمز انحدرت من هناك.ولكن الوجيه.ذان ابنا ما بيا وبالتالى لن يرث الضيعة ابدا بحكم القانون ولذلك فقـد انتقـل مع عائلته ليعيش فى نورث ريدنج فى يورك شاير ، وهنـاك ولد السيد مايكروفت ثم مات الاخ الأكبر للوجيـه.وكان أرملا لم ينجب ومن ثم عاد والد السيد شرلوك بعائلته الى الضيعة القديمة (١) »

ـ « آه وهناك قابلت شرلوك هولمز »

ـ « لقد درست لكلا الولدين » قالهـا موريارتى بنبرة لا تخلو من فخار « ولقد كانا صبيين غاية فى الذكاء ، وكم وددت أن أستمر معهما لولا ــ ثم قال بعد تردد ــ لولا المأساة التى حدثت ».•

ـ « أية مأساة ؟ » •

نظر الى مرة أخرى باندهاش :

ـ « ألا تعلم ؟ » •

ـ « أعلم ، أعلم ماذا يا رجـل ؟ بحق السـماء هلا أفصحت » كنت جالسـا عـلى حافة مقعـدى وأنا فى غاية

---

(١) ان هذا التوضيح يبدو انه يوفق بين رأيين متعارضين الاول ما قال به و٠س٠ بارنج ـ جولد الذى ذكر فى تأريخه لسيرة هولمز أنه انحدر من يورك شاير وبين ما قال به تربفور هول الذى زعم حديثا أن هولمز قد ولد ونشأ فى شرق سوسكس • كما يخبرنا بارنج جولد ايضا بأن موريارتى قد علم هولمز الرياضيات ولكنه لم يشر الى مصـدر تلك المعـلومة « نيكولاس ماير » •

الاستثارة فلقد كانت تلك التفاصيل جديدة على حتى انى نسيت هولمز ومشكلاته الخطيرة فى غمرة حماسى لاشباع فضولى بشان ماضى هولمز ، لقد كانت كل كلمة يصدرها الرجل الصغير آشد هولا من سابقتها ٠

ـ « مادام السيد شرلوك هولمز لم يحك لك الموضوع فلا أظن أن من حقى أن أقوله » ٠

ـ « ولكن يا رجل ٠٠ » ٠

لم أستطع اقناعه فقد كان رأيه أن المسألة خاصة بشرف المهنة ولم تفلح كل محاولاتى فى اثنائه عن رأيه ، وكلما ازددت الحاحا ازداد هو اصرارا وفى النهاية صم أذنيه عن كل توسلاتى ونهض باحثا عن عصاه ، وقال متجنبا التقاء عينى بعينه : « لقد قلت فى الحقيقة كل ما جئت لقوله ـ ويجب أن تلتمس لى العذر فلا أستطيع ولن أستطيع أن أفشى هذا الأمر ٠ لقد قلت كل ما أقدر عليه وأترك الأمر بين يديك لتحل هذه المعضلة » ٠

وانصرف وهو فى حالة من العزم والتصميم لم أتوقعها منه ٠ وتحول التهيب والوجل فجأة الى رغبة فى الخروج ٠ وانصرف البروفيسور موريارتى وتركنى أفكر فيما يجب أن أفعله ٠ أما فيما يتعلق بتلك الاشارات المرعبة الى ماضى هولمز الملىء بالمآسى فقد أحسست فيما بينى وبين نفسى أن ما قد يراه البروفيسور مأساة قد يبدو فى نظرى مجرد أمر محزن باعتبار أنه ، كما أظن ، رجل ذو طبيعة مفرطة الحساسية ٠ ولم يكن لدى وقت أنفقه فى التفكير فى تلك المسارات اذ كان يجب أن أركز فيما يعانيه هولمز من انهيار وفى التهديد المقنع الذى ألقاه موريارتى (ولو أننى لسوء الحظ كنت أقدر ظرفه) عن لجوئه الى محاميه فهذا أمر يجب تجنبه بأى ثمن ٠ فقد كان هولمز ذا طبيعة سريعة الانفعال ـ ولقد

شاهدته مرتين ينهار قبل ذلك ـ ليس بسبب الكوكايين بالطبع ـ ولم أتصور امكان تعريضه لتلك الخبرة مرة اخرى (١) ٠

وقررت ، بعد تفكير ، ان ما يحتاجه هولمز هو العلاج اذ يجب ايقاف هذه العادة المطيعه ٠ ولا شك انني احتاج في هذا الامر الى نوع من المعونه اذ توضح لي خبرتي السابقه انني لم أستطع ايقاف ادمانه باستخدام قدراتي الضئيلة ومعرفتي القليله ، واذا صدق ظني فان القليل الذي حاولته قبل ذلك يبدو مستحيلا الآن ٠ فخلال الشهور الماضية عندما كانت اتصالاتنا ضئيلة جدا لابد أن ذلك السلوك القهري المميت قد ازدادت قوته عشرة أضعاف بحيث انه أصبح الآن أسير قبضته المرعبة أكثر مما كان عليه في أي وقت مضى ٠ فاذا لم أكن قد استطعت مساعدته في التخلص من تلك القبضة قبل ذلك عندما كانت لا تزال ميلا وقتيا فكيف يمكنني مجابهتها الآن بعد ما أصبحت تمسك بخناقه ؟

ونظرت الى ساعتي ولاحظت انها تعدت الثانية أي أن الجزء الأكبر من النهار قد انقضى وسيكون من الحماقة أن أستمر في العيادة ذلك ان ماري زوجتي ستعود من عند مسز فورستر في الخامسة وكنت أنوي الذهاب الى محطة ووترلو لاستقبالها ٠

ورأيت أن أستفيد من تلك الفترة بأن أمر على مستشفى بارت لأسأل ستامفورد النصح ـ ولن أخبره بالطبع بالحقيقة كاملة ـ ولكن أعرض عليه المشكلة وكأنها تخص أحد مرضاي ٠

---

(١) يشير واطسون الى واقعتين حدث فيهما مثل هذا الانهيار الاولى في قصة « اسياد صيعة ريجيب » والثانية في مغامرة « قدم الشيطان » (نيكولاس ماير) ٠

وكان ستامفورد ــ كما يتذكر القراء ــ يعمل مساعدا لى فى مستشفى بارت عندما كنت ادرس فى جامعه لنــدن عام ١٨٧٨ ، وتقدم فى دراسته منــذ ذلك الحين وحصــل عــلى البكالوريوس من جامعة لندن العتيدة وأصــبح الآن طبيبــا باطنيا فى هيئة ذلك المستشفى القديم والذى ــ منذ سنوات بعيدة فى معمله الكيميائى ــ عرفنى ستامفورد فيه لاول مرة بشرلوك هولمز ، ولم يكن على معرفة وثيقة بهولمز وانما جمع بيننا من خلال معرفته بأن كلا منا كان يرغب فى ايجاد سكن مشترك بسعر مناسب ، ولم أكن أنوى بالطبع أن أذكر هولمز اليوم اذا استطعت ذلك ٠

خرجت من منزلى مرة أخرى، مزودا فى تلك المرة ببعض الخبز واللحــم البارد زودتنى به الخــادمة ولففتــه بالورق ودسسته فى جيبى ــ رغم اعتراضها ــ كمــا رأيت هــولمز يفعل فى عدد من المرات عندما ينشغل بقضية ولا يوجد لديه وقت لتناول وجبة معتادة ٠ وأحدثت الذكرى هزة فى صدرى وأنا أمتطى المركبــة فى طريقى الى مســتشفى بارت للقيام بتلك المهمة الكئيبة ٠

ولقد تعجب الكثير من الباحثين المعــاصرين اننــا ــ أى هولمز وأنا ــ كنا مؤمنين بركوب المركبات رغم ارتفاع سعرها فى حين أنه كان يمكننا أن نستقل قطار الأنفاق بسعر أقل بكثير ، وما دمنا بصدد الكشف عن الألغاز فيمكننى القــول انه رغم أن قطار الأنفاق كان أقل تكلفة من المركبات التى تجرها الجياد ورغم أنه كان أسرع بالتأكيد فى بعض الأحوال الا أن الخطوط لم تكن قد اكتملت كلها وفى كثير من الحالات لم تكن لتحملنا الى حيث نرغب ٠

لكن السبب الحقيقى فى عدم استعمالنا له حتى ولو كان يفى بالغرض ــ واستخدام صيغة الجمع هنا يعود عــلى معظم السادة المحترمين الميسورين ــ هو أن قطار الأنفاق فى ذلك الوقت

كان عميق الغور وكانت القطارات تدار بالبخار كما كانت قدرة وحطرة تموح منها رائحه حامض الكبريتيك ولم تكن مأمونه وليست مداما مد .. لانسان يستطيع استخدام وسيلة أخرى للتنقل • وكان ال س المضطرون لاستخدامها يعانون من امراض الرئة وكنت ا . ى فى عيادتى ، التى تجاور قضبان الأنفاق ، الكثير من العمال والبنائين والملاحظين العاملين فى تلك الشبكة الأرضية من القطارات والذين يمكن القول انهم قد دفعوا حياتهم ــ بالمعنى الحرفى للكلمــة ــ حتى يتمــكن سكان لندن اليوم من التمتع بأحــدث نظام للمواصــلات فى العالم وأرخصها وأكثرها أمنا •

وفى عام ١٨٩١ لم يكن قطار الأنفاق يربط بين شارع بيكر ومستشفى بارت ولم يكن شارع بيرك فى ذلك الــوقت يبلغ من الطول ما بلغه اليوم وهكذا لم تكن المركبة نوعا من التبذير وانما ضرورة ــ ما لم ندخل الأتوبيس فى اعتبارنا ولكن الأتوبيسات كانت لها نواقصها أيضا ــ وكان مستشفى سانت بارثولوميو يعتبر واحــدا من أقدم المستشــفيات فى العالم وقد بنى هيكله على طراز القرن الثــانى عشر وأقيم عــلى أساس يرجع الى العصــور الرومانية ، ويقال ان مهرج الملك هنرى الأول « راهير » الذى أصيب بمرض عندما كان فى طريقه الى روما للحج أقسم أنه اذا تعافى فسيبنى كنيسة كبيرة فى لندن (١) ولا أدرى ان كانت هذه الرواية صحيحة الا أننى أعلم يقينــا أن مســتشفى بارت بدأ ككنيسة وظل كذلك الى أن ضمه هنرى الثامن الى أملاكه ثم دمر الكثير من أجزاء المبنى ، كمــا فعــل فى أماكن كثيرة ، ولــكن ذلك لم يلحق الا تغييرات طفيفــة بالمستشــفى • وقبــل أن أبدأ دراستى فى مستشفى سانت بارثولوميو بعشرين عاما تقريبا كانت سوق سميث فيلد الكبيرة ــ بما تحتويه من مجــازر ــ

---

(١) يوجد وصف مفصل لتاريخ هذا المستشفى فى كتاب مايكل هاريسون المعمار « فى خطى شرلوك هولمز » ، « نيكولاس ماير » •

قريبة جدا من المستشفى • وكانت رائحة الحيوانات المذبوحة تنتشر ، كما يقال ، طاغية على اى روائح اخرى لأميال حول المستشفى • الا أن السوق ومجازرها كانت قد ازيلت لحسن الحظ عندما التحقت بالمستشفى وحيثما كانت الحيـوانات تصيح من الألم وتسيل دماؤها أنهارا قامت عمارات اسكانية جديدة ودكاكين وما الى ذلك ولا تزال هذه الجيرة كما هى لم تتغير ــ حسب علمى ــ حيث اننى لم أتردد عـلى المستشفى خلال الخمسة عشر عاما الماضية •

وعنـدما عبرت المركبة بوابة المستشفى فى ذلك اليـوم ــ ٢٥ أبريل ــ لم يتداع الى خاطرى ذلك التاريخ القـديم للمبنى ولم اتوقف لاتمعن الشـكل الهنـدسى للمبـانى التى أضيفت او الزخارف القديمة التى قد تأسر العين أحيانا وقد تنفرها ، ونقدت السائق أجـره ودخلت مبـاشرة الى قسم الباتولوجيا لأبحث عن ستامفورد •

وقادنى هذا البحث الى الدخول فى متـاهة من الممرات الملتوية مما اضطرنى الى السؤال عن الاتجاه عدة مرات فقد مضى وقت طويل منذ أن عبرت تلك المتاهة ، ولم تكن هنـاك روائح السـوق القديمة وانما ملأت أنفى الروائح القـوية لحمض الكربوليك والكحول ولم يكن هذا شيئا جديدا عـلى فرائحة هـذين التوأمين ترافقنى يوميا فى جـولاتى الا أن درجة تركيزهما كانت أعلى هنا •

وعرفت أن ستامفورد كان يلقى محـاضرة واضطررت الى الجلوس على مقعد فى نهاية المدرج منتظرا أن ينتهى من محاضرته ، وكان من الصعب على فى الـواقع أن أركز عـلى ما يقول ــ وأتصور أنه كان يتحدث عن الدورة الدموية ــ لقد كنت مشتت الفكر فيما يتعلق بمهمتى ومازلت أتذكر أننى نظرت اليه وهو يقف على المنصة كما لو كان يمتلكهـا وتذكرت المدة الطويلة التى انقضت منذ كنا • أنا وهو • نجلس

على هذه المقاعد نستمع الى أستاذ آخر حاد الطبع يحاول ان يغرس نفس هذه الحقائق فى جماجمنا المستغلقة ، ونظرت الى ستامفورد وتصورته وقد بدا يتخذ شكلا مشابها لذلك الاستاذ الذى لم اعد اتذكر اسمه .

وعندما انتهى من محاضرته نزلت الى مقدمة المدرج وناديته وهو يقترب من باب الخروج ـ « يا للسماء هذا أنت يا واطسون ! » ـ صاح وهو يشق الطريق الى ويشد بقوة على يدى : « ما الذى أتى بك الى بارت فى هذا اليوم دون سائر الأيام ؟ . هل سمعت محاضرتى ؟ أراهن أنك لم تكن تظن أننى مازلت أتذكر كل هذا الهراء ؟ » .

وأخذ يتحدث بهذه الطريقة لعدة دقائق وتناول ذراعى وقادنى خلال المبانى الجديدة فى هذا التيه الى مكتبه ، وكان مكتبا فسيحا يعتبر امتيازا للأطباء الذين هم فى نفس الوقت أعضاء فى هيئة التدريس ، وكان لستامفورد طريقة مرحة مازلت أتذكرها فيه منذ الشباب ، وسرنى أنه لا يزال يثرثر بنفس الطريقة ، لقد تقدمت به السن ولكن برشاقة ومازال يحتفظ بذلك الجو الطريف بينما قل وزنه عن ذى قبل كما كانت طريقته المهنية تليق به صحيح أنها قد تثير الضحك ولكنه كان مشغولا فى عمله لدرجة أنه لم يعد له وقت « للتظرف » كما يقول .

وتركت له فسحة من الوقت يحكى فيها كما حكيت له تفاصيل حياتى وزواجى وعيادتى وما الى ذلك وحاولت قدر الامكان الدوران حول أسئلته التى لم يكن هناك مفر منها بشأن هولمز .

ـ « من كان يظن قط أنه ستنشأ بينكما هذه العلاقة الوطيدة ؟ ان لديك موهبة حقيقية لسرد القصص يا واطسون ولديك براعة فى اختيار العناوين أيضا ،

والآن وقد اصبحنا وحدنا ولن ابوح لمخلوق هل صحيح أن صديقك العزيز هولمز يقوم بالفعل بكل ما نسبته اليـــه فى كل تلك الأقاصيص : اصدقنى القول !؟ » ٠

وأجبته ببرود أن شرلوك هولمز فى رأيى هــو أفضـــل وأحكم الرجال الذين عرفتهم ٠

ووافقنى ستامفورد بسرعة : « هـــذا صحيح ، هـــذا صحيح » فقد أدرك عـلى الفور أنه لم يكن لبقا فى حديثـه وتمدد في كرسيه وقال : « من كان يظن ذلك أعنى اننى كنت أعلم أن الرجل بارع ولكن لم تكن لدى أية فكرة عن ٠٠٠ حسنا حسنا » وبدا أنه أدرك فى النهاية أننى قدمت لزيارته وفي ذهنى غرض معين فتحول اهتمامه الى وقال : « هل هناك ما أستطيع أن أفعله لك أيها الرجل العجوز ؟ » ٠

فقلت له ان لدى شيئا ما واستجمعت نفسى وشرحت له باختصـــار تاريخ حالة أحد مرضـاى الذى وقع فى براثن الكوكايين مشيرا ببراعة الى الأوهام التى تصاحب المراحـل المتأخرة من الادمان ، وسألته ما هى الخطـوات التى يمـكن اتخاذها لشفاء مثل هذا الشخص من آلامه ٠

ولقد أصغى ستامفورد الى ، والحق يقــال ، بانتبـاه كامل ، وقد وضـــع يديه عــلى مكتبه يدخن فى صمت وأنا أعرض عليه التفاصيل ٠

وعندما انتهيت قال : « هـــل تعنى أن المريض لا يعى بمصادر أو أصول تلك المشاعر ــ أى أن هناك شخصا يسعى الى الحاق الأذى به ؟ ألا يفهم أن هذه الضــلالات ناشئة عن المخدر الذى يثابر على تعاطيه ؟ » ٠

ــ « من الواضح أنه لا يدرك ٠ أعتقد أنه قد وصل الى المرحلة ــ اذا كان ذلك ممكنا ــ التى لم يعد يدرك فيها أنه

يتعاطى الكوكايين على الاطلاق • حملق ستامفورد وقد
قوس حاجبيه فى دهشه وزفر الهواء بلا صوت من فمه فقال :
« سأكون صريحا معك يا واطسون انا لا اعرف اذا كان ذلك
ممكنا ام لا فى الواقع » ونهض من مكانه واقبل على وهو يقول:
« لا يعرف الطب حتى الان الا القليل عن الادمان من اى نوع
ولا ريب أنك تدرك ، اذا كنت قد تابعت التحصيل ، اننا
سنصل فى المستقبل القريب الى وضع لن نسمح فيه بتداول
الكوكايين والأفيون ما لم تصاحبه وصفة طبية » •

ـ «لن يفيدنى هذا بشىء» صحت بمرارة : «فالى أن يتم
ذلك سيكون مريضى قد مات » وقد أدت الفكرة التى عبرت
خيالى الى ارتفاع صوتى بطريقة لفتت انتباهه • فتفرس فى
وصمدت أمام نظراته الفاحصة قدر امكانى ثم عاد الى
كرسيه •

ـ « لا أدرى بماذا أخبرك يا واطسون، ولكن اذا استطعت
اقناع المريض بأن يضع نفسه تماما تحت اشرافك
ورعايتك •• » فقاطعته محاولا اظهار نفسى بصورة عادية
وأنا ألوح بالسيجار فى يدى : « هذا أمر مستحيل » فلوح
بيديه فى ايماءة يائسة وهو يقول : « ماذا تفعل اذن ؟ ولكن
انتظر » ونهض من مقعده مرة أخرى « شىء قد يفيدك ، أين
وضعته يا ترى ؟ » •

وبدأ يفتش مكتبه مزيحا أكواما من الأوراق ومثيرا
الكثير من الغبار مما ذكرنى والألم يمزق صدرى بملفات
هولمز المتناثرة فى شارع بيكر عندما كان البحث عن أحد
المراجع أو مراجعة أحد الملفات القديمة يثير من الأتربة
ما يدفعنا الى السعال والخروج من المسكن الى الشارع ساعة
أو بعض ساعة حتى يهدأ •

ــ « ها هى » صـــاح وفى صــوته رنة انتصار وانتصب واقفا وهو يمسك بيديه نسخة من مجلة « لانست » وصـــاح وهو يناولها لى ملتقطا انفاسه : « هذا هو عدد شهر مارس هل رايته ؟ » .

فاخبرته اننى لم اره اذ ان عملى فى العياده لا يتيح لى الوقت الكافى ولكنى اظن ان هــذا العدد موجــود لدى فى المنزل .

ــ «حسنا، خذ هذا العدد معك على آية حال فقد لا تتذكر المكان الذى وضعت فيه نسختك . يبدو انه يوجد شاب فى فيينا على ما اعتقـــد ، وعلى اى الأحوال ، لم يكن لدى وقت لقراءة الموضوع بكامله ، ولكن يبدو لى أن هذا الطبيب يقوم بعلاج ادمان الكوكايين بشكل او باخر ، لا أســتطيع تذكر اسمه الا أنه موجود فى المجلة وربما كان لديه ما ينفعك ، آسف يا صديقى العزيز ، أخشى أن هذا هو أفضل ما أستطيع أن أقدمه » .

وشكرته بشدة وافترقنا على وعد باللقاء لتناول العشاء سويا فى القريب العاجل وأن نعرف زوجاتنا ببعضهن .. الخ والحق انه لم يكن لدى اى منا النية فى تحقيق مثــل هـــذه الوعود المسرفة ، وكان قلبى مثقلا وآنا فى طريقى الى محطة ووترلو ، ولم يكن لدى اعتقاد كبير ، شأنى شأن استامفورد، فى أن ذلك المقال فى مجلة « ذى لانست » قد يستطيع انقاذ صديقى وانتشاله من الهوة العميقة التى سقط فيهـــا ، ولم يدر بخلدى وآنا فى طريقى لمـــلاقاة زوجتى ، أنه فى المرة الثانية خلال عشر سنوات سيحقق ستامفورد ــ ذلك الشخص النادر المثال ــ لى ولهولمز ما نتمناه .

الفصـل الثالث

الوصول الى قرار

« يا عزيزى جاك ، ما الأمر ؟ » ٠

كانت هـذه هي أولى الكلمات التى فاهت بهـا زوجتي وأنا أساعدها علي النزول من القطار في محطة ووترلو ، لقد كان بيننا رباط عظيم ظهـر لأول مرة في تلك الليلة التي تقابلنا فيها منذ ثلاث سنوات (١) ٠

لقد جمعتنا سويا ظروف من الناس والأحداث المتشابكة شملت مجرمين وهاربين من العدالة ، وسكان جزر الاندمان وضباط جيش منهكون ومتقاعدون، وكنز «اجرا»الاسطورى والعصيان الاخير ٠ لقد وقفنا سويا في الظلام فى تلك الليلة الفظيعـة فى الدور الأرضى من « بوند شـيرى لودج » بينما صـعد هولمز ومديرة المنزل الى الطابق العلـوى مع تاديوس شولتو وهناك اكتشف جثـة أخيه التعس بارثولوميـو ٠ فى ذلك الموقف المرعب ودون كلمة واحدة ٠ بل ودون أن يعرف أحدنا الآخر على الاطـلاق ـ امتدت يدانا بشـكل غـريزى لتلتقيا وتتشبثا ببعضهما فى الظـلام ٠ وكطفلين خائفين سعينا فى نفس الوقت لمواساة بعضنـا البعض ، لقد نشـأ التعاطف بيننا بسرعة البرق ٠

---

(١) دار بين الباحثين جدل كبير فيما يتعلق بزواج واطسون أو زيجاته المتعددة ودون الدخول فى مسألة عدد المرات التى تزوج فيها ومن هن فان هذه الفقرة ، والتى تليها ، تبين بوضوح تام أن المرأة التى يشير اليها هى مارى مورستان زبونة هولمز فى قضية « علامة الاربعة » وهى الانثى الوحيدة التى يقرر واطسون بما لا يدع مجالا للشـك انه تزوج منها ٠ « نيكولاس ماير » ٠

وقد استمر هذا الفهم والتعاطف الحى بيننا حتى يوم وترلــو ؟ ، كان هــذا التعــاطف واضحا عنــدما نزلت من القطار تلك الليلة فى شهر ابريل • ورمقتنى بقلق وكررت السؤال : « ما الامر ؟ » •

ــ « لا شىء ، تعال سأخبرك عندما نصل الى المنزل ، هل هذا كل متاعك ؟ » •

وهكذا حولت انتباهها ونحن نشق طريقنا خلال المحطة المزدحمة ندور ونلف بين الحقائب والبشر وصيحات الحمالين والآباء الذين يحاولون الامساك بأطفالهم ، وتمكنا بطريقة او بأخرى من عبور الضجة والصخب والتقطنا مركبة ونقدنا الحمال أجره ــ بعد أن حزم المتاع على ظهر العربة ــ ودلفنا اليها تاركين خلفنا ذلك البحر الدائم من الصخب والضجيج والفوضى •• ووترلو •

وما أن اتخذنا طريقنا حتى بدأت زوجتى فى معــاودة أسئلتها ولكنى قاومت وأخــذت أثرثر فى غــير اهتمام وقد رسمت على وجهى علامات المرح والابتهاج بعزم وتصميم : وسألتها عما تمتعت به فى رحلتها وزيارة مخدومها الســابق فقد كانت تعمل مربية فى منزل مسز فورستر عندما ساقنى حظى الحسن لأتعرف عليها •

وتحيرت لأول وهلة من عنادى ولكن لما رأت أنه لا فائدة استجابت لرغبتى وحكت لى قصة اقامتها فى المنزل الريفى لآل فورستر فى هاستينجز وعن الأطفال الذين كانت ترعاهم ولأنهم كبروا الآن بحيث لم يعودوا فى حاجة الى مربية •

ــ « أو هكذا يتوهمون » قالتها زوجتى وهى تضحك •
وأعتقد أننى لم أحبها قط بمثل هذا القدر من الحب الذى أحسست به خلال ركوبنا تلك العربة ، لقد أدركت (زوجتى) أننى قلق بشأن ما ، ولــكن لــا رأت أننى لم أكن أرغب فى الحديث عنه ، التقطت خيط الحديث وتسامرنا بكل مــودة

حتى تمكنت من السيطرة على أعصابى ومواجهة عذاب الافصاح ، لقد كانت امرأة رائعة ومازلت أفتقدها حتى يومنا هذا ٠

كان العشاء فى انتظارنا عند وصولنا وتناولناه ونحن على نفس الحال من الحديث الخفيف كل منا يحاول أن يمتع الآخر بالحديث اللطيف والوقائع التى حدثت خلال فترة الفراق ، وما أن أوشكنا على الانتهاء من الطعام حتى أحسست بتغير مزاجى ٠

ــ « والآن ياجاك لقد حاورتنى وداورتنى بما فيه الكفاية ويستحيل أن تكون مهتما بمزيد من التفاصيل عن هؤلاء الأطفال ، قم بنا الى غرفة الجلوس » ٠

ونهضت ومدت يدها الى فأمسكت بها : « ان نار المدفأة فى انتظارنا وسوف نجلس فى راحة واسترخاء نتناول كأسا من البراندى والصودا اذا أردت وتدخن غليونك ثم تخبرنى بالحكاية » ٠

ونفذت تعليمات زوجتى بخضوع كالطفل غير انى لم اضف أى صودا الى كأس البراندى ، فقد كانت زوجتى شديدة التأثر ، فى الأيام الأولى لتعارفنا ، بصورة الجنرال جوردون الموجودة لدى ، ولا أدرى من أين أتت بتلك المعلومة عن الجنرال جوردون أنه كان يفضل البراندى بالصودا على كل المشروبات ــ ربما لأنها تنحدر من أصل عسكرى ــ كما كونت فكرة مبالغا فيها عن تعلقى بالجيش ، ربما بسبب الجرح الذى أصبت به فى العمليات فى أفغانستان وكانت على الدوام تحاول أن تغرس فى ميل الجنرال جوردون الى ذلك المشروب وعبثا حاولت أن أفهمها أننى ورثت صورة الجنرال بعد وفاة أخي الأكبر ، كما حاولت عبثا أن أخبرها بأن الجنرال لم يقد قط فرقة نورثمبر لاند الخامسة للبنادق ٠ لقد كانت تقدسه الى درجة العبادة وذلك بسبب

عمله المجيد فى انهاء تجارة الرقيق فى الصين ولذلك فلم تفقد الأمل قط فى أن ترانى يوما ما وقد انحزت الى مشروب بطلها المفضل ، الا أنها اليوم لم تعبس عندما أدركت اننى ــ كعادتى ــ قد استبعدت الصودا من كأسى ٠

وحتتنى قائلة : « والآن ياجاك » واستقرت فى رشاقة وجمال على حشية من ذيل الخيل مقابلة للمقعد الذى جلست فيه ــ نفس المقعد الذى نام عليه هولمز فى الليلة الماضية ــ كانت لا تزال فى ملابس السفر ، رداء من التويد الرمادى تحيط به الدنتيلا عند المعصم والرقبة ــ وكانت قد خلعت قبعتها قبل تناول العشاء ٠

وتناولت رشفة من البراندى وأشعلت غليونى فى تؤدة ثم قصصت عليها المأساة كلها ٠

ــ « يا لمستر هولمز المسكين ! » صاحت فى النهاية وهى تعصر يديها منفعلة والدموع تترقرق فى مآقيها ٠ « ماذا سنفعل ؟ ، هل هناك ما نستطيع أن نفعله ؟ » وأثلج صدرى ما رأيته من رغبتها واستعدادها لمد يد العون ، لم يخطر ببالها أن تستبعد المشكلة وتتجنب صديقى والمرض الخبيث الذى انتابه وشوه طبيعته الحقيقية ٠ وأجبتها ناهضا على قدمى : « أظن أن هناك اجراء يمكن اتخاذه ولكنه لن يكون سهلا ، لقد مضى هولمز بعيدا بحيث انه لن يقبل المساعدة عن طيب خاطر وأظن أنه مازال من البراعة بحيث لن يمكننا خداعه ليقوم بذلك » ٠

ــ « وماذا بعد » ٠

ــ « لحظة يا عزيزتى سأحضر شيئا من الردهة » ٠

وغادرتها للحظة وأحضرت نسخة مجلة « ذى لانست » التى أعطاها ستامفورد لى ، وتساءلت فيما بينى وبين نفسى

وأنا أعـود الى غـرفة الجلـوس ما اذا كانت مارى سنقبل مساعدتى ، اذا لزم الامر ، فى تنفيـذ خططى ، لقـد كانت فتاة ذات شخصية مستقلة شقت طريقها فى الحياة بنفسها ، ولقد تخمرت الخطة فى ذهنى شيئا فشيئا وأنا جالس عـلى المقعد فى محطـة ووترلو أنتظر وصـول قطارها وأنا أقرا ما كتب عن هذا المتخصص النمساوى ٠

رجعت الى غرفة الجلوس وأغلقت الباب وأخبرت زوجتى بنتائج مقابلتى مع ستامفورد ٠

ــ « هل قرأت المقال » ؟

ــ « نعم ، قرأته مرتين وأنا فى انتظار قطارك » ٠

وعـدت الى الجلـوس عـلى مقعـدى وتصفحت عـدد « ذى لانست » باحثا عن المقال ٠

ــ « أه ، ها هو ، لقد قام هذا الطبيب بدراسة متعمقة للكوكايين ويقول انه توصل أولا الى نتيجة خاطئة ٠ كمـا يعترف ، وهى ان قوة هـذا العقار مدهشـة للغـاية وفى استطاعته شفاء اى مرض بل والقضاء على ادمان الكحول ٠ الا أنه بعـد ذلك اكتشـف لعنته الفظيعـة ألا وهى الادمان عندما قضى صديق عزيز له نحبه نتيجة لذلك » ٠

ــ « قضى نحبه ! » ٠

قالتها بصوت مكتوم معبرا عن شعورها رغما عنهـا ٠ ونظر كل منا الى الآخر وقد انتابنا الفزع من تصور امكانية موت هولمز بهذه الطريقة البشعة ، لقد كان للرجل فى عنق زوجتى مثلما فى عنقى من فضل اذ عن طريقـه تقابلنا ٠ وبلعت ريقى وواصلت الحديث :

ــ « وعلى أية حال فانه بعد وفاة صديقه هـذا ــ التى حدثت فى بداية هذا العام ــ غير هذا الطبيب تأييده للكوكايين

وحول طاقاته الى شفاء هؤلاء التعساء الذين وقعوا فى براثن هذا المخدر وهو يعلم عن هـذا العقـار أكثر مما يعلمه أى شخص آخر فى أوروبا » ٠

وتبادلنا النظرات مرة أخرى ٠

سألتنى : « هل ستراسله ؟ » ٠

هززت رأسى وقلت : « لا يوجد وقت لقد مضى هولمز فى طريق الدمار بسرعة لا تسمح لنا بأن نضيع ساعة واحدة ، أن بنيانه قوى ولكنه لن يستطيع مقاومة التلف الناشىء عن ذلك السم الذى يتناوله ، وما لم نساعده فورا فان جسـمه سينهار قبل أن تتاح لنا أية فرصة لاصلاح عقله ، انى اقترح أن ننقله الى القارة وأن نضعه فى رعاية ذلك الطبيب ولن أدخر وسعا فى التضحية بالوقت والجهد فى تقديم ما أستطيع » ٠

جلست زوجتى صامتة لعـدة دقائق وقد استغرقت فى التفكير وعندما التفتت الى مرة أخرى ظهر الجانب العملى فى طبيعتها من خلال الأسئلة النفاذة التى انهالت بها على :

ــ « واذا افترضنا أن هذا الطبيب لن يستطيع شـيئا فماذا بعد ؟ » ٠

هززت كتفى : « انه الشخص الوحيد فى أوروبا الذى يبدو أنه يعلم شيئا عن الموضوع وليس أمامنا الا المحاولة ؟ » ٠

هزت رأسها :

ــ « ولكن ماذا عن الطبيب ؟ هـل سيوافق عـلى رؤية هولمز ؟ ربما كان مشغولا جـدا ٠٠ أو ربما كانت تكاليفه فوق الاستطاعة » ٠

ـ « سأتمكن من الاجابة على هذا السؤال بدقه عندما آستلم الرد على برقيتي » ٠

ـ « هل أرسلت برقية ؟ » ٠

كنت قد أرسلت برقية من محطة ووترلو بعد قراءة المقال ، وكنت في هذا اقتفي خطى هولمز الذى كان يفضل البرقيات دوما على كافة اشكال الاتصال ، وانقبض قلبى وأنا أتذكر أنه كان في هذه اللحظة يوجه برقياته الى موريارتى المسكين ، وعلى أية حال لم يكن يخدم غرضى في تلك اللحظة الا البرقيات وحتى ولو كانت خطوط التليفون عبر البحار متوفرة في عام ١٨٩١ فلم أكن لأستعملها لقد أصابنى هولمز بعدوى رفض التليفونات اذ كان يقول ان استخدام البرقية يجبر المرء على الاختصار وبالتالى على أن يكون منطقيا والرسائل تتطلب ردا وليس ثرثرة لا معنى لها ، وعلى أية حال لم أكن أريد ردا طويلا مفصلا وانما مجرد نعم أم لا ٠

واضطجعت زوجتى الى الخلف وقد بدا عليها الانزعاج وقالت وهى تتنهد : «ولكننا لم نضع فىاعتبارنا موقف هولمز نفسه ، لقد اعترفت أنه لن يمكن خداعه حتى يطلب العون ، فاذا افترضنا أن ذلكالطبيب قد قبله كمريض فكيف سنحمله على الذهاب اليه ؟ وقد أدركت مما سبق أن ذكرته أنه الآن فى قمة الحذر والاحتياط » ٠

ـ « هذا صحيح ، لن يكون من السهل أن نأخذ هولمز خارج البلاد ، يجب أن نجعله يشعر بأن ذهابه نابع من ارادته » ٠

ـ « وكيف سننجز ذلك ؟ » ٠

ـ « يجب أن نجعله يعتقد أنه يقتفي أثر البروفيسور موريارتى وأن ندبر الأمر بحيث يبدو كذلك » ٠

نظرت اليها بعين ثابتة وقلت : « أجل يجب أن نختلق أثرا زائفا يؤدى بهولمز الى فيينا » .

واحتجت برد فعل عفوى : « سيكتشف خطتك ، فلا أحد يعرف فك الطلاسم مثل هولمز » .

ـ « هذا صحيح ولكن لا احد يعرف هولمز مثلما اعرفه ، سأستخدم كل خيلة اعرفها لأجذب انتباهه واجعله يقتفى آثر الرائحة ، فالدهاء ، ليس حرفتي وانما حرفته هو ولسوف أستعيرها مؤقتا . سأضع نفسى فى مكانه وسأفكر مثله . سأرجع الى مذكراتى عن القضايا السابقة التى عملنا فيها سويا ، وستساعديننى بالطبع » ؛ وتابعت حديثى بشجاعة « وسوف نجعله يقوم بما نريد اذا لزم الأمر ولن أبخل باى مال » .

وانثنت زوجتى نحوى ووضعت كفيها حول وجهى ونظرت الى متطلعة فى عينى بحب واعجاب :

ـ « وستفعل ذلك كله .. من أجله ؟ » .

وأجبتها : « سأكون أتعس الناس على الأرض ان لم أفعل ذلك لقد فعل من أجلى الشىء الكثير » .

ـ فقالت فى بساطة : « سأقف بجوارك » .

« شىء جميل » وأمسكت بيدها وأنا فى غاية الانفعال « علمت دوما أننى أستطيع الاعتماد عليك ولكن يجب أن نطمئن الى تعاون ذلك الطبيب معنا » .

الا أن هذه العقبة ذللت فى التو واللحظة فقد سمعنا طرقا على الباب وسرعان ما دخلت علينا الخادمة تحمل فى

يدها برقية وفتحت المظروف بأيد مرتعشة وقرأت رسالة موجزة مكتوبة بلغة انجليزية متعثرة بما معناه أن الطبيب يقدم خدماته الى المخبر السرى الانجليزى العظيم بلا مقابل وأنه ينتظر الرد • وأسرعت بكتابة رد موجز أرسلته مع الفتاة ، وبقى الآن كيف نحمل شرلوك هولمز على الذهاب الى فيينا ؟ •

الفصـــل الرابع

مقابلة فى « بال مال »

كان من السهل على أن أقول اننى سأتمثل عقلية شرلوك هولمز ولكن عند التنفيذ كان الأمر جد مختلف .

لقد أشعلت البرقية حماسنا واقتربنـــا بمقعدينـــا من بعضنا البعض وبدانا فى وضع الخطط لصناعة ذلك الاثـــر الزائف وبين الحين والآخر كنت أتنـــاول ملفـــات القضـــايا القديمة من على الرفوف .

ولسوء الحظ ظهر ان المسالة اصعب بكثير مما تصورت . لقد أنعم على الكثيرون ممن درسوا كتاباتى بأوصاف تنعت الكاتب ــ أى أنا ــ بأنه بطىء وبليد وغرير يفتقر الى الخيال بل وما هـــو أســـوأ من ذلك . ولن أدفع تلك الاتهامات عن نفسى ، صحيح أننى قد استخدمت الأسلوب الأدبى فى سرد بعض مغامراتى مع هولمز وبالتالى أخطأت أحيانا فى اظهـــار نفسى شديد الغباء بالمقارنة اليه ، الا أننى قد أضفت بعض المبالغات لا من أجل تضخيم قدرات صديقى فى عين القارىء وانما لأن مصاحبته تجعل المرء فى كثير من الأحيـــان يحس بالغباء سواء أكان المرء متوسط الذكاء ــ وهذا ما أعتقده فى نفسى ــ أم دون ذلك .

ولكن عندما يحاول عقل عادى تســـانده كافة النيـــات الحسنة فى هذا العالم أن يخدع عقلا أرقى منه سيتضح على الفور أين تقع المشكلة ، ولقد وضعنا فى تلك الليلة أكثر

من «دستة» من الآثار الزائفة ولكن كان لكل واحد منها نقطة ضعف ، خطأ فى التركيب المنطقى ، أو ضعف فى النوعيـة اعلم أنه سيلفت نظر هولمز ، وقامت زوجتى بدور « الشريك المخالف » مما أدى بها الى أن تكتشف فى عدة محاولات الخطأ فيما بدا لى أنه خطة محكمة .

ولم أدر كم مكثت أمام المدفأة أقدح زناد فكرى منكبـا على مذكراتى ، وبدا الأمر فى نظرى أطول بكثير مما حددته الساعة الموضوعة فوق رف المكتبة .

وصاحت زوجتى فجأة : « جاك ! اننا نتناول هذه المسألة بشكل خاطىء تماما » .

ــ « ماذا تعنين ؟ » سألتها وأنا ممتعض نوعا ما لأننى كنت أبذل قصارى جهـدى وغاظنى أن أسـمع من زوجتى نفسها أن جهودى فى سبيل صديقى كانت « خاطئة تماما » .

ــ ردت بسرعة وقـد لاحظت اندفاع الدم الى وجهى : « لا تغضب لقد قصدت أننا اذا كنا نريد شخصا يتفوق عـلى مستر هولمز فلابد أن يكون شقيقه » .

ــ « كيف غابت عن بالى هذه الفـكرة ؟ » وملت نحـو زوجتى مندفعا وقبلتها على وجنتهـا . وصحت وأنا أنهض من مكانى : « أنت على صواب ، ان مايكروفت هـو الشخص الوحيد الذى يمكنه وضع الطعم فى مصيدتنا ، بل ان هولمز نفسـه قـد اعترف بأن مايكروفت يتفوق عليه عقليـا » واندفعت نحو الباب مسرعا .

ــ فقالت : « هل ستذهب اليه الآن . لقد قاربت الساعة العاشرة ، جاك ، لقد فعلت ما يكفى ليوم واحد » .

ـ اجبتها وانا ارتدى سترتى : « قلت لك انه لا يوجد رفت لنضيعه وفضلا عن ذلك اذا تمكننا من الوصول الى نادى ديوجين قبل الحادية عشرة فالاحتمال الأكبر أن أجد مايكروفت هناك.ولا داعى لأن تسهرى فى انتظارى » وقبلت وجنتها مرة أخرى وانطلقت .

فى الخارج، استوقفت مركبه واخبرت السائق ان يذهب الى نادى ديوجين حيث يوجد مايكروفت عادة واتكات على اريكه منصتا الى دقات حوافر الفرس على الأحجار وهو يسبق بى عبر الشوارع المضاءة بالغاز وحاولت آن ابقى مستيقظا رغم اننى كنت فى الحقيقة قد بلغ بى الانهاك مداه . ومع ذلك فلقد رايت من هولمز عندما كان ينشغل بقضية ، القدرة على بذل الجهد الذى يفوق الطاقة البشرية فاذا لم اكن قادرا على تقليد ذكائه فلا أقل من أن أماثله فى قدرته على الاحتمال .

لم آكن أعرف مايكروفت هولمز جيدا . والحقيقة أننى قابلته مرة أو مرتين قبل ثلاث سنوات عندما تقاطعت مساراتنا خلال الحالة التعسة « للمترجم اليونانى » الواقع أننى عشت مع هولمز سبع سنوات قبل أن يذكر لى ان له أخا. ولقد أذهلنى هذا الكشف كما لو كنت قد علمت أن الأرض مسطحة وزادت دهشتى عندما قال هولمز ان قدرات أخيه العقلية تفوق قدراته هو بكثير . قلت عندئذ : « اذن هو بالتأكيد مخبر سرى أعظم ، واذا كان الأمر كذلك كيف لم اسمع قط عنه ؟ » لأنه بدا لى من المستحيل أن يوجد عقل آخر مثل عقل هولمز فى انجلترا دون أن يلاحظ ذلك أحد .

ـ أجاب هولمز ببشاشة : «ان مايكروفت متواضع لا يحب الحديث عن نفسه كما أنه كسول جدا » ولما رأى أننى لم أفهم قال : « أى أنه سيرغب تماما فى حل لغز اذا لم يتضمن ذلك قيامه من مقعده ، ولسوء الحظ فان الأمر يتطلب ماهو

أكثر من ذلك » أضاف ضاحكا : « أن مايكروفت يكره أى جهد بدنى كراهية التحريم » ·

أخبرنى عندئذ أن أخاه ينفق معظم وقته فى نادى ديوجين المقابل لمسكنه فى « بال مال » ، وكانت العضوية فيه قاصرة على من لا يطيقون النوادى فكان يضم اكثر الناس كراهية للاجتماعات فى لندن ولم يكن مسموحا لأى عضو بأية حال من الأحوال أن يهتم بأى عضو آخر أو يلتفت اليه ، الا فى « قاعة الغرباء » كما أن الكلام كان ممنوعا منعا باتا ·

وكنت قد غفوت قليلا عندما فتح سائق العربة الغطاء ودون أن ينظر الى أعلن بطريقة متعالية أننا قد وصلنا الى مبتغانا ·

عبرت الشارع بسرعة الى مدخل النادى وأعطيت للخادم المختص بنقل الرسائل بطاقتى ورجوته أن يبعث بمستر مايكروفت هولمز الى فى قاعة الغرباء ، وانحنى لى بعظمة واستدار لينفذ ما طلبته منه وجعلتنى لمحة سريعة من عينيه شبه المغلقتين فى ترفع أن أفهم أنه يعتبر مظهرى غير ملائم فقمت بمحاولة يائسة لشد ياقتى ومررت بيدى على شعر ذقنى ولحسن الحظ لم تكن بى حاجة لرفع قبعتى وتمشيط شعرى فرغم أن عادة ارتداء القبعة كانت فى طريقها الى الزوال فان الرجال ـ خاصة فى الأندية ـ كثيرا ما كانوا يتركون قبعاتهم على رؤوسهم داخل المكان ·

وبعد حوالى خمس دقائق عاد الخادم الى وهو يسير هونا وبحركة رشيقة من يده المغطاة بالقفاز قادنى الى قاعة الغرباء حيث وجدت مايكروفت هولمز ·

ـ « الدكتور واطسون ! لم أكن متأكدا أننى سأتعرف عليك » وأقبل على يتمايل كالبطة واحتوى يدى بين أصابعه

البضة وأعتقد أننى ذكرت فيما سبق أنه علـى عكس قامة شرلوك الرشيقة كان أخوه ممتلئا الى حد السمنة ، ولم تغير السنون من استدارة بطنه • أما هو فقد تفرس فى بعينين مستديرتين غائرتين فى طيات من الشحم •

واستمر فى حديثه : « يبدو ان لديك شيئا عاجلا يخص أخى ، لقد كنت طوال النهار تتنقل بشـأنه ـ مسـتخدما المرديبات كما أرى ـ كما أنك قد توقفت قليلا فى محطـة ووترلو لتأخذ شيئا أو على وجه الدقة لتقابل شخصا ، انك مجهد جدا » •

وأشار الى مقعد وقال : « أرجـوك أخبرنى بما حدث لأخى » •

وسألته وأنا أستلقى على المقعد بدهشة : « كيف علمت

ان شيئا قد حدث له ؟ » لقد كان شقيقا لهولمز بالتأكيد •

وأشاح مايكروفت بيده الضخمة وقال : « لم أرك خلال السنوات الثلاث الأخيرة وعنـدما رأيتك كنت فى صـحبة شرلوك الذى أعلم أنك تدون أخباره • وفجأة تزورنى فى وقت المفروض أن يكون فيه معظم المتزوجين فى منـازلهم مع زوجاتهم ، وتصل دون رفيقك ، ومن السهولة بمكان افتراض أن شيئا قد حدث له وأنك أتيت الى للمساعدة أو النصيحة ، ومن رؤيتى لذقنك أرى أنك كنت خارج البيت طوال النهار ولم تتح لك فرصة أن تحلق ذقنك مرة أخرى كما يبدو من هيئة لحيتك ، كمـا أنك لا تحمـل حقيبتك الطبية رغم أننى أرى من بطاقتك أنك تمارس المهنة وهكذا استنتجت أن مهمتك العسـيرة مرتبطة بزيارتك لى هـذا المسـاء وبين لى تاريخ تذكرة الرصـيف البارز من جيب سترتك أنك كنت فى محطة ووترلو اليوم ، واذا كنت قد ذهبت هنـاك لتتسلم طـردا فلم يكن بك حاجة بالطبع أن

تذهب الى أبعد من مستودع الأمتعة والتى لا تتطلب تذكرة رصيف وبالتالى فقد كنت هناك لتقابل شخصا ما ، اما بالنسبة للمركبات التى كنت تستقلها طوال اليوم فان حالة لحيتك وتعبير الارهاق على وجهك يبينان أنك لم تذهب الى منزلك ومع ذلك فان سترتك جافة وحذاؤك نظيف رغم رداءة الجو ، فأية وسيلة مواصلات أخرى تحافظ على هيئتك الا تلك الوسيلة التى يلقبها مستر دزرائيلى (رئيس وزراء انجلترا فى ذلك الوقت ـ المترجم) جندولا لندن ، وهكذا ترى أن المسألة بسيطة تماما « أخبرنى الآن عما حدث ؟ » واقترب بمقعده ليواجهنى معطيا لى الفرصة لأهضم دهشتى · وابتسم بعطف وقدم لى شرابا ولكنى هززت رأسى رافضا ·

سألته :

ـ « هل كنت على اتصال بأخيك أخيرا ؟ » ·

ـ « لم نتصل منذ أكثر من عام » ·

ولم يبد هذا غريبا لى ولو أن معظم الناس قد يظنون أنه من الشاذ أن يظل شقيقان يعيشان فى نفس المدينة ولا يوجد بينهما أى شقاق يظلان على مبعدة من بعضهما البعض بهذا الشكل الا أن الأخوين هولمز كانا الاستثناء الذى يؤيد القاعدة كما أعلم جيدا ·

وحذرت مايكروفت هولمز من أن أخبارى ليست سارة وأخبرته بحالة أخيه وكيف أقترح معالجتها ، وأنصت الى فى صمت كئيب ورأسه تميل الى الأمام شيئا فشيئا وعندما انتهيت كان الصمت الذى تلا طويلا لدرجة أننى اعتقدت للحظة أن النعاس قد غلبه ، وندت عنه آهة عميقة مالت بى الى الاعتقاد أنه قد نام ولكن ، تلاها ارتفاع رأسه تدريجيا حتى أصبحت عيناه فى مواجهة عينى ولمحت فى ناظريه ألما شديدا ·

ونطق أخيرا بصوت أجش : « موريارتى ؟ » ٠

هززت رأسى وهمهم : « هكذا ، هكذا » ثم استغرق مرة أخرى فى صمت وهو يحملق فى أطراف أصابعه وبعد فترة طويلة صدرت عنه اهة أخرى ونهض على اثرها وانطلق يتحدث بحيوية وحماس ، كما لو كان يحاول دفع حالة الاكتئاب التى انتابته من جراء أخبارى ، ووافقنى قائلا : «ان دفعه الى الذهاب الى فيينا لن يكون سهلا ــ وتحرك نحو الباب وجذب حبل الجرس ــ ولكنه لن يكون مستحيلا ولكى نفعل ذلك يجب أن نوحى اليه بأن موريارتى هناك يقبع فى انتظاره » ٠

ــ «هذه هى بالطبع المهمة التى لا أدرى كيف ننجزها» ٠

ــ « حسنا ان أبسط الحلول هو اقناع البروفيسور موريارتى بالذهاب الى فيينا استدع لنا مركبة من فضلك يا جينكينز »

وجه مايكروفت هولمز كلامه للخادم من خلف ظهرى وكان قد حضر استجابة لدق الجرس ٠

ظل مايكروفت صامتا خلال رحلتنا الليلية الى رقم ١١٤ شارع مونرو (وهو العنوان المسجل فى بطاقة البروفيسور) ، فيما عدا سؤاله عن الاخصائى النمساوى وعمن يكون ، وشرحت له بالتفصيل مقالة « ذى لانست » لم يرد سوى بهمهمة وكان تعليقه الوحيد ٠٠ « يبدو أنه يهودى » ٠

لقد كسبت حليفا قويا ، فها هو مايكروفت ــ او عقل مايكروفت ــ ينضم الى فى تلك المعركة وأدى هذا الى رفع روحى المعنوية كثيرا ، وكنت على وشك السؤال عن البروفيسور موريارتى والمأساة التى أشار اليها ولكن حبست لسانى ، فقد كان من الواضح أن مايكروفت مشغول البال بالمصيبة التى حلت بأخيه ، وكان هناك شىء فى طبعهما يحول

بين المرء وبين الاقتراب الحميم ، حتى ولو كان صديقا ، ولم اذن بالتأكيد على علاقة حميمة بمايكروفت ·

وتحولت الى التفكير فى مسألة كيف يمكن ان نغرى البروفيسور موريارتى بيوافق على طلبنا الغريب ، ولن نستطيع بالتأكيد ان نغرى هدا المعلم الخانع ان يتخلى عن وظيفته ويسافر الى القارة الأوروبية فى التو ، بالتاكيد سوف يتأبى متحرجا والأسوأ من ذلك قد يبكى ، وتحولت الى رفيقى أريد تبادل هذه الأفكار المتشائمة معه ، ولكنه كان يشرئب بعنقه خارج النافذة ·

ـ « توقف هنا أيها الحوذى » مع أننا كنا لا نزال على مسافة بعيدة بعض الشىء من غايتنا ·

ووضح لى مايكروفت الامر وهو يدفع جسمه خارجا من المركبة : « اذا لم يكن البروفيسور قد بالغ فيما قاله لنا ، فيجب أن نأخذ حذرنا ·· من الضرورى أن نتحدث معه ولكن ماذا لو انكشف أمر هذه الزيارة لشرلوك ونجده فى هذه الليلة بالذات واقفا يترصد المنزل ؟ » ·

ـ وهززت رأسى موافقا وأخبرت السائق أن ينتظرنا فى نفس المكان مهما طال الوقت ، ودسست شلنا فى يده لأتأكد من أنه سينفذ الأمر ووعدته بشلن آخر عندما نعود، وانطلقنا أنا ومايكروفت بهدوء عبر الشوارع الخالية الى مسكن البروفيسور ·

كان شارع مونرو يقع فى ضاحية غير متميزة وتتكون من مساكن ذات طابقين واجهاتها مزينة بالجص ، وحدائق صغيرة لم تنلها يد التشذيب وقرب نهاية الشارع رأيت دخانا أبيض يتصاعد فى ظلام الليل وأطبقت بيدى على كم سترة زميلى فألقى ببصره الى الناحية التى أشرت اليها وهز رأسه ، وتسللنا سويا الى ظلال أقرب مسكن لنا ·

هناك وتحت المصباح الوحيد فى الشارع كان شرلوك هولمز واقفا يدخن الغليون ·

وسرنا على حذر ملتصقين بالجدران وانكمشنا فى موقعنا اذ أدركنا بسرعة أن الموقف كان صعبا للغاية ، فطالما ظل هولمز مزروعا أمام مدخل منزل البروفيسور فليس أمامنا أمل فى الوصول اليه دون أن يلحظنا الا اذا شتتنا انتباهه ، أما كيف يتم التشتيت فلم تكن لدى أى منا أية فكرة • وتبادلنا المشورة بصوت هامس ، فناقشنا احتمال التراجع الى الشارع الواقع خلف المنزل والدخول من الباب الخلفى ، ولكن ظهرت عدة عقبات تحول دون تحقيق هذه المخادعة ، فسوف يكون هناك بالتأكيد سياج يجب تسلقه ولم يكن مايكروفت ، كما هو واضح ، قادرا على مثل هذه الألاعيب التى قد أقدر أنا عليها • وحتى لو تخطينا تلك العقبة وتمكنا أيضا من أن نحدد المنزل بدقة فى الظلام فستظل هناك عقبة الباب الخلفى المغلق وما سيتلو فتحه من ضجيج لا شك سيجذب انتباه هولمز •

وعلى حين غرة انحلت المشكلة اذ عندما ألقيت ببصرى على صديقنا الواقف تحت الضوء الأصفر للمصباح رأيته ينفض رماد غليونه بكعب حذائه ويسير متهاديا الى الطرف الآخر من الطريق •

وهمست بصوت خافت : « انه يرحل » •

وتمتم مايكروفت : « فلنأمل أنه لا ينوى العودة مرة أخرى ليتابع رقابته » ونهض وهو يلتقط أنفاسه محاولا أن ينفض التراب عن ركبتيه الا أن « كرشه » لم يسمح ليديه أن تصلا اليهما : «فلنسرع» قالها وقد تخلى عن المحاولة « يجب أن ننجز مهمتنا دون أدنى تأخير » •

واندفع فى طريق المنزل بينما وقفت ساكنا أراقب الشبح البعيد لصديقى وهو يبتعد فى الظلام وبدا لى أن ظهره ـ ذلك الظهر المستقيم الضيق ـ الذى جثمت عليه قبعته الشهيرة بدا لى ذلك الظهر وحيدا مستوحشا •

« أسرع يا واطسون ! » وتبعته . وكان ايقاظ أهل المنزل أسهل مما توقعنا ، اذ كان البروفيسور موريارتي متيقظا بينما جفا النوم عينيه لعلمه ـ ولم تكن المرة الأولى ـ أن هولمز يقف خلف نافذته .

ولابد أنه رآنا نتقدم نحو منزله فقد فتح الباب قبل أن تصل يد مايكروفت الى المقبض .

وهناك وقف موريارتي فى لباس نومه وغطاء الرأس ، يرتدى « روبا » أحمر باهت اللون يحملق فينا بعينين « قصيرتى النظر » تملؤهما الرغبة فى النوم .

ـ « أهذا انت يا دكتور واطسون ؟ » .

ـ « نعم ومعي مستر مايكروفت هولمز ، هل تسمح لنا بالدخول ؟ » .

وصاح الرجل فى دهشة وانزعاج : « السيد مايكروفت ! » .

وقاطعه مايكروفت بلهجة مطمئنة : « الوقت من ذهب ونحن نرغب فى مساعدتك مثلما نرغب فى مساعدة أخى» .

ووافق موريارتي بسرعة : « بالتأكيد بالتأكيد ، تفضلا اتبعانى بهدوء فان صاحبة المنزل نائمة وكذا الخادمات وليس من الضرورى ايقاظهن » .

وبعد أن دخلنا أغلق موريارتي الباب بهدوء واحكم الاغلاق بالمزلاج من الداخل .

والتقط المصباح الذى كان قد وضعه على المنضدة فى وسط الردهة وتبعناه على الدرج الى داخل مسكنه ، وكان أثاث المسكن ، شأنه شأن « الروب » ، مكتملا ولكنه بال بعض الشيء .

ولما رأى مايكروفت ان البروفيسور على وشك اضاءة المصابيح رجاه قائلا : « من فضلك لا تشعل الغاز فقد يعود أخى ومن المهم ألا يلاحظ وجود أى تغير من خلال نافذتك » .

وأومأ موريارتى برأسه وجلس مشيرا بيديه لنا أن نجلس أيضا .

وسألنا بصوت يائس : «ما العمل؟» فقد رأى فى وجوهنا المكفهرة ما جعله يدرك أن الأمر من الخطورة بنفس القدر الذى توقعه .

وبدأ مايكروفت الحديث قائلا : « سنقدر لك صنيعك أعظم التقدير اذا سافرت الى فيينا فى الصباح » .

الفصل الخامس

رحلة فى الضباب

لا أجد من الضرورى أن أروى هنا أنواع الاغراءات التى قدمناها فى تلك الليلة الى مدرس الرياضيات التعيس وأنواع الترغيب والتهديد والضغط والوعيد التى استخدمناها لنجعله يرضخ لرغباتنا ، ولم يدر بخلدى أن مايكروفت هولمز يمتلك مثل تلك البلاغة التى استخدمها فى ذلك الموقف الغريب ٠

واحتج موريارتى فى البداية وهو يطلق نظرات فزعة تنتقل من أحدنا الى الآخر بينما بدت عيناه الزرقاوان باهتتين فى ضوء المصباح الوحيد الخافت ، ولكن مايكروفت استطاع اقناعه ، ولم أكن أدرى حينذاك أى سلطان ونفوذ يمتلكه ذلك العملاق الضخم على ذلك الكيان الضئيل ٠

لقد كان يبجل مايكروفت ، وفى النهاية بعد أن وعدناه بدفع تكاليف الرحلة ، وافق أخيرا بعد أن كرر تذكيرنا بالاعتذارات والتفسيرات التى سنقدمها الى ناظر المدرسة بحيث لا يفقد منصبه فى مدرسة « رويلت » خلال غيابه ٠

وما أن وصلنا الى اتفاق ، حتى ذهبت الى النافذة محتميا بالستائر ونظرت الى الشارع فلم أبصر هولمز وأشرت الى أخيه وخرجنا كما دخلنا ثم صعدنا الى العربة التى كانت لا تزال فى انتظارنا ٠

وفى رحلة العودة قاومت الاغراء الشديد لاستفسر من مايكروفت عن ماضى عائلة هولمز، بل وقد زادالاغراء عن ذى قبل لاكتشاف السر ، فقد بدا واضحا لى أن البروفيسور قد استسلم لطلب مايكروفت البالغ الغرابة بسبب « ذلة » يمسكها عليه ، ويبدو أن هذه الذلة من القوة بمكان بحيث انه لم تكن هناك حاجة لذكرها ، وعندما استرجعت المناقشة التى دارت وجدت أنها سارت فى صالحى أكثر مما كانت فى صالحهم اذ كانت النتيجة معروفة سلفا منذ البداية ٠

وقاومت الاغراء بالفعل ولم تكن المقاومة صعبة كما قد يظن ، اذ أننى استغرقت فى النوم ولم أفق منه حتى وقفت المركبة أمام بابى ولكننى مايكروفت وتبادلنا تحية المساء وقال مايكروفت : « الأمر فى يد شرلوك الآن » أجبته وأنا أتثاءب رغما عنى : « أرجو ألا نكون قد صعبنا عليه الأمر أكثر مما يجب » ٠

ومن داخل العربة ضحك مايكروفت وقال : « لا اظن ذلك فمما قلته يبدو أنه مازال حاد الذهن كما كان دوما ، كل ما فى الأمر أن التركيز قد انحرف عن مساره ، وموريارتى هو بغيته وسيجد طريقه اليه وأعتقد أننا لا يجب أن نشغل بالنا بذلك ، أما بقية المسألة فهى فى يد صديقك الطبيب وعمت مساء يا واطسون » وانتهى حديثه وطرق سقف العربة بعصاه فانطلقت فى غمار الضباب الذى أخذ فى التكاثف قرب سطح الأرض ٠

ولابد أننى وجدت طريقى بشكل ما الى سريرى ولم أفق من نومى الا وزوجتى تقف على رأسى تتفحص وجهى بقلق :

ـ « هل أنت بخير يا عزيزى ؟ » ووضعت يدا حانية على جبهتى كما لو كانت تظن أن بى شيئا من الحمى وأجبتها

بأننى فى خير وعافيــة لــكنى مجهـد فحسب ، وجلست فى سريرى ٠

وصحت فى دهشة عندما رأيت خلفهـا صـينية مغطاه موضوعة على الكرسى بجانب الباب : « هل سأتناول طعــام الفطور فى السرير ، قلت لك اننى بخير » ٠

ـ « تخبرنى ظنونى أنه لديك الوقت بالكاد لتناوله » ٠

قالت ذلك دون حماس وهى تضع الصينية أمامى ٠

وكنت على وشك أن أسألها ماذا تعنى بهذا الكلام عندما رأيت مظروفا اصفر اللون بجـانب اناء السـكر ٠ ونظرت متحيرا الى زوجتى التى شجعتنى بنظراتها الجريئة ففضضت المظروف ٠

« هــل تستطيع التغيب عن عيادتك لعـدة أيام ، لقـد قاربت اللعبة نهايتها وسـتكون معاونتك لا تقـدر بثمن ، أحضر توبى الى رقم ١١٤ شارع مونرو بهامر سميث ، خـذ حذرك ، هولمز » ٠

توبى، ونظرت الى زوجتى فقالت بهدوء : «لقدبدأت»٠

ـ « نعم ، نعــم » وحاولت أن أخفى نبرة الحمــاس فى صوتى ، لقد بدأت المطاردة ، أما نتيجتها فالزمن وحده هــو الكفيل بها ٠

وتجهزت للخروج بينما جهزت زوجتى الحقيبة الا أننى غافلتها ودسست مسدسى القديم فيها ٠

لقد كان هذا هو ما عناه هولمز بقوله « خـذ حـذرك » ورغم أننى كنت أعلم أننى لن أحتاج اليه فلم يكن من الحكمة أن أدع هولمز يظن أننى تجاهلت تعليمـاته كما لم يكن من الحـكمة أيضـــا أن أكشف لزوجتى أننى قد نفـذت تلك

التعليمات ، وقبلتها قبل الرحيل وذكرتها بأن تطلب من كولينجوورث العناية بمرضاى ٠

وكانت التعليمات تقضى بأن أحضر توبى وأقابل هولمز عند منزل البروفيسور ٠

كان الطريق لا يبين من الضباب الكثيف الذى كان قد ارتفع واحاط بى من كافة الجهات ، ولم يكن هناك داع لقياس مدى كثافته اذ كان لا يمكن اختراقه وكان كل ما حولى حوائط من الدخان الأصفر الكبريتى اللاسع للعين والمؤذى للرئتين ، وتحولت لندن خلال عدة ساعات الى عالم زاحف كأنه الحلم حيث يحل الصوت محل الرؤية ٠

وكانت أصوات حوافر الخيل تصل الى مسامعى من كافة الجوانب وهى تدق مربعات بلاط الشارع ، وأصوات الباعة المتجولون وهم يصيحون على بضاعتهم أمام المبانى غير المرئية ، ومن أعماق الضباب تناهت الى سمعى أنغام غريبة صادرة من أرغن يعزف لحنا نشازا لأغنية معروفة مما أضاف الى غرابة الجو ٠

كنت أحاول شق طريقى الى الناصية مستخدما عصاى لأتحسس بها الطريق ولا أرى الناس الا فى اللحظة التى يجب أن أتحاشى فيها الاصطدام بهم ، وكنت بالكاد قادرا على تمييز النقاط المضيئة فى هذا الجو السائد من البخار الأصفر ، واذا كان المرء غريبا فلربما استغرق منه الأمر بضع دقائق ليعرف أن هذه الأضواء هى مصابيح الشارع ، تركت لتضىء فى النهار لمصلحة السابلة أما أنا فقد عرفتها توا بالطبع ٠

ورغم خبرتى الطويلة كان الضباب فى ذلك اليوم يتخذ أبعادا هائلة وعندما عثرت أخيرا على مركبة استطاعت شق طريقها بصعوبة وبطء فى اتجاه رقم «٣» حارة بينشينى

فى لامبث وكنت أتطلع من النافذة فى هـذا الفراغ المصفر وألمح بين الحين والآخر بعض العـلامات المميزة التى أكدت لى أننا نسير فى الاتجاه الصحيح ، ميدان هانوفر ، ثم ميدان جروزفنر ثم هوايت هول ، وست مينستر وأخيرا جسر وست منستر ، مررت بها كلها وهى غارقة فى الضباب وأنا فى طـريقى الى تلك الحـارة المنفرة حيث كان يقطن مسـتر شـيرمان ، مربى الحيـوانات ، والذى كثيرا ما قدم كلبـه المتميز « توبى » مساعدات لهولمز خلال تحقيقاته ٠

ولو كان توبى يمتلك شجرة نسب فربما اعتبره البعض من نوع « بلودهاوند » ولكنه لما لم يكن يمتلكها فقد كان من المستحيل معرفة أصله ـ ولم يكن « مستر شـيرمان » يعرف كذلك عندما سألته عن الأمر ـ وكان تخمينه أن هذا الكلب نصف « سبانيبل » ونصف « لارشيل » (وكلها أسماء لأصناف من الكلاب ـ المترجم) ٠ لقد كان لونه الذى يجمع بين البنى والأبيض وأذناه المتهدلتان ومشيته المتأرجحـة كافيـة لتثير الخلط فى ذهنى فيما يتعلق بأجداده ٠

وقد انتابه خلال فترة من حياته مرض أزال كمية من شعره وكانت النتيجة أن أصبح مظهره منفرا بدرجة ما ومع ذلك فقد كان « توبى » حيوانا ودودا ومحبا ولم يكن لديه من الأسباب ما يجعله يحس بالدونية بالنسبة لبقية الكلاب مهما بلغت رفعة محتدهم ، لقد كانت أنفه هى نسبه ٠ وعلى قدر ما أعرف فانه لم يكن يوجد له مثيل فيما يتعلق بحاسـة الشم ولعل القراء يتذكرون قدرات « توبى » الخارقة والتى حكيت عنها فى « علامة الأربعة » والتى كان فيهـا المسئول الفعلى عن اكتشاف الشرير جوناثان صمول وزميله المرعب ٠ فقد تتبع أثرهما خلال نصف لندن تقريبا من خلال قطعة من القطران التصقت بالقدم الحافية لذلك الرجـل المـرعب ، صحيح أنه قادنا الى طريق مسدود عندما وصل الى برميل من القطران ، ولكن كان السبب فى ذلك أن المطاردين قد مرا

بذلك البرميل ولا يمكن أن نلوم الكلب على خلطه بين رائحتين متطابقتين ، ولكن لما قدناه ــ هولمز وأنا ــ مرة أخرى ليراجع خطأه أدركه فورا وانطلق فى الاتجاه الصحيح حتى حصلنا على النتيجة التى نوهت عنها •

ولن يستطيع عقلى مهما حلق فى سماء الخيال أن يخمن أى آفاق من العبقرية يمكن أن يصل اليها « توبى » •

وأخيرا أدركت من أصوات الحيوانات وضجيجها أننا قد وصلنا • وأخبرت السائق أن ينتظر ، ولم ينفس من ذلك فقد كان السير فى تلك الظروف خطرا ومفزعا ، وترجلت ونظرت حولى حتى أتعرف على صف المنازل البائسة التى كنت أعلم أنها تطل على جانبى الحارة ولكنها اختفت فى الضباب ولم يقدنى الى باب شيرمان سوى أصوات الحيوانات•

وطرقت الباب بشدة وناديت بأعلى صوتى ولكن الأصوات الصادرة من الداخل كانت تصم الآذان كما لو أن أهل البيت قد أزعجتهم تلك العباءة من الضباب والغبار والتى حجبت عنهم أشعة الشمس المعتادة ، ولكن خطر ببالى أنهم كثيرا ما لا يركنون الى السكوت وتعجبت لما قد تحدثه هذه الضجة الدائمة على صاحب تلك الحيوانات •

ولقد قابلت شيرمان عدة مرات عندما كانت أعمال هولمز تستدعى أن أذهب لطلب توبى وفى المرة الأولى هددنى بحية يمسكها فى يده ولكن كان ذلك قبل أن يدرك أننى صديق لمستر هولمز ، وعندما علم بذلك فتح الباب على مصراعيه وأصبح يرحب بى منذ ذلك الحين •

ولقد فسر لى العداء الذى قابلنى به أنه كان دائما محط معاكسة الأطفال فى الحى ، وقد مضى اليوم أكثر من عام منذ أن زرته آخر مرة ، وفى تلك المرة الأخيرة كان هولمز

يبغى استخدام توبى حتىٰ يقتفى ٱثر غوريلاً ضخم ــ من نوع « الاورانج ــ أوتان » فى انفاق مجارىٰ مارسيليا ، وقد كانت تلك القضية ، رغم أننى لم أسجلها ، لا تخلو مما كان يشير اليه هولمز بقوله « نواحى مثيرة » وكما اتذكر فان الحكومة البولندية كافأته على خدماته بأن أهدته وسام « سان استانيسلاوس » من الدرجة الثانية (١) ٠

وبعد الطرق الطويل والصياح من الداخل فتح الباب فى نهاية الأمر ٠

ــ « والآن يا أولاد ٠٠ » ورمقتنى العيون الضيقة لمربى الحيوانات وهو يحاول استشفاف من أنا من فوق زجاج نظارته : « أهذا أنت يا دكتور واطسون ؟ أرجو المعذرة ، تفضل ، لقد ظننت أنهم هؤلاء الأولاد الخبثاء يحاولون خداعى فى هذا الضباب اللعين ٠ ولكن كيف وجدت طريقك الى هنا تفضل » ٠

كان يحمل فى يديه قردا واضطررت فى طريقى الى الدخول أن أخطو فوق حيوان الغرير الذى كنت أعلم أنه منزوع الأسنان ٠ وران على حديقة الحيوان تلك صمت مفاجىء كما لو كنت قد ألقيت عليهم سحرا ، وفيما عدا الهديل الخافت لزوج من الحمام الرمادى يتربع فوق الرف وصوت خنزير يصيح من الداخل ، غرق المنزل فى سكون مفاجىء ، وفى ظل ذلك الصمت كنت أسمع أمواج نهر التيمز وهى ترتطم بأساسات المنزل ، ومن خارج النافذة

---

(١) من المؤسف ان واطسون لم يسجل تلك القضية ، وكما نرى فان مكافأة الحكومة البولندية لهولمز لتتبعه اثر الاورانج أوتان خلال مجارى مارسيليا يجعل هذه القضية تنضم الى حالات اخرى لم يعتبرها واطسون جديرة بالنشر ونستطيع أن نستنتج من اهدائه هذا الوسام أن القضية تم حلها بنجاح ولكن الى اية درجة من النجاح الله اعلم ، اذ لو كان هولمز قد نجح فيها تماما الم يكن الاجدر بالحكومة البولندية ان تهديه الدرجة الاولى من ذلك الوسام « نيكولاس ماير » ٠

كانت تتناهى الى أذنى صيحات طيور النورس وهى تحوم بلا هدف فى الضباب ٠

وأزاح شيرمان بلطف قطا عجوزا ذا عين واحدة من على الكرسى الهزاز ودعانى الى الجلوس ، ورغم أننى لم اكن أنوى البقاء طويلا ، فقد جلست ٠ اذ بدا فى هيئة الرجل ما يوحى بأنه يشتاق الى الصحبة الانسانية وكرهت أن ادخل ثم اندفع خارجا بسرعة رغم معرفتى أن أى تأخير ، بالاضافة الى مصاعب الرحلة التى سأقطعها الى هامر سميث ، قد يؤثر على قدرة توبى فى القيام بمهمته بكفاءة ٠ وسألنى :

ـ « أنت تريد توبى يا دكتور ؟ » ٠

قالها وهو يفك ذراع القرد المحيطة بعنقه ووضع الحيوان على قمة قفص للطيور مغطى : « دقيقة واحدة وسأحضره لك ، هل لديك وقت لقدح من الشاى ؟ » ٠

ـ « أخشى ألا يكون لدى وقت لذلك » ٠

ـ «هذا ما ظننته» وندت عنه آهة وخرج من باب جانبى الى مرابض الكلاب ٠ وبينت لى أصوات النباح والهرير الصادرة من ذلك الاتجاه أن كلابه كانت فرحة لرؤيته وميزت صوت توبى من بينها ٠

وعاد شيرمان لتوه بصحبة الكلب تاركا البقية تنبح فى أسى ٠ اذ لابد أن وجوده قد أثار فيهم الرغبة فى الخروج من الأقفاص ٠ وعرفنى توبى وهجم وهو يجذب السلسلة ويهز ذيله بقوة وطيبة واستجبت بأن أعطيته كتلة من السكر أحضرتها لهذه الغاية وهى الطقس المعتاد فى لقاءاتنا وعرضت على شيرمان كالعادة أن أدفع له مقدما ولكنه وفقا لطريقته الخاصة فى التعامل ـ على الأقل فيما يتعلق بشرلوك هولمز ـ رفض قبول شىء ٠

ـ « فلتحتفظ به طالما أنت فى حاجة اليه » ـ وقادنى مصرا على موقفه الى الباب مزيحا برجله دجاجة من الطريق وقال : « سنسوى هذا الأمر فيما بعد • مع السلامة يا توبى أيها الكلب الظريف، بلغ تحياتى الى مستر شرلوك» وانطلقنا أنا وتوبى فى اتجاه العربة •

وصحت به وأنا أنصرف أننى سأبلغ رسالته الى شرلوك ، وأخذت أصيح على السائق الذى بادلنى الصياح حتى يدلنى على المكان الذى وقف فيه ، وركبت وأخبرته بالعنوان الذى كتبه هولمز فى برقيته ـ والذى كنت قد زرته فى الليلة الماضية ـ واندمجنا فى ذلك الطابور الطويل من المرور الذى يسير على غير هدف يتحسس طريقه خلال شوارع لندن •

وأعدنا اكتشاف جسر وستمينستر وعبرناه بعد أن أفلتنا بالكاد من الصدام مع مركبة أخرى • وتوجهنا غربا نحو هامر سميث وكانت العلامة الوحيدة التى لا تكاد تبدو خلال الطريق هى محطة شارع جلوسستر •

وبعد لأى تحولنا الى شارع مونرو الذى كان خاليا ، وتوجهنا الى الضوء الخافت للمصباح الوحيد فى الشارع وتوقفنا •

ـ « لقد وصلنا » صاح السائق وهو يتنفس الصعداء ومندهشا فى نفس الوقت ، وترجلت لأستكشف المكان باحثا عن أى أثر لهولمز • وكان المكان موحشا ، صامتا ، وتردد صدى صوتى وأنا أنادى اسمه كما لو كان يصطدم بحائط الضباب •

وقفت لحظة متحيرا ، وكنت على وشك أن أتخذ طريقى الى منزل البروفيسور ـ الذى أعلم أنه يقع فى مكان ما

خلفي ـ عندما سمعت دقات تك ٠٠ تك تك ٠٠ على الرصيف في مكان ما على يميني ، فصحت :

ـ « من هنــاك ؟ » ٠ لا اجابة وانما اسـتمرت دقات العصا على الرصيف بنغماتها شبه المنتظمة ٠ واستجاب توبى مثلما فعلت وأطلق صوتا مكتوما ينم عن الارتياح ٠

واستمر الطرق مقتربا ٠

وعاودت الكلام : « هالو ٠٠ من هناك ؟ » ٠

وانطلق صوت حاد يغني من خلال الضباب أغنية شعبية معروفة ، ووقفت متجمــدا بلا حــراك بينما اقترب المغنى والغناء مني وشعر رأسي يكاد يقف من الخوف ٠ فهأنا أقف في شارع مهجور يغمره الضباب خارج حدود الزمان والعقل بينما يتجاهل ذلك المغنى المجهول وصوته الأجش تساؤلاتي ، وأخيرا وببطء ، ظهر المنشد ، رث الهيئة يترنح في مشيته وقد أضفى عليه مصباح الشارع هالة من الضــوء ٠ وكان يرتدى صدارا وأكماما من الجلد القديم وحــذاء متهــالكا لا يمسكه الا رباطه ، وتدلت خصلات خفيفة على جانبي وجهه وعلى رأسه قبعة من الجلد قد أدار حافتها الى الخلف ، وكانت كل هذه الأشياء تشير الى أنه كانت له علاقة بصناعة الفحم ، وأقول كانت لأنه كان يخفي عينيه بالنظارة السوداء الخاصة بالعميان ٠

وظللت أحملق مفزوعا بينما أخذ هذا الشبح يدنو منى حتى انتهى من أغنيته وساد الصمت كأنه معلق في الهواء صاح فجأة :

ـ « حسنة ٠٠ حسنة الى الأعمى » وانحنى وقد مد قبعته الى وأخذت أفتش جيوبي بحثا عن نقود :

ـ « لماذا لم ترد على عندما ناديتك ؟ » سألته وأنا ضيق الصدر نوعا اذ شعرت بالخجل من تلك الفكرة التي راودتني

وهى أن أستخرج مسدسى من الحقيبة الموضوعة فى أرضية العربة . وزاد من ضيقى ما أدركته من أننى كنت سأبدو فى غاية الحماقة أمام هذا المغنى الأعمى الذى لا يمثل أى خطر بالنسبة لى وبالتأكيد لا يحمل لى أية ضغينة .

فأجاب : « لم أرد أى أقطع الأغنية » ، وكانت لكنته قريبة من الايرلندية « لا يدفع لى أحد عندما أتوقف عن الغناء » وهز قبعته فألقيت فيها بعض البنسات « أشكرك يا سيدى » .

ـ « ولكن بحق السماء أيها الرجل لمن تقدم بضاعتك فى هذه الظروف ؟ » .

ـ « أى ظروف يا سيدى ؟ » .

ـ « هذا الضباب اللعين الذى لا تستطيع أن ترى فيه رأسك من قدمك » . وتوقفت فجأة متذكرا عجزه ، وأطلق المنشد زفرة حارة .

ـ « آه ، هذا هو السبب اذن لقد تعجبت فكل شىء يبدو غريبا اليوم اذ لا أصدق أننى جمعت شلنا واحدا هذا الصباح . هو الضباب اذن ؟ هذا هو السبب القاطع فى أننى لم أتلق شلنا واحدا اليوم » .

وأطلق تنهيدة أخرى وبدا كمن يتلفت حوله الأمر الذى أفزعنى خاصة أنه ضرير .

فسألته : « هل تحتاج أية مساعدة ؟ » .

ـ « كلا كلا يا سيدى . بارك الله فيك لهذا العرض ولكنى لا أحتاج ، فالأمر سيان بالنسبة لى .. الأمر سيان بالنسبة لى .. أشكرك يا سعادة المحافظ » .

ومد يده داخل قبعته والتقط النقود منها ووضعها فى جيبه ، وودعته بينما انطلق مستخدما عصاه ليتحسس طريقه، لا يختلف عن أى شخص عادى فى مثل هذا الضباب اللعين ، فيما عدا أنه بدأ يغنى مرة أخرى وصوته يخفت شيئا فشيئا كلما ابتعد عن ناظرى وابتلعته طيات الدخان •

وتلفت حولى وصحت مرة أخرى : « يا هولمز » •

ـ « لا داعى للصياح يا واطسون ، أنا هنا » سـمعت صوتا مألوفا خلفى ودرت بحركة سريعة لأجد نفسى وجهـا لوجه مع المغنى الأعمى •

الفصل السادس

توبي يتفوق على نفسه

ـ « هولمز ! » .

ضحك ونزع الشعر المستعار عن رأسه والحاجبين عن وجهه وكذلك الشامات التى كانت على ذقن المغنى ثم نزع النظارة السوداء وبدلا من عيون المغنى الخامدة فرح قلبى لرؤية عيون هولمز اللامعة التى تبدو فيها سخرية صامتة .

ـ « سامحنى يا صديقى العزيز ، فأنت تعلم أننى لا أستطيع مقاومة اللمسة الدرامية وكان الموقف مكتملا بحيث لم أستطع مقاومة الاغراء » .

واستغرق منى الأمر بعض الوقت لأهدىء من روع سائق المركبة الذى تركه الموقف مشدوها ونجح هولمز آخيرا فى تهدئته .

وسألته : « ولكن لماذا التنكر ؟ » بينما انحنى هو يربت على الكلب الذى اقترب منه يهز ذيله فى سعادة ويلعق الطلاء عن خديه ، ونظر الى نظرة حادة :

ـ « لقد فر يا واطسون » .

ـ « فر ؟ . من الذى فر ؟ » .

ـ « البروفيسور » ، ونهض هولمز وهو يتحدث بغيظ : « ها هو منزله يقبع خلفك فى الضباب لقد كنت أراقب بنفسى

مسكنه الليلة الماضية « وكنت عادة أكلف ويجينز بذلك »(١) وكان كل شيء يسير كالمعتاد حتى منتصف الليل وكان الجو رطبا وثقيلا فذهبت الى الحانة في نهاية الشارع لاحتساء بعض البراندى طلبا للدفء وخلال هذه الفترة أتى رجلان لرؤيته ، وليست لدى وسيلة لمعرفة ما قالاه ولكننى لا أشك لحظة انهما كانا جاسوسين يعملان لحسابه وقد أتيا ليخبراه بأننى قد أحكمت الخناق حوله ، وعندما رجعت كانا قد ذهبا ، وكان كل شيء كما تركته • وفى هذا الصباح فى الحادية عشرة تلقيت برقية من ويجينز ، لقد رحل البروفيسور فيما بين الوقت الذى رحلت فيه وحل ويجينز محلى أما كيف والى أين فهذا هو ما نحن بصدد اكتشافه ، ولقد حضرت كما رأيتنى لئلا يكونا قد أعدا كمينا لى » •

أصغيت اليه محاولا رسم تعبير سلبى على وجهى وطرح الأسئلة المناسبة :

ـ « أقلت رجلان ؟ » •

ـ « نعم ، كان أحدهما طويلا ثقيل الوزن لا أقل من مئتى رطل تقريبا ـ فهذه الأرض الرطبة مفيدة جدا فى تسجيل ما ينطبع عليها ـ وكان ينتعل حذاء عالى الرقبة منبعجا عند الابهام وكعبا مربعا متآكلا من الداخل ، مثل هؤلاء الرجال ضخام الحجم غالبا ما يقفون وقد تفرطح الابهام لديهم وهذا يفسر شكل الحذاء ، كما كان شخصا حاسما وأعتقد أنه كان القائد بين الاثنين •

ـ « والآخر ؟ » سألته وأنا أحاول أن أمنع نفسى من ابتلاع ريقى « آه •• الآخر » تنهد هولمز وهو يجول ببصره فى السكون : «هناك ملامح مثيرة للاهتمام بشأنه ، لقد كان

---

(١) وهو أحد ابناء الشوارع وعمل لفترة ما قائدا لعصابة من الفتيات تعتبر فصيلة الاستخبارات الرسمية لهولمز « المترددون على شارع بيكر » (نيكولاس ماير) •

أقصر قليـــلا ولا يكاد يبلغ وزنه نصـــف وزن زميله ويبلغ
طوله أقل من ستة أقدام كما أن برجله اليسرى عرجا خفيفا
يكاد يشبه مشيتك يا واطسون • وكان متـــأخرا عن زميله
مما دعا الآخــر الى اســتدعائه عنــدما اقترب من المنزل ،
ويتضح هذا من واقع أن آثار ابهام القدم فقط هى الواضحة
عندما ذهب فى هذا الاتجاه ، لقد كان يمد الخطى ، يدل
على ذلك ازدياد اتساع خطوته ، ولم يكن يتســلل حيث ان
ذلك لم يخطر عــلى بال زميله لقـــد جاءا مبـــاشرة لرؤية
البروفيسور وانصرفا ، وكنت أســتطيع أن أخبرك بالمزيد
عنهم لولا هذا الضباب اللعين الذى منعنى من رؤية الصورة
الكاملة لما قاما به ، ولحسن الحظ لقد أخذت من الاحتياطات
ما يمكننا من القبض عليهما اذا لزم الأمر • فكمـــا تعلم ،
ليس من عادتى اصطياد السمك الصغير بينما السمك الكبير
مطلق السراح ــ وصاح فجأة : « احذر مسحوق الفانيليا » ــ
وجذبنى الى الخلف بعــد أن خطوت خطــوة أو خطوتين فى
اتجاه المنزل وتشبث بى حتى لا يفقد توازنه • لقد تأكد لى
الآن أنه مجنون تماما ولا رجاء فيه • قلت له بأقصى درجة
استطعتها من الهدوء : « مسحوق الفانيليا ! » •

ــ « لا تنزعج يا صديقى العزيز فأنا لم أفقــد عقلى ــ
وضحك وهو يغلق أطراف سترته ــ ألم أقل لك اننى قد اتخذت
من الاحتيــاطات ما يمــكننى من اقتفاء أثر أى من هــؤلاء
الرجال أو كلهم • ادفع للسائق وسأشرح لك » •

وبمزيد من الانزعاج جرجرت أذيالى الى العربة وأخذت
حقيبتى ودفعت للسائق ، وبدا عليه الارتيــاح للتخلص من
صحبتى ، فلابد أنه قد اعتبر أن أخطار الضباب أقل بكثير من
مخاطر الانتظار فى شارع مونرو • وخفت صــوت عجــلات
المركبــة حتى تلاشى وعدت الى حيث كان يقف صــــديقى
منتظرا • وأخذنى من ذراعى وأمسك مقود توبى بيده الأخرى

وقادنا نحو المنزل الذى كان لا يزال غير مرئى ولكننى كنت قادرا على الشعور بوجوده •

ــ « انظر هنا تحت قدميك وشم الرائحة » وانبطحت لأشم حسب تعليماته واندفعت الى أنفى الرائحة النفاذة لمسحوق الفانيليا •

ــ « ما هذا ، بحق السماء ؟ » •

ــ « انه أفضل من القطران » ودعا توبى كى يشم الرائحة واستطرد : « انه ليس لزجا ولذلك لا يحس المنتعل بأن هناك شيئا ملتصقا بنعل حذائه وفائدته الأخرى أنه فريد من نوعه فهو قوى الرائحة ويظل أثره لمدة طويلة وأشك كثيرا أن توبى سيختلط عليه الأمر ــ الا اذا قادنا الأثر بالطبع الى أحد المطابخ ــ هيا شمه أيها الولد » •

وشجع الكلب الذى أخذ يستنشق البقعة الكبيرة من المادة بجانب الرصيف •

ــ واستطرد هولمز وهو مازال مستمرا فى ازالة آثار تنكره : « لقد رششت هذه المادة هنا قبل أن أغادر موقعى فى الليلة الماضية ، ولقد داسوا جميعا عليها موريارتى وعميلاه وعجلات المركبة التى أقلته منذ عدة ساعات » •

وحمدت ربى أننى قد غيرت حذائى هذا الصباح • ونهضت على قدمى وسألته : « وما العمل الآن ؟ » •

ــ « الآن سيقتفى توبى آثار عجلات المركبة ولسوف تنتابه الحيرة عند نقطة معينة وهناك سنبحث نحن عن تلك الآثار سيرا على الأقدام فهل أنت مستعد ؟ » •

ــ « ألم يتأخر بنا الوقت ؟ » ٠

ــ « لا أظن فلا شك أن الضباب الذى أخر وصولك قد عاق أيضا هروبه ، هيا بنا » ٠

ودفع توبى بعيدا عن بقعة الفانيليا وانطلقنا وكانت الرائحة قوية واضحة ، ورغم استحالة الرؤية التى فرضها علينا الضباب مضى الكلب بخطوات ثابتة سريعه بحيث لم نستطع ان نكبح جماحه الا بالكاد ٠ واستعاد هولمز حقيبته الحمراء التى يحملها فوق ظهره من السياج النباتى الاخضر على الجانب الآخر من الطريق ، وتابعنا رحلتنا فى صمت نبذل جهدنا لنتابع الكلب الذى كان شده للمقود وصيحات الحماس التى يطلقها تدلنا على أن أبخرة الكبريت المؤذية المنتشرة فى الهواء ليس لها أى تأثير على حاسة الشم لديه ٠

وبدا هولمز هادئا ومتماسكا ، حاضر البديهة بحيث تساءلت بينى وبين نفسى اذا ما كنت قد وقعت فى خطأ فاحش ، فربما قد خدعنا موريارتى أنا ومايكروفت وكان هو فى الحقيقة رأس الأفعى ، وطردت الفكرة عن خاطرى باعتبار أن لا مكان لها فى هذه اللحظة وأسرعت أحث الخطى فى اثر هولمز والكلب ، ولقد كان لهذا الطقس آثار مؤلمة على جرحى ولم أكن كقاعدة عامة ، أمشى فى مثل هذا الطريق ٠ وفى لحظة معينة أخرجت غليونى ولكن هولمز رفع يده محذرا « يكفى الكلب ما يلاقيه من آثار الضباب فلا ترهقه بمزيد من العقبات » ٠

وهززت رأسى موافقا ومضينا نجوس خلال الشوارع التى لا تكاد ترى ونتفادى حركة المرور ، لأننا كنا مضطرين

أن نسير في وسط الطـريق متتبعين أثر العـربة ، ومررنا بمحطة شـارع جلوستر والتي كانت عـلى يسـارنا وكنت اسمع بوضوح صفير القطارات من خـلال الضباب وكأنهـا أصوات خنازير عمياء تحاول البحث عن جرائها ، واستمر الكلب يشدنا دون ان تبدو عليه آية بادرة لفقدان الطاقه ·

وقال هولمز مشيرا الى مسـحوق الفانيليا : « قد اكتب مقالة (١) في هذا الموضوع فان ميزاته لمثل هـذا النـوع من الاعمال متاليه · كما ترى فها هو دليلنـا لا يتردد لحظـه ، وحتى خلال الطين والماء يعـرف طريقـه » وغمغمت بكلام يفهم منه الموافقه وتنفست الصعداء لاني قد غيرت حـذائي والا كانت تلك المادة قد قادت هذا الكلب النموذجي الى قبل أن نسير خطوتين وتنتهي اللعبة قبل أن تبدأ ·

وتابعت سيري السريع لمتابعـة خطى الـكلب ولم اكن أستطيع رؤية آين كنا كما كانت أصـوات المدينة تطن في أذني ونحن نتابع بعضنا البعض بسرعة مدهشـة ، وبدأت ساقي تؤلمني وكنت على وشـك أن أقول ذلك عنـدما توقف هولمز وشد طرف سترتي :

ــ « ما الأمر ؟ » قلت وأنا ألهث ·

ــ « أنصت » ·

وأطعت ، محاولا تخطي صـوت نبضـات قلبي ، كانت هناك أصوات الخيل وصليل السروج · وأصوات المركبـات وصفير القطارات ·

---

(١) وقد كتب هولمز بالفعل هذا المقـال « حول تتبع اثار الأقدام » وهو عمل رائد في هذا الموضوع وكان هولمز ايضا أول من نادى باستخدام عجينة باريس في صب قوالب تلك الآثار ، كما ألف عددا من المقالات التي طبعها على نفقته في موضوعات مشابهة « نيكولاس ماير » ·

وقال هولمز بهدوء : « محطة فيكتوريا » .

وكانت بالفعل نهاية الخط الحديدى العظيم كما أدركنا وغمغم هولمز : « هذا بالضبط ما توقعته لقد أتيت بحقيبتك معك لحسن الحظ » .

وخيل الى أن هناك نغمة ساخرة فى نبرة صوته فذكرته قائلا :

ــ « قلت فى برقيتك عدة أيام » .

ولم يبد عليه أنه سمع ما قلته وانما اندفع خلف توبى الذى كان يسير فى خط مستقيم تجاه موقف العربات وتشمم الأرض حول «الموقف» الذى كانت تصطف فيه عدة مركبات، وكانت تتدلى من رقبة كل جواد مخلاة تمتلىء بطعامه وفجأة تحول عنها كما لو كان يريد الخروج من المحطة .

ــ « كلا ، كلا ، يا صديقى ، لقد انتهينا من العربة يا توبى ، خذنا الآن الى حيث الراكب » .

وقاد توبى الى الناحية الأخرى من « الموقف » وهناك وبعد لحظة من التردد حل الكلب الالتباس الذى طرأ وبصيحة نشطة اندفع الى الداخل وجاس خلال المحطة المزدحمة ــ والتى زاد ازدحامها بسبب التأخيرات الناتجة عن رداءة الطقس ــ متخطيا جماعات الركاب المتناثرة والتى بدا عليها الضيق قافزا أحيانا فوق معطف يعترض طريقه حتى وصل الى رصيف قطار أوربا السريع . وهناك توقف تماما قبالة القضبان الفارغة مثلما توقف جلوسستر عند حافة صخرته . لقد انتهت آثار الفانيليا ونظرت الى هولمز الذى ابتسم رافعا حاجبيه .

وقال بهدوء : « هكذا اذن » .

فسألته : « ما العمل الآن ؟ » ٠

ـ « دعنا نستفسر كم مضى من الوقت منذ أن سافر القطار السريع ومتى يقوم القطار الذى يليه » ٠

ـ « وماذا بشأن الكلب ؟ » ٠

ـ « سنأخذه معنا بالطبع اذ لا أعتقد أننا قد استنفدنا كافة خدماته بعد » ٠

فيما بعد ، والقطار ينطلق بنا من لندن وهو يخترق أستار الضباب فى الطريق الى دوفر ، التفت الى هولمز قائلا وهو يبتسم : « ليس توبى بالطبع هو الوسيلة الوحيدة التى أقتفى بها أثر البروفيسور موريارتى ٠٠ ثلاث وسائل على الاقل تمكننى من ذلك ، بدون خلاصة الفانيليا » ٠

أدى استنشاق الهواء النقى الى رفع معنوياتى والى تحسن رئتى المحتقنتين وكان النهار فى هذه المنطقة الجنوبية الشرقية من لندن لا يزال غائما ممطرا ، لكن الرؤية ممكنة، وكان اطمئنانى الى وجود هولمز بجانبى فعلا وانطلاقه فى الطريق المرسوم يشيع الارتياح فى نفسى ويعوضنى عن متاعبى ٠

وراح صديقى فى غفوة قلقة ، واستيقظ بعد ثلاثين دقيقة منزعجا وهو ينظر الى نظرات غريبة ٠ ووقف فجاة واستند الى حاجز رف العفش ليحفظ توازنه « اسمح لى يا صديقى العزيز » قالها بصوت متوتر ، ونظر الى نظرة غريبة مرة أخرى ومد يده الى العفش وجذب حقيبته القماشية الحمراء ٠ وكان هولمز فى الفترة التى سبقت قيام قطارنا من محطة فيكتوريا قد استخدم حمام المحطة ليزيل بقايا تنكره ويعود الى حالته الطبيعية المعتادة ، مستخدما ملابسه الموجودة فى تلك الحقيبة نفسها ٠ وأدركت على الفور أين

سيذهب ، وماذا سيفعل ولماذا · وتراجعت عن أى اعتراض، ومهما كان الامر فهذا هو السبب فيما أفعله ، فى اصطحابى له الى النمسا ، دون أن يعلم شيئا عن ذلك بالطبع · ورفع توبى رأسه من وضع النوم الذى كان فيه عندما تسلل هولمز من أمامه خارجا من المقصورة · فربت على رأسه حتى هدأ فى مكانه ·

وعاد هولمز بعد عشر دقائق تقريبا · وأعاد الحقيبة بهدوء الى مكانها وجلس ساكنا دون كلمة او نظرة الى · وتظاهر بالانشغال الشديد بقراءة طبعة الجيب من مقالات مونتانى · وانصرفت أنا الى التطلع من النافذة الى الحقول التى تمر مسرعة بى وقد غطتها غلالة من الندى اللامع بينما وقفت الماشية وقد ادارت ظهرها للريح ·

وتوقف القطار فى ميعاده فى دوفر ليلاقى العبارة . وترجلنا ثلاثتنا وتمشينا قليلا على الرصيف لننشط عضلاتنا ، بينما أخرج هولمز قنينة بها بقية خلاصة الفانيليا ووضعها تحت أنف توبى وتحت ستار قيادة الكلب ليقضى حاجته (وقد فعلها باغتباط شديد) ذرعنا الرصيف جيئة وذهابا حتى نستطيع أن نحدد ما اذا كان البروفيسور قد نزل من القطار السابق عندما توقف فى تلك المحطة · وكنت بالطبع أعلم أنه لم ينزل ، وهى النتيجة التى وصل اليها توبى أيضا ·

وقال هولمز ونحن نعبر القنال: «أعتقد أنه لما كان قطارنا هذا لا يقف الا فى المحطات التى تتوقف بها القطارات السريعة ، فلن نفقد أية فرصة من فرص نزول البروفيسور من القطار » ·

وفى كاليه استخدم هولمز نفس الطريقة ، ووصل الى نفس النتيجة · وانطلقنا فى الطريق الى باريس حيث وصلنا

بعد منتصف الليل · وكانت محطة الشمال (جاردى نور) شبه مهجورة فى متل تلك الساعة ، ولم نجد صعوبة فى اقتفاء أثر خلاصة الفانيليا حتى وصلنا الى رصيف قطار فيينا السريع ·

وعبس وجه هولمز عندما رأى لافتة الرصيف ·

ـ ولماذا يذهب الى فيينا ؟

فقلت : « ربما نزل فى احدى المحطات الفرعية ، ويبدو أن هناك الكثير من الوقفات » ·

وأضفت : « أرجو ألا يكون توبى قد أخطأ » ·

وابتسم هولمز بعبوس : « اذا أخطأ ، فسوف يكون موقفنا أسوا بكثير من الموقف الذى حدث لنا عندما آخطأ وتوجه الى برميل المازوت » ـ أضاف ـ « ولكنى عظيم الثقة في خلاصة الفانيليا ، ولقد أجريت عدة تجارب عليها ـ ولكن اذا اتضح زيفها يا واطسون فسوف تكون هذه هى القضية التي ستسلى قراءك بدلا من الاندهاش المعتاد » ·

ولم أخبره أن تلك القضية هى الوحيدة التى لن أفكر فى كتابة وقائعها · وضحك قائلا : « ستحل فيينا محل نوربرى فى قائمة فشلى » وتوقف لينظر فى جدول مغادرة القطارات ليرى ميعاد القطار التالى والرصيف الذى يقوم منه ، وكان لحسن الحظ هو نفس الرصيف · وجادلنى هولمز والقطار ينهب الطريق عبر فرنسا فى الساعات التى تسبق الفجر « عندما لا يستطيع الكلب اقتفاء أثر الرائحة فسوف يتوقف · ولما كان لم يتوقف حتى الآن فأعتقد أن المعقول هو أنه لم يفقد الأثر · ولما كانت الرائحة غير مألوفة ـ خارج

المنزل بالتأكيد ـ فاننا نستطيع أن نستنتج أيضا أنه يتتبع نفس الوائحة وليس برميلا من الفانيليا صادفه فى طريقه» ٠

وأومأت برأسي والنوم يعتريني وعيناى لا تقويان على متابعة السطور فى الرواية ذات الغلاف الاصفر التى اشتريتها من باريس ٠٠ وسرعان ما استغرقت فى النوم ٠

عندما استيقظت كان الوقت ظهرا وعباءة هولمز تغطينى ورجلاى ممدودتان على المقعد وكان صديقى يجلس قبالتى، كما تركته ، يحملق فى النافذة ويدخن الغليون ٠

وتحول الى بعد لحظة وسألنى مبتسما : هل نمت جيدا ؟

وأجبته بأننى على ما يرام فيما عدا بعض التصلب فى رقبتى وشكرته على العباءة ٠ ثم سألته متحرجا عن مدى تقدمنا ٠

فقال : « توقفنا مرتين ، الأولى عند الحدود السويسرية والثانية فى جنيف لمدة تقارب الساعة ، واذا صدقنا توبى فان موريارتى لم يغادر القطار » ٠

وكان توبى صادقا طبعا ٠ كنت متأكدا من ذلك ونهضت متوجها الى الحمام حيث حلقت ذقنى ثم صحبت هولمز بعد ذلك الى عربةالطعام ونشأت مشكلة بسببالكلب ـ نفس المشكلة التى واجهتنا عند الحدود ـ وحل هولمز المشكلة بان دفع الكلب الى أحد الفراشين وأعطاه بعض النقود وطلب منه أن يجد للكلب بعض بقايا الطعام من المطبخ ـ وكانت بطبعها قليلة ـ ولم أعلق بشيء ٠ ومرت بنا الساعات فوصلنا الى برن بعد جنيف ومن برن الى زيوريخ وفى كل محطة كان هولمز يقوم بصحبة توبى للقيام بنفس التمرين وفى كل مرة كنا نخرج بنتائج سلبية ، نعود بعدها الى مقصورتنا وعلائم الحيرة مرسومة على وجوهنا ٠ ويعيد هولمز ذكر تفسيراته المنطقية وأؤمن أنا عليها ٠

وبعد زيوريخ وصلنا الى الحدود الألمانية ثم ميونيخ وسالزبورج ، وظلت آثار الفانيليا مختفية ولم تصادفها على أى رصيف ·

وقضيت ما بعد الظهيرة محملقا فى نافذة المقصورة مسحورا بمناظر الطبيعة الخلابة ـ والمختلفة تماما عما عهدته في موطنى ـ ومنازلها الصغيرة التى تشبه منازل قصص الأساطير والجنيات والاهالى بملابسهم الطريفة وقبعاتهم ذات الأطراف وقمصانهم الفضفاضة الزاهية الألوان وستراتهم الجلدية القصيرة · وكان الجو مشمسا منذرا بالدفء · وتعجبت كيف لا تسيل الثلوج عند قمم الجبال المتناثرة على طريقنا فى مثل هذا الجو المشمس · وقلت هذا لهولمز ·

فقال وهو يميل لينظر من النافذة الى القمم المغطاة باللون الأبيض : « انها تفعل ذلك يا واطسون وعندئذ يحدث ما نسميه الانهيارات الجليدية » ·

ولم تكن فكرة سارة ، وكان من المستحيل الا أفكر فيها مادامت قد حضرت الى ذهنى : ألا تحدث مثل تلك الانهيارات نتيجة لذبذبات الصوت ، وألم يكن القطار يحدث ضوضاء مزعجة ونحن نمر بجوار تلك الثلوج الهشة ، وماذا يحدث اذا أدت تلك الأصوات الى حدوث الانهيار الذى يدفننا ؟ ·

ـ هذا صحيح يا واطسون ـ « انها فكرة تبعث على الخشوع والتواضع » ونظرت الى رفيقى الذى كان يزيح قشة عن كمه ولم تكن بى حاجة لسؤاله عن كيف استشف أفكارى فقد كنت أرى بسهولة كيف تسلسلت أفكاره ·

ـ « نعم انظر الى هوان وضآلة أفعالنا عندما نقارنها بأفعال هى فعلا كذلك » واستمر بنوع من الحزن : «من الممكن أن يوجد بهذا القطار اثنا عشر عبقريا يمتلك كل منهم سرا هائلا قد يفيد البشرية فائدة لا حدود لها » ·

ـ « ومع ذلك ففى لمحة بصر يأمر الخالق الذرى بأن تنقض علينا ٠٠ فماذا سيكون من شأن الانسانية عندئذ ؟ هه يا واطسون ٠٠ ماذا ستكون النهاية ؟ » ٠

وبدا لى أنه فى حالة من حالات الاكتئاب التى رأيتها تسيطر عليه فيما مضى ٠ وبدلا من أن أراه يدفن تحت تلك الثلوج التى تحدث عنها ، كان يغوص فى أعماق روحه ولم يكن بيدى أى شىء أفعله لأحول دون ذلك ٠

فقلت بصوت منخفض : « لا شك أنه سيولد غيرهم من العباقرة » ٠

ـ وهز رأسه بشدة وهو يقول : « يا عزيزى واطسون ، أنت النقطة الثابتة الوحيدة فى هذا الكون من الانهيارات الجليدية » ٠

ونظرت اليه ورأيت الدموع تترقرق فى عينيه ٠

ونهض فجأة وتناول حقيبته الحمراء وخرج ، ولأول مرة شكرت المخدر ٠ فلسوف يعيد اليه روحه المعنوية ، وحتى أستطيع تركه فى رعاية الطبيب النمساوى العلامة كنت ، ويا لسخرية الأقدار ، معتمدا عليه ! ٠

وعاد هولمز بعد فترة قصيرة ٠ وطرق باب المقصورة رجل انجليزى طويل القامة ذو شعر أحمر واستفسر منا فى همهمة مشتتةاذا لم يكنلدينا مانع من جلوسه معنا حتى مدينة لينز ٠ فقد صعد الى القطار فى سالزبورج ولكن المقاعد امتلأت أثناء جلوسه فى عربة الطعام ٠ وحثه هولمز على الجلوس باشارة لا مبالية من يده ٠ وبدت عليه بعد ذلك اللا مبالاة التامة ٠ وأصبح على أنا وحدى القيام بالحديث المتقطع مع القادم الجديد الذى كان يواصل الحديث معى بعبارات مبهمة ذات مقطع واحد ٠

ـ « لقد كنت فى التيرول » أجاب الرجل على سؤالى ، ففتح هولمز عينيه قائلا :

ـ « فى التيرول · لا بالتأكيد ، فالملصقات على حقائبك تشير الى أنك عائد من روريتانيا » ·

وامتقع وجه الرجل الانجليزى الوسيم وأصبح فى لون وجه هولمز نفسه · ونهض واقفا واستعاد حقائبه وهمهم ببعض الاعتذارات قائلا انه سيذهب لتناول شراب ·

ـ وقلت بعد رحيله : « يا لسوء الحظ ، كنت أحب أن أسأله عن حفل التتويج » ·

ـ فقال هولمز : « لم يكن مستر راسنديل مستعدا لمناقشة الموضوع ، والا لكان قد ترك معطفه معنا بدلا من أخذه الى عربة الشراب ، وبهذا الشكل لا يوجد مبرر لعودته » ·

ـ « لكن شعره الأحمر غير عادى ، لقد كان سيمنحه بالتأكيد عضوية الرابطة (١) أليس كذلك يا هولمز » ؟

فأجاب بجفاء : « لا شك فى ذلك » ·

ـ « لكنك قلت ان اسمه راسنديل ، بينما لم أستطع قراءته على الملصقات ؟ » ·

ـ « وكذلك أنا » ·

ـ «فكيف تمكنت باسم كل ما هو عجيب فى هذ العالم؟» ··وقاطعنى بضحكة قصيرة واشارة من يده :

ـ « لا أود أن أجعل من المسألة فزورة ·· لقد تعرفت عليه ، هذا كل ما فى الأمر ، انه الشقيق الأصغر للورد

---

(١) يشير واطسون هنا الى « رابطة ذوى الشعر الاحمر » وهى جمعية رائفة ادعت أنها تساعد وتوظف ذوى الشعر الاحمر الخالص · وقد ذكرها واطسون فى كتاباته بعنوان « مغامرة رابطة الشعر الاحمر » ·

(نيكولاس ماير) ·

برلسـدون (١) وكنت قد تبادلت معـه الحـديث ذات مرة في حفلة لدى اللورد توبهام • ويبـدو لى أنه من النـوع « الخسران » •

وصمت متناسيا الموضوع بينما بدت علائم تأثير المخدر تظهر عليه •

كان الـوقت ليـلا عنـدما دخل القطار مدينة لينز • وأخذنا توبى ليقوم بجولته المعتادة على الرصيف وكان هولمز عندئذ قد أصبح مقتنعـا أن موريارتى قد قطـع كل تلك المسافة الى فيينا (ولو أن السبب كان لا يزال خافيا عليه) ولذلك لم يدهش عندما فشل الـكلب فى اكتشـاف أى أثر للرائحة فى المحطة •

وركبنا القطار مرة أخرى ، ونمنا حتى وصل الى فيينا مع مطلع النهار • وقمنا بالطقوس المعتادة من حلاقة الذقن وتغيير الملابس الداخلية ، ولكننا كنا نحس باضـطراب فى أعماقنا ، من انتظار اللحظة الموعودة عندما ينطلق توبى الى الرصيف ليرى اذا ما كان هناك أى أثر للفانيليا •

وأخيرا جاءت اللحظة ، ونزلنا من القطار نحمل حقائبنا ونمسك بمقود توبى • ومشينا ببطء من نهاية القطار الى بدايته ولم يتبق أمامنا سوى عربة واحدة ، ومازالت لم تبد على توبى أى علائم تبث فينا الأمل ، وطال وجه هولمز ونحن نقترب من البوابة المؤدية الى نهاية الرصيف •

وفجأة تجمد الكلب فى موقفه ثم انطلق لقدم أو قدمين وهو يدس أنفه خلال تراب الرصيف ويهز ذيله فى فرح •

---

(١) هذه واحدة من أغرب المصادفات فى التاريخ الانجليزى الحديث مليئة بالمفارقات • ويبدو أن واطسون ذهب الى قبره دون أن يعلم قط من هو ذلك الشاب الانجـليزى الوسيم ذو الشعر الأحمر الذى صادفه فى القطار • وكان هذا الشاب ـ كما استنتج هولمز ـ عائدا لتوه من ريوريتانيا وليس من التيرول وقد ذكر مغامراته فى تلك المملكة ورؤيته لوقائع تتويج الملك الخامس فى كتابه الشهير « سجين زندا » الذى نشر عام ١٨٩٤ باسم مستعار هو أنتونى هوب (ن•م) •

وصحنا فى نفس واحد : « لقد وجده » وبالفعل كان توبى قد عثر على الأثر وأخذ يزمجر فى رضى وانتصار • ثم سار فى طريقه بسرعة نحو البوابة •

وقادنا الكلب خلال محطة السكك الحديدية الغريبة علينا ، كما لو كان يسير فى منطقة سكنه على بعد آلاف الأميال فلم تكن الحدود أو حواجز اللغة لتقف عائقا أمام توبى أو تتداخل بأى شكل فى اقتفائه لأثر الفانيليا • ولو فكر البروفسور موريارتى فى القيام برحلة حول العالم فان ذلك الكلب كان سيقتفى أثره حتى آخر الدنيا •

وقادنا الكلب الى موقف العربات خارج المحطة وتوقف ، وهو ينظر الينا نظرة ألم ترجو الصفح ، ولكنها تلومنا فى نفس الوقت باعتبارنا مسئولين بطريقة أو بأخرى عن ذلك المأزق الذى وصل اليه ولكن هولمز لم يضطرب •

ـ وقال : « يبدو أنه استقل عربة من هنا والآن اصغ الى يا واطسون فى انجلترا تعود العربات التى توصل المسافرين الى موقعها بعد توصيل الراكب ، فلنر اذا كان توبى يمكنه أن يجد شيئا فى تلك العربة » •

ولكن الكلب لم يجد شيئا يستحق اهتمامه • وجلس هولمز بجوار حقائبنا على احدى الدكك الواقعة بقرب المدخل وهو يفكر فى صمت « هناك عدة احتمالات تخطر ببالى ولكن أبسطها هو أن نجلس هنا ونترك توبى يفحص كل عربة تصل الى الموقف » •

ثم نظر الى قائلا : « هل أنت جائع ؟ » •

فأجبته : « لقد تناولت افطارى فى القطار بينما أنت نائم » •

ـ فنهض من مقعده وسلمني مقـود توبى : « حســـنا سأتناول قدحا من الشاى ، وسأكون فى البوفيه ، فقد يحالفنا الحظ » ٠

انطلق الى غايتــه وعدت انا الى العربات وبدت علـــى الســائقين علامات الاستغراب لســلوكى فكلما وصلت عربه جديدة واخذت موقفها فى طابور الانتظار سرت أنا وتوبى تجاهها وساعدته على آن يشب على قدميه ويشم رائحتها ٠ وآخذ بعض السائقين يتسلون بهذه المظاهرة التى اقوم بها بينما اعترض أحدهم بشدة وكان وجهه سمينا أحمر اللون يشبه الجزر ، واســتطعت أنا رغم آن لغتى الالمانيــة كانت لا تزيد عن لغة طلاب المدارس آن ادرك قلقه فقد كان يخشى ان يبرز الكلب (توبى) فى العربة ٠ وقد بدت من توبى فى احــدى المرات علائم الرغبــة فى ذلك الا آننى تداركت الامر وسحبته بعيدا عن العربة ٠

ومضت نصف ساعة بهذه الطريقة وقبل آن تنتهى ظهر هولمز وهو يحمل حقيبتينا ووقف يراقب الموقف ٠ ولم تكن بنا حاجة الى الكلام ، وبعد فترة وجيزة اقترب منى وهــو يتنهد وقال : «لن تنفع الحكاية يا واطسون ولنذهبالى فندق وساحاول اجراء ترتيبات أخرى لا تبتئس يا صديقى » ٠ فقلت له لابد آن هناك احتمالات أخرى ٠ ونادينا على عربة ٠ وكانت آخر العربات التى تصل الى الموقف ، وكنا على وشك ركوبهــا عندما صاح (توبى) صيحات الفرح وهو يهز ذيله بشدة ٠ ونظرنا أنا وهولمز الى بعضنا البعض فى دهشــة ثم انفجرنا ضاحكين ٠

« من تأنى نال ما تمنى يا عزيزى واطسون » وتحــول الى سائق العربة ٠ وكانت لغة هولمز الألمانية أفضل من لغتى ولكن بدرجة بسيطة ٠ لقد كان يحفظ بالطبع نصوصا من جوته وشيللر ــ منذ أيام الدراسة ولا نفع لها الآن ــ الا آن معــرفته بمعظم اللغات ٠ فيما عــدا الفرنســية التى كان

يتقنها) قاصرة على مفردات تتعلق بالجريمة • فكان يعرف ألفاظا مثل « جريمة » ، « قتل » ، « سرقة » ، « تزوير » ، « انتقام » وما الى ذلك فى مختلف اللغات بالاضافة الى بعض الجمل المتعلقة بهذه الأمور ، ولكن لا شيء بعد ذلك • وبدا عليه الضياع وهو يتحدث الى سائق العربة محاولا وصف موريارتى ، وكان السائق مهذبا خاصة بعد أن منحه هولمز بعض النقود • وكان هولمز قد اشترى دليلا للغة الألمانية من احدى المنصات بجوار المقهى وراح يتصفحه عبثا لاستخراج الكلمات المناسبة • ولم تؤد جهوده الى نتيجة • وتقدم سائق آخر ممن كانوا جالسين يشاهدون حركاتى مع توبى قائلا أنه يعرف بعض الانجليزية ويمكنه المساعدة •

غمغم هولمز : « شكرا للسماء •• ان أقصى ما يوجد فى هذا الدليل هو « الجو جميل أليس كذلك ؟ » ووضع دليل اللغة الألمانية فى جيبه وتحول الى المترجم : « قل له أننا نريد منه أن يحملنا الى المكان الذى سبق أن حمل اليه راكبا آخر خلال الساعات القليلة الماضية » وأخذ يصف موريارتى وصفا تفصيليا • ونقل صاحبنا تلك الأوصاف الى السائق الآخر ، ولم يكد يمضى فى حديثه حتى أشرق وجه السائق وصاح : « آه نعم » وأشار لنا بالصعود الى المركبة •

وما أن جلسنا فى المركبة حتى قرقع بسوطه ، وانطلق بنا خلال الشوارع المزدحمة لمدينة يوهان شتراوس ــ أو مترنيخ ، كل حسب تداعياته ــ ولم تكن لدى أية فكرة عن أين نحن أو الى أين نتجه ، فلم أذهب الى فيينا من قبل • ومررنا بميادين جميلة وتماثيل فخمة وأخذنا ننظر من النافذة الى أهل تلك المدينة المثيرين للاعجاب ، بينما هم لا يدرون بنا ولا بنظراتنا المتطلعة ويمضون فى حال سبيلهم •

استخدمت كلمة « نحن » فى وصف حالنا فى العبارة السابقة ، ولكنها فى الواقع لا تعبر الا عن ثلثى الحقيقة ، فقد كان الذى ينظر من النافذة هو توبى وأنا فقط ، أما هولمز فكان كشأنه فى تلك المناسبات ، لا يعير المناظر الطبيعية أى اهتمام مهما كان جمالها ورشاقتها ، واكتفى بملاحظة أسماء الشوارع التى نمر بها وأشعل غليونه واستند الى وسائد العربة وقد انشغل عقله بما نحن مقبلون عليه ·

وانتبه عقلى فجأة ، اذ تذكرت أنا أيضا ما نحن مقبلون عليه · فبعد لحظات قليلة ــ اذا سار كل شىء على ما يرام ــ سنقف أنا وهولمز وجها لوجه مع الطبيب الذى اعتمد عليه اعتمادا كليا فى شفاء هولمز · ترى ماذا ستكون استجابة هولمز ؟ هل سيتعاون ؟ بل هل سيعترف بما يعانيه ؟ هل سيقر بالجميل أم سيثور غاضبا لتدخلنا فى شئونه ؟ وكيف سينظر الى استخدامنا للحيلة فى استغفاله هو نفسه وسقيانه من نفس الكأس التى طالما سقاها لغيره ؟

واستبعدت تلك الأفكار الأخيرة من ذهنى حالما خطرت به · فلم أكن أعول على عرفانه بالجميل ، ولن أندهش اذا لم يعبر عن ذلك فى ظل تلك الظروف · كلا لقد كان أهم ما يشغلنى هو أن يشفى ويتعافى ، واذا حدث ذلك فلن يضيرنى أن أتحمل أى توبيخ أو ملام ·

وتوقفت المركبة أمام بناية صغيرة ولكنها جذابة المنظر فى شارع جانبى لا يبعد الا عدة أمتار عن الشارع العمومى · وفاتنى فى غمرة انشغالى أن ألحظ اسم الشارع · وأشار لنا السائق بكل ما استطاعه من حركات أن هذا هو المنزل الذى حمل اليه الراكب الذى سألناه عنه ·

ونزلنا من العربة ونقد هولمز السائق أجره بعد شىء من الجدل ، قائلا : «الاحتمال الأكبر أننا دفعنا أكثر مما ينبغى ولكن المسألة تستحق» وضحك بينما انصرف السائق الى حال

سبيله · وتحولنا الى المنزل وقرع هـولمز الجرس ولاحظت ـ بارتياح ـ وجود لافتة صغيرة تحمـل اسم الرجـل الذى أتينا لرؤيته ·

بعد لحظة فتحت لنا الباب خادمة جميلة ، ولكنها جفلت عـدما لاحظت وجود ذلك الـكلب الغريب المنظر معنـا · وأخبرها شرلوك هولمز بهويتنا ، فأجابت بابتسـامة ودعتنا للدخول بلغة انجليزية « مكسرة » ·

وانحنينا وتبعناها الى الداخل ، وجدنا أنفسنا فى بهـو صغير ولكنه أنيق ذو أرضية رخامية بيضاء · كان المنزل اشبه بكعـكة (فينواز) شـوكولاتة مغطاة بكل أفانين حلـويات وزخارف درسدن وعلى أحد الجانبين سلم صغير ذو درابزين أسود يؤدى الى بلكونة ظريفة المنظر تحيط بالبهو فى شـكل نصف دائرة فوق رؤوسنا ·

ـ « تقدما من فضلكما » وأشارت الخادمة الينا كى نتبعها وهى مازالت تبتسم · أدخلتنا الى مكتبة مكتظة يطل بابهـا على الردهة · وبعد ما جلسنا عرضت علينا أن تأخذ توبى لتوفر له شيئا من الطعام · ولكن هولمز رفض ذلك على الفور، برسمية وبرود ، ونظر الى نظرة ذات معنى من خلف الفتـاة وكأنه يقول «أى طعام نتوقعه لبطلنا توبى تحت هذا السقف » ولـكننى قلت ان البروفيسـور لن يجرؤ عـلى القيـام بحيلة متهورة كهذه ·

« حسنا ربما كنت على حق » وأخذ يقلب الأمر فى رأسه وهو يبتسم فى برود الى الخادمة المبتسمة والتى ظلت واقفة فى انتظار قرارنا · واستطعت أن ألاحظ أن علائم التعب قد بدأت تظهر عليه مرة أخرى وأنه فى حاجة الى « حقنة » وشكرت الخادمة وأسلمتها مقود توبى ·

ـ « والآن يا واطسون ·· ماذا يعنى كل هذا ؟ » وجه هولمز الى السؤال بعد أن انصرفت الفتاة ·

ــ «بصراحة لا أفهم شيئا ومن قال لا أدرى فقد أفتى» ·
وتركت له حرية تفسير الموقف بطريقته ·

ــ « ومع ذلك فالأمر واضح بما فيه الكفاية » ثم صحح نفسه « ولكنه شيطانى بدرجة مفزعة » وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يتصفح الكتب الموجــودة عــلى الرفوف · والتى رغم أنها كانت بالألمانية فقد كان من الواضح أنها ذات طبيعة طبية ــ على الأقل فى الجانب الذى كنت أشاهده ·

وكنت على وشك أن أسأل هولمز عما يعنيــه بملاحظتــه تلك ، عندما فتح الباب ودخل الى الغرفة رجل ملتح، متوسط الطــــول ذو كتفين مائلتين الى الأمام وقدرت أنه فى بداية الأربعينات من عمره ــ وقد علمت فيما بعد أنه فى الخامسة والثلاثين · ومن خلال ابتســامته الضئيلة رأيت تعبيرا عن حزن لا نهاية له ، مقترنا ــ كما بدا لى ــ بحــكمة بالغــة · وكانت عيناه أبرز شىء فى ملامح وجهه ، لم تكونا واسعتين بشكل خاص بل كانتا داكنتين وغائرتين تظللهما جبهة بارزة وفيهما نظرة شديدة النفاذ · وكان يرتدى حلة غامقة وتبدو من تحتها سلسلة ذهبية مشبوكة فى صداره ·

ــ « صباح الخير يا هولمز » قالها بلكنة واضحة ولــكن بانجليزية سليمة ·

ــ « لقد كنت أتوقع مجيئك وأنا مسرور لحضــورك » وأضاف ملتفتا الى وعلى وجه ابتســامة مشــجعة ومد يده مصافحا : « ومسرور لحضورك أيضا يا دكتور واطسون » · أما أنا فكنت أنظر الى هولمز وعيناى لا تبرحان وجهه ·

ــ « تستطيع أن تزيل تلك اللحية المضحكة » قالها هولمز بذلك الصوت المرتفع الذى سمعته منه يوم اندفع داخلا الى

منزلى بشكل ميلودرامى ، ثم سمعته فى اليوم التالى عنـدما زرته فى منزله « ومن فضلك توقف عن استعمال تلك اللكنة السخيفة التى تشبه الأوبرا كوميك » . « ألا تدرك بأنه ان لم تعترف فسوف تواجه موقفا صعبا . لقـد انتهت اللعبـة يا بروفسور موريارتى » واستدار مضيفنا ببطء موجهـا اليه تلك النظرة النفاذة وقال بصوت ناعم : « ان اسمى هو سيجموند فرويد » .

الفصل السابع

تجربتـــــان

انقضت فترة طويلة من الصمت ، أدى شيء فى سـلوك الطبيب بهولمز الى أن يتوقف متمعنا . ومع أنه كان مهتاجا ، الا أنه سيطر على نفسه بمجهود واضح ، واقترب من الطبيب، الذى كان قد استقر بهدوء على مقعد خلف مكتبه «المكركب»، وأخذ ينظر اليه بثبات لعدة لحظات ثم أطلق تنهيدة وقال : « لا لست البروفسور موريارتي .. ولكن لقد كان موريارتى هنا فأين هو الآن » .. ؟

أجاب الآخر وهو مازال محتفظا بجلسته : «فى فندق على ما أعتقد» : تلقى هولمز الصدمة ، واستدار وجلس على مقعد، بينما علت وجهه تعبيرات عن الهزيمة لا يمكن وصفها .

وتحول الى وقال : « وماذا بعد يا يهوذا الاسخريوطى هنيئا لك تسليمى الى الأعداء ، أرجو أن يجزلوا لك العطاء مقابل ما تكبدته من مشاق لأجلهم » . كان يتكلم بلهجة فاترة ذات عزم وتصميم ، بحيث كادت تقنعنى لولا أننى أعلم علم اليقين أنه كان مخطئا .

واحمر وجهى غضبا للصـفة التى ألصقها بى وصـحت فيه : « هذا لا يليق يا هولمز » .

ـ « لا تقلب الآية يا واطســـون ، ومع ذلك فلا داعى للشجار لقد تعرفت على آثار أقدامك خارج منزل البروفسور وعندما رأيت حقيبة السفر التى حملتها أدركت انك تعرف اننا ذاهبون فى رحلة ٠

كما علمت من حجم ما حملته من أشياء انك كنت تعرف مقدما الوقت الذى ستستغرقه الرحلة ٠ انك قد استعددت لرحلة طويلة هى تلك التى قطعناها بالضبط ٠ وكل ما أريد معرفته الآن هــو أن تخبرنى بخطتك بعـــد أن وقعت فى قبضتك » ٠

ـ وتدخل سيجموند فرويد بهدوء قائلا : « لو سمحت لى بكلمة ، أعتقد أنك تخطىء فى حق صــديقك خطأ كبيرا ٠ انه لم يحضرك الى قاصدا ايقاع أى أذى بك » ٠

كان فرويد يتحدث بيسر واطمئنان وثقة رغم انه كان يتحدث بلسان أجنبى ٠ فعاد هولمز الى تركيز انتباهه عليـــه واستطرد فرويد قائلا : «أما بالنسبة للبروفسور موريارتى فقد دفع له أخوك والدكتور واطسون مبلغا كبيرا من المـــال ليقطع هذه الرحلة على أمل انك ستتبعه حتى باب منزلى » ٠

ـ « ولماذا يفعلان ذلك ؟ » ٠

ـ « لأنهما اعتقدا أن هذه هى الوسيلة الوحيـــدة التى تجبرك على رؤيتى » ٠

ـ « ولماذا كانا يتلهفان على ذلك ؟ » ٠

وأدركت أن هولمز كان مضطربا ولكنه كان يخفى ذلك الاضـــطراب فلم يكن بالرجـــل الذى يقـــع فى نفس الخطأ مرتين ٠

ـ وواجهـه الطبيب قائلا : ترى ماذا يخطر ببالك من أسباب ؟

على أى الأحوال لقد قرأت الحالات التى نشرتها ، كمـا رأيت لتوى لمحة من مواهبك المدهشة . والآن فلتقل لى من أنا ولماذا تلهف صديقاك على أن تقابلنى ؟ » .

ونظر اليه هولمز ببرود .

ـ لا أستطيع أن أخبرك بشىء زيادة على الحقائق التالية ، فأنت طبيب يهودى لامع ولد فى المجر ودرس لبعض الوقت فى باريس ، وقد أبعدتك بعض نظرياتك الراديكاليـة عن الوســط الطبى بحيث دفعتـك الى قطـع علاقاتك بمختلف المستشفيات والجمعيات الطبية اضافة الى انك قد توقفت عن ممارسة الطب ونتيجة لذلك لا أستطيع أن أستنتج شيئا آخر .

أنت متزوج وتقـدر قيمة الشرف وتحب لعب الـورق وقراءة شكسبير ومؤلف روسى آخر يصعب على نطق اسـمه ؛ ولا أرى مزيدا يمكن اضافته الى ذلك .

ـ وحملق فرويد فى هولمز وهو فى شدة الذهول ثم ، فجأة أشرقت ابتسامة على وجهه كانت مفاجأة لى اذ كانت أشبه بتعبير طفلى من الدهشة والاستمتاع .

ـ وصاح « هذا شىء مدهش ! » .

ـ أجابه هولمز : «هذا أمر عادى، ومازلت أنتظر تفسيرا لهذه الخدعة الماكرة التى لا تطاق ، هذا اذا كانت خدعة على الاطلاق . ويستطيع الدكتور واطسون هنا أن يخبرك انه

من الخطورة بمكان أن أترك لندن لفترة طويلة من الوقت اذ أن ذلك سيخلق لدى فئات المجرمين نوعا من النشاط الضار عندما يكتشفون غيابى ·

ـ وأجابه فرويد وهو لا يزال مبتسما من الاعجاب : « ومع ذلك أنا فى شدة الشوق لمعرفة كيف تمكنت من تخمين تفاصيل حياتى بمثل هذه الدقة الرائعة » ·

ـ وصححه هولمز قائلا: « أنا لا أخمن قط فالتخمين عادة كريهة مدمرة للمنطق » ·

ونهض من مقعده ولمحت فى كلامه بداية ذوبان الثلوج رغم أنه حاول ألا يظهر ذلك · فقد كان هولمز شديد الغرور والاعجاب بنفسه كفتاة صغيرة عندما يتعلق الأمر بمواهبه ولم يكن هناك شىء من شبه النفاق أو المن فى اعجاب الطبيب النمساوى ، بدا على هولمز انه مستعد أن ينسى الخطر الذى يفترض انه متعرض له وأن يستمتع حتى الثمالة بآخر دقيقة ·

« ان المكتب الخاص هو مكان مثالى لملاحظة جوانب طبع الانسان » هكذا بدأ هولمز حديثه بلهجة أليفة ذكرتنى بأستاذ التشريح وهو يشرح دخائل وتفاصيل الهيكل العظمى أمام طلبته ، « هذا المكتب يخصك انت تماما هذا واضح من الغبار فحتى الخادم لا يسمح لها بالدخول والا ما كانت تترك الأمور تصل الى هذا الوضع » ومر بأصابعه على كعوب بعض الكتب المجاورة له مبينا أثر التراب على اصبعيه ، وبدت على فرويد علائم الاغتباط وهو يقول : «استمر أرجوك» ·

ـ « حسن ، عندما يهتم شخص بالديانات ويمتلك مكتبة عامرة ، فانه عادة مايحتفظ بكل الكتب التى تتناول موضوعا بعينه فى مكان واحد ومع ذلك فان القرآن والانجيل وكتاب المورمون وغير ذلك من الكتب المشابهة توجد متفرقة وبعيدة فى الواقع عن النسخة المجلدة الفاخرة من التلمود والانجيل العبرى • وعلى هذا فان هذين الكتابين لا يدخلان ضمن دراساتك فحسب وانما يحتلان مكانة خاصة ، وما دلالة ذلك ؟ الا أن تكون أنت من أتباع الديانة اليهودية • ويؤكد ذلك الاستنتاج الشمعدان التساعى على مكتبك ، انهم يسمونه المنارة •• أليس كذلك ؟ » •

« اما دراستك فى فرنسا فقد استنتجتها من العدد الكبير من الكتب الطبية الفرنسية بما فى ذلك عدد من الكتب من تاليف من يدعى شاركوه • والطب ، كما تعلم ، موضوع معقد ولا يدرسه الانسان فى لغة أخرى لمجرد المتعة • أضف الى ذلك أن مظهر هذه الكتب يدل بوضوح على انك قضيت ساعات طويلة فى تصفحها • وأين يمكن لطالب ألمانى أن يقرأ كتبا طبية بالفرنسية الا فى فرنسا ؟ واذا مضيت فى استنتاجاتى بعيدا فان مظهر كتب شاركوه بال من كثرة الاستعمال (ويبدو اسمه مألوفا لدى) مما يجعلنى أخاطر بالقول انه كان مدرسك أو أن كتاباته لها جاذبية خاصة لديك وأعتقد أن لها صلة بتطوير أو نمو أفكارك أنت ويمكن التسليم بأنه لا يستطيع الا عقل فذ أن يجوس خلال ألغاز الطب فى لغة أجنبية هذا اذا غضضنا الطرف عن الاهتمام بموضوعات متنوعة أراها متمثلة فى الكتب التى تمتلىء بها هذه المكتبة » •

وأخذ يجول فى أنحاء الغرفة كما لو كانت مختبرا لا يلقى الينا بالا بينما هو يتابع محاضرته •

وكان فرويد يلاحقه بنظراته بينما دس أصابعه فى صديريته دون أن يكف عن الابتسام •

ــ « أما انك قارىء لسكسبير فقد استدللت عليه من واقع أن الكتاب قد وضع على الرف مقلوبا بحيث يستحيل عليك أن تخطئه في وسط هذا الكم من الأدب الانجليزى . الا أن وضعه مقلوبا يجعلنى أظن انك تنوى بلا شك أن تعود اليه في القريب العاجل مما أدى بى الى الاعتقاد انك مغرم بقراءته . أما بالنسبة للكاتب الروسى .. ــ وقاطعه فرويد « دستيوفسكى » نعم دوستيوفسكى ــ ان عدم وجود الغبار على كتبه ــ وبالمناسبة لا يوجد غبار أيضا على كتب شكسبير ــ يفصح عن اهتمامك المستمر به . أما انك طبيب فهذا واضح لى من شهادة بكالوريوس الطب المعلقة على ذلك الحائط . أما انك لا تمارس الطب فهذا واضح لى أيضا لوجودك فى المنزل فى منتصف النهار دون أن يبدو عليك القلق بشأن مواعيدك . وقد وضح لى ابتعادك عن مختلف الجمعيات الطبية من وجود فراغات بين الأشياء المعلقة على الحائط والتى لا شك انها كانت مخصصة لشهادات أخرى ويبدو دهان الحائط فى هذه الأماكن باهتا كما يشير اطار من الغبار الى الأمكنة التى كانت تلك الشهادات معلقة فيها . والآن ما الذى يجبر رجلا على ازالة مثل تلك الشهادات الدالة على نجاحه ؟ ولماذا توقف عن أن يربط نفسه بهذه الجمعيات والمستشفيات فقط . ولماذا يفعل ذلك بعد أن سعى لينضم اليها ؟ يحتمل أن واحدة أو اثنتين منها قد خيبت ظنك ولكن ليس كلها وفى نفس الوقت ولذلك فقد استنتجت أن تلك الجمعيات والهيئات هى التى لم تعد ترضى بك يا دكتور وطلبت منك أن تستقيل من عضويتها . ولماذا يفعلون ذلك فمازلت تعيش فى نفس المدينة التى حدث فيها كل ذلك ؟ وهكذا فان موقفا اتخذته ــ ومن الواضح انه موقف مهنى ــ قد أسقطك من أعينهم وبالتالى فقد طلبوا منك جميعا أن تتركهم . ترى ما هو هذا الموقف ؟ ليست لدى أية فكرة ولكن مكتبتك ، كما سبق أن لاحظت ، تدل على عقلية بعيدة المدى متطلعة وثاقبة . ولذلك فقد أبحث لنفسي أن

افترض انك آتيت بنظرية راديكالية ، آكثر تقدما ، أو صادمة بحيث لا تتقبلها عقلية الدوائر الطبية المعاصرة بسهولة • وربما تتعلق تلك النظرية بأعمال السيد شاركوه والذى يبدو ان له تأثيرا كبيرا عليك • غير أن هذا أمر غير مؤكد أما الشيء المؤكد فهو انك متزوج كما هو واضح من الخاتم الموجود فى يدك اليسرى ، كما أن لكنتك البلقانية تشير الى المجر أو مورافيا • ولا أعتقد اننى قد أغفلت أى شيء مهم فيما أدليت به » •

ــ فقال فرويد : « لقد قلت ان للشرف عندى منزلة كبيرة » ، فأجابه هولمز « انى آمل فى ذلك فقد استنتجته من حقيقة انك كلفت نفسك عناء ازالة تلك الشهادات التى أصدرتها تلك الجمعيات التى توقفت عن الاعتراف بك • وقد كان من الممكن أن تبقيها داخل حجرتك الخصوصية ومنزلك الخاص لتستفيد منها ولكنك أبيت ذلك » •

ــ « وماذا عن حبى للعب الورق ؟ » •

ــ « آه هذه نقطة تحتاج الى مهارة شديدة ولكننى لن أقلل من شأن ذكائك بأن أصف لك كيف وصلت اليهما • ولكننى أحب أن أتوجه اليك بكل صراحة وأسألك أن تخبرنى عما أتى بى اليك • أعتقد أننى لم آت الى هنا لأعرض براعتى فى الاستنتاج » •

وأجابه فرويد ولا تزال الابتسامة على شفتيه والاعجاب بهولمز مرسوما على وجهه : « لقد سبق أن سألتك ما هى فى رأيك الأسباب التى أدت الى الاحتيال عليك واحضارك الى هنا » •

ــ وأجابه هولمز وفى صوته نوع من الحدة : « ليست لدى أية فكرة ، فاذا كنت واقعا فى مشكلة فأخبرنى وسأفعل

كل ما فى جهدى لمساعدتك ، ولكن ما الذى يجعلك تتكلف كل هذا العناء لتأتى بى اليك بهذه الطريقة ..

ـ وقاطعه الطبيب قائلا بلطف : « الآن أنت الذىأصبحت غير منطقى . فكما استنتجت ، باقتدار لست أعانى من مشكلة بعينها اللهم الا تلك المشكلة الهينة التى أشرت اليها » وأومأ بهزة بسيطة من رأسه الكبيرة فى اتجاه الشهادات المنزوعة : « وكما أشرت أنت فان الطريقة التى اتبعت لاحضارك الى هنا لم تكن تقليدية الى أبعد درجة . ومن الواضح اذن أننا لم نكن نعتقد أنك كنت ستأتى الى هنا طواعية . ألا يوحى هذا بشىء اليك ؟ » .

ـ وأجاب هولمز رغما عنه : « اننى لم أكن أرغب فى المجىء » .

ـ « بالضبط . ولماذا ؟ لن يكون ذلك بسبب انك تخشى أن نؤذيك ـ قد أكون أنا عدوك وقد يكون البروفسور موريارتى كذلك بل وحتى الدكتور واطسون ولكن هل من المحتمل أن ينضم أخوك الى صفنا ؟ هل من المحتمل أن نكون كلنا عصبة ضدك ؟ ولماذا ؟ فاذا لم نكن ننوى بك شرا فربما ننوى بك خيرا ، هل فكرت فى ذلك ؟ » .

ـ « وما هو ذلك الخير يا ترى ؟ » .

ـ « ألا تستطيع أن تخمن ؟ » .

ـ « أنا لا أخمن قط ولكنى لا أستطيع أن أفكر فى السبب » .

ـ واضطجع فرويد فى كرسيه وقال : « لا تستطيع ؟ اذن فأنت لم تصل الى مستوى الصراحة المطلوب ، انت ياهر

هولمز تعانى من ادمان فظيع وقد اتهمت أصدقاءك بالوقوع فى الخطأ وهم الذين تكاتفت جهودهم لمساعدتك على التخلص من هذا البلاء بدلا من أن تعترف بأنك مذنب . لقد خيبت ظنى فيك يا سيدى أهذا هو هولمز الذى قرأت عنه ؟ الرجل الذى أعجبت به لا بسبب ذكائه الفذ فحسب وانما لفروسيته النبيلة وحبه للعدل واحساسه بمعاناة المظلومين ؟ أنا لا أصدق انك قد استسلمت لسلطان هذا المخدر وانك فى أعماق نفسك لا تعترف بالمشكلة التى تعانيها بالاضافة الى نفاقك فى ادانة هؤلاء الأصدقاء العظام الذين لم يدفعهم الا حبهم لك واهتمامهم بأمرك ليتكلفوا مثل هذا العناء فى معاونتك » .

ـ حبست أنفاسى فى رهبة فلم أسمع قط طيلة حياتى مع شرلوك هولمز شخصا يخاطبه بتلك الطريقة وخشيت للحظة أن ينفجر غضبه بعنف ولكنى لم أقدره حق قدره أما سيجموند فرويد فقد أبصر معدنه .

وران الصمت مرة أخرى لفترة طويلة . وجلس هولمز ساكنا وقد أحنى رأسه ولم يرفع الطبيب عينيه عنه وساد الغرفة سكون كسكون الموت .

وأخيرا تكلم هولمز . بصوت خافت يكاد لا يسمع :

ـ « نعم أنا مذنب ، ولا أدعى أعذارا . أما بالنسبه للمساعدة فيجب أن تنزعوها من رءوسكم تماما . لقد وقعت فى قبضة هذا المرض اللعين ولسوف تقضى على . ولا تحاولوا ادخال الطمأنينة الى نفسى يجب ألا تفعلوا ذلك . لقد استخدمت كل ما لدى من ارادة وعزم للقضاء على تلك العادة ولم أستطع أن أفعل حيالها شيئا . واذا كنت أنا ، بكل عزمى وتصميمى ، لم أنجح فهل ستكون لديكم أنتم الفرصة ؟ ان المرء ما أن يضع قدمه على هذا الطريق ويخطو تلك الخطوة

الخاطئة فانه لن يستطيع أن يحول نفسه عن ذلك المجرى المؤدى الى دماره ؟ » ٠

ـ وأدركت ، وأنا جالس في ركن الغرفة أن فمى كان مفتوحا من الدهشة وان صدرى كان ينتفض من الانفعال ٠ وتكهرب الجو ولم أجرؤ على التدخل الا أن الدكتور فرويد قطع الصمت ٠

ـ قال فرويد وهو يميل الى الأمام بجدية شديدة ٠ وقد لمعت عيناه :

« ان قدميك لم توضعا على هذا الطريق بطريقة لا رجعة فيها » ٠ فالمرء يستطيع أن يستدير راجعا ويترك طريق الدمار صحيح انه سيحتاج لبعض المساعدة ولكن طريق الموت هذا يمكن الرجوع عنه ٠

ـ وقال هولمز بصوت يائس مخنوق الأنين بحيث مزق نياط قلبى :

« كلا ان هذا الطريق محتوم فلم يفعل أحد قط ما تقول به » ٠

وقال فرويد :

ـ « لقد فعلت أنا ذلك » ٠

ـ « أنت ؟ »

وأومأ فرويد برأسه : «لقد تعاطيت الكوكايين وتخلصت منه ، واذا سمحت لى فلسوف أساعدك على أن تتخلص منه أيضا » ٠

ـ وصاح هولمز بصوت متقطع : « لا أظن أنك تستطيع ذلك » ورغم احتجاجه وعدم اقتناعه الا أن نغمة صوته أخبرتنى كم يأمل فى ذلك ٠

ــ بلى « أستطيع » ٠

ــ « كيف ؟ » ٠

ــ « سيستغرق ذلك وقتا » ٠ ونهض واقفا ٠ « وخلال تلك الفترة لقد رتبت لكما أن تعيشا فى منزلى كضيوف هل يناسبكما ذلك ؟ » ٠

ــ ونهض هولمز بشكل أوتوماتيكى وخطا الى الأمام ولكنه فجأة دار حول نفسه وطرق جبينه بيده وصاح : « لا فائدة اننى أشعر الآن بهزيمتى أمام ذلك الالحاح القهرى » ٠

ــ ونهضت من مقعدى وأنا أفكر فى محاولة التسرية عنه بعبارات التشجيع ولكنى توقفت مدركا عبث ما سأقوم به ٠

ودار فرويد ببطء حول مكتبه ووضع يده الصغيرة بلطف على كتف صديقى وقال: «سنستطيعايقاف هذا الشعور القهرى ولو لفترة اجلس من فضلك » واشار الى الكرسى الذى كان هولمز قد نهض منه لتوه بينما جلس هو على حافة المكتب ٠ وأطاع هولمز فى سكون وجلس منتظرا وقد بانت عليه علائم التشاؤم والتعاسة ٠

وسأله فرويد : «هل تعرف شيئا عن التنويم ؟» وأجابه هولمز بملل : « هل ستجعلنى أنبح كالكلب أو أزحف على يدى وركبتى ؟ » ٠

ــ«اذا تعاونت معى ووثقت بى سأستطيع تخفيض درجة الاشتياق للمخدر عندك لفترة ٠ وعندما تظهر عليك مرة أخرى علامات الاشتياق فسوف أنومك مرة أخرى وبهذه الطريقة المفتعلة ستنخفض درجة الادمان لديك ونترك

لكيمياء جسمك اكمال المهمة » ، وكان فرويد يتــكلم ببطء وهو يبذل جهده للسيطرة على الهلع والفزع الذى بدأ يظهر على هولمز ٠

وتفحصه هولمز لفترة من الوقت بعد أن فرغ من حديثه ثم هز كتفيه مستسلما فى كبرياء ٠ وحبس الدكتور فرويد تنهيدة الارتياح فى صدره ، وكما بدا لى تحرك نحو النافذة وأسدل الستائر مغرقا الحجرة فى شبه ظلام ٠

وتحول الى هولمز وأتى بمقعد وضعه قبالته ، وقال له : « الآن انظر بعينين ثابتتين في هـــذه » وأخــرج من جيب صداره ساعة مدلاة من سلسلة وأخذ يحركها ببطء الى الأمام والى الخلف أمام عينيه ٠

الفصل الثامن

اجازة فى الجحيم

كانت معارضة البروفسور موريارتى ونفوره فى البداية من أن يأخذ توبى معه ويعود به الى لندن نوعا من الموقف الكوميدى الذى يسرى عن النفس فى نهاية أسبوع مزعج • فقد ألقى نظرة واحدة على الكلب عندما أحضرته اليه فى فندقه ذلك اليوم ـ وأعلن انه رغم أنه رجل طيب (كما وضح من موافقته على السفر الى فيينا) ولكن هناك حدودا لكل شيء وان كرمه يستحيل أن يصل الى ذلك الحد •

ـ وقال وهو ينظر من فوق عويناته الى توبى ، الذى بادله النظرات معبرا عن رغبته وحماسه بطريقته الخاصة : « هذا يتعدى طاقتى أنا رجل صبور يائس صحيح ولكن صبور فقط يا دكتور واطسون • فلم أفتح فمى بكلمة بشأن خلاصة الفانيليا التى أفسدت زوجا جديدا من الأحذية ؟ ألم يحدث هذا ؟ ولكن هذا كثير ، أنا لن أنقل معى هذا الحيوان الى لندن ، كلا ثم كلا » •

ـ كنت فى حالة مزاجية لا تسمح لى بمناقشة توافه الأمور ، وأخبرته بذلك وأن أقصى ما يمكننى السماح به هو أن يضع توبى مع العفش ، أما اعادة الكلب الى شارع بينشن فهذا أمر محسوم • وأشرت الى ما سيقوله مايكروفت هولمز • وتراجع موريارتى وهو مازال يئن ووافق بألفاظ وغمغمات غير مفهومة •

وكنت متعاطفا مع شكواه ولكن لم يكن بوسعى قبولها٠ فقد كانت أعصابى قد وصلت الى درجة الانهيار ، وكان الشيء الوحيد الذى هدأ روعى وصول برقية من زوجتى تخبرنى بأن كل شيء على ما يرام ، ولكن كان هذا أقل من المطلوب بكثير ٠

ربما كانت محاولة شرلوك هولمز لكسر قيود الكوكايين، الذى كان قد غاص فى أوحاله ، أشق مجهود بطولى شاهدته فى حياتى ٠ فلا أتذكر سواء فى حياتى المهنية أو خبرتى الشخصية وسواء فى حياتى العسكرية أو المدنية أننى شاهدت شيئا يقارب العذاب والألم الذى شاهدته ٠

كان اليوم الأول للدكتور سيجموند فرويد ناجحا ٠ فقد تمكن من تنويم هولمز ووضعه فى سبات عميق فى احدى الغرف التى وضعها تحت تصرفنا فى الطابق الثانى من منزله ٠ وما أن رقد هولمز على السرير حتى جذبنى فرويد من كمى وأمرنى قائلا : « هيا بسرعة يجب أن نفتش أمتعته » ٠

وأومأت برأسى ، ولم تكن بى حاجة لأن أعرف ما الذى سنبحث عنه ٠ وبدأنا ، نحن الاثنين ، فى التنقيب فى الشنطة القماشية الحمراء الخاصة بهولمز وكذلك فى جيوب سترته ٠ وكان ذلك ضد مبادئى فلم يسبق لى قط أن انتهكت حرمة خصوصيات صديقى ٠ ولكن الهدف كان ساميا والرهان عاليا ، وقويت قلبى وأنا أقوم بتلك المهمة ٠

ولم نجد أية صعوبة فى اكتشاف قنينات الكوكايين ٠ لقد جلب هولمز معه الى فيينا كميات هائلة من المخدر ٠ وتعجبت وأنا أستخرجها من ثنايا حقيبته كيف لم أسمع رنينها وهى تحتك ببعضها أثناء الطريق ، ولكن هولمز كان قد احتاط لذلك بأن لفها فى الغطاء المخملى الاسود الذى

يستعمله عادة ليغطى به الكمان (الاستراديفاريوس) فى حقيبته • وكتمت المـا فى صـــدرى وأنا أرى كيف أساء استخدام ذلك القماش وتابعت اكتشاف القنينات واعطاءها للدكتــور فرويد الذى كان قد فرغ لتــوه من تفتيش دقيق لجيوب الملابس وعباءة السفر حيث اكتشــف بدوره قنينتين أخريين •

ــ وقال : « أعتقد أننا قد حصلنا على كل ما لديه » •

ــ فقلت: «لا تكن متأكدا هكذافنحن لا نتعامل معمريض عادى ؟ » • هز كتفيه وهو يراقبنى وأنا أنزع غطاء احدى القنينات وأبل اصبعى بالسائل الصافى الموجود بها وأذوقها بطرف لسانى •

ــ وصحت : « ماء » •

ــ « أيمكن هذا ؟ » • واختبر فرويد محتويات بقيــة الزجاجات ونظر الى فى دهشة بالغة بينما كان هولمز يتقلب فى فراشه خلفنا • « أين خبأها اذن ؟ » •

وأخذنا نقدح زناد أفكارنا ونحن متوجسان خشية أن يستيقظ النائم وتبــدأ مشــاكلنا الحقيقية • لقد كان من المؤكد أن تكون هنا فى مكان ما • وأفرغنا كامل محتــويات الحقيبة على السجادة الشرقية الفاخرة وفحصنا محتــوياتها القليلة التى جلبها هولمز معه من لندن • وفتشنا ملابســـه الداخلية فلم نجد شيئا كما فتشنا علب وأدوات التنكر التى يحملها معه فى العادة • ولم يتبق أمامنا الا بعض العملات الانجليزية • ومجموعة غلايينه المعتادة • فكان هناكالغليون الأسود المصنوع من خشب الورد والآخر المصنوع من الخزف والثالث الطويل المصنوع من خشب الـكرز وكانت كلهـــا معروفة لى ، ولم يكن بها مكان يمكن اخفاء شىء فيه • الا أن

كان هناك غليون لم آره من قبل كبير الحجم نوعا ما وعندما تناولته فوجئت بأن وزنه أثقل مما يوحى به شكله • فنزعت سدادته وقلبت فوهته فسقطت منها قنينة صغيرة •

ـ « الأن أدركت ما تعنيه ، ولكن أين البقية ؟ لا توجد غلايين أخرى» • ونظرنا الى بعضنا البعض وفى لحظة واحدة مددنا أيدينا الى جوف الحقيبة وكان فرويد اسبق منى فرفع الحقيبة بيده ليجس ثقلها وهو يهز رأسه • وناولها لى وهو يهمهم : «انها آثقل كثيرا» وطرقت بأصابعى على قاعها فصدر عنه صوت آجوف مكتوم • وصحت مندهشا « قاع مزيف » • وبدأت فى نزع القاع الخشبى وتبدى لنا تحته كنزالكوكايين حيث رفدت فوارير ملفوفه باوراق الصحف ومعهـا المحقن الذى لف بعناية فى قماش مخملى آحمر داخل صندوق صغير آسود ، ودون ان ننبس بكلمه استولينا عـلى الكنز بما فى ذلك قوارير الماء ، واعدنا القاع الخشبى الى ما كان عليـه وكذلك محتويات الحقيبة وخرجنا من الغرفة ، حيث قادنى فرويد الى حمام صغير فى الطابق الأول فأفرغنا كافةالمحتويات السائلة التى عثرنا عليها فى الحوض ووضع فرويد المحقن فى جيبه وصحبنى الى المطبخ ، حيث كانت الخادمة باولا التى أعطتنى مقود الكلب توبى وخرجت متجهـة الى الفندق الذى ينزل به موريارتى •

ولابد لى من وقفة هنا لأصف المدينة ، التى وجدت نفسى فيها والتى قدر لى أن أقضى بها بعض الوقت •

فينا عام ١٨٩١ ، كانت العاصـــمة الامبراطورية فى نهاية عصر ازدهار وكانت مختلفة تماما عن لندن فى نفس الفترة اختلاف البحر عن الصحراء • فكانت لندن عادة رطبة يلفها الضباب ، تتصاعد منها روائح كريهة ، ويقطنها على

الأغلب ناس يتكلمون لغة واحدة ، ولم يكن بهـا أى شـبه بمركز امبراطورية آل هابسبورج الآيل الى الزوال ٠

فبدلا من وجود لسان واحد ٠ كان المواطنون يتخاطبون بلغات متعددة مستمدة من كافة أرجاء المملكة النمساويه ـ الهنغارية ٠ ورغم أن هذه القوميات المتنوعة كانت تميل الى العيش فى أحياء خاصة بها الا أن المناطق متـداخلة ٠ ومن المعتاد أن ترى البـاعة المتجولين من السلوفاك ينادون عـلى مشغولاتهم اليدوية فى الأحياء الراقية ، بينما تسـير سريه من المشاة البوسنيين فى طريقها الى استعراض عسكرى، وباعة الليمون من مونت نيجرو (الجبل الأسود) وسنانى السكاكين من الصرب ، هذا الى جانب أهل التيرول ومورافيا وكرواتيا، واليهود والهنغاريين والمجريين البـوهيميين كل يسـعى لما جاء من جله ٠

أما المدينـة نفسـها فكانت تنمـو فى دوائر مركزها كاتدرائية سانت اسطيفان ٠ وفى هذا المركز توجـد أقدم (وأشيك) أحياء المدينة ٠ فيه شارع جارين اشد الشـوارع ازدحاما وامتلاء بالمقاهى والمحلات ، والى الشمال منـه يقع شارع برجاس الذى يقطن فى ١٩ منه الدكتور فرويد ٠ الى يسـاره تقع قصـور هوفبورج والمتـاحف ٠ والحـدائق الجميلة التى يعتنى بها أشد الاعتناء ٠ وخارج تلك الدائرة الداخلية ينتهى قلب المدينة ٠ أما الأسوار التى كانت تحيط بالمدينة للدفاع عن فيينا العصـور الوسـطى فقـد تهدمت وسقطت من زمن بعيد ، وامتدت المدينة الى ما بعدها بكثير٠ ولكن آثارها باقية فى شكل شـارع عريض يخترق المدينـة كلها وله فى كل منطقة اسم مختلف ولكنـه يعـرف عمـوما بالطريق الدائرى وينتهى عنـد نهر الدانوب شـمال شرق كاتدرائية اسطيفان ٠

وكانت المدينة ـ كما لاحظت ـ قد تخطت حدودالعصور

الوسطى بكثير ، المتمثلة فى الطـريق الدائـرى ، وفى عام ١٨٦١ كانت قد تخطت ايضا « جورتل » وهو شارع واسـع عريض آخر كانت أجزاء منه لا تزال تحت الاعداد عنـدما كنت هناك • وكان « الجورتل » يوازى بدرجة أو بأخـرى الطريق الدائرى ، وكانت نهايته الجنوبيـه الغربيـة تقـع تقريبا فى منتصف المسافة بين كاتدرائية سانت اسـطيفان وقصر شـونبرون ، قصر الامبراطورة ماريا تريزا المقـابل « الهابسبورجى » لفرساى •

والى شمال قصر شونبرون والى الشرق قليلا فى الزقاق الخامس عشر تقع « بابهوف » محطة السكك الحديدية ، التى نزلنا فيها انا وهولمز عند وصولنا الى فيينا • وتوجـد محطة اخرى اكبر واضخم الى الشمال الشرقى من المدينه فى الزقاق الثانى عبر نهر الدانوب وتقع فى وسط حى يقطنه اليهـود تسمى محطة ليوبولد (ليوبولد شتادت) • وفى هذا الحى تربى فرويد وهو صغير ــ كما أخبرنى ــ عنـدما سـكنه آل فرويد عند نزوحهم اول مرة الى المدينة •

أما المنزل الذى يقطنه فرويد حاليـا فهو اكثر ملاءمة من الناحية المهنية (لقد أخطا هولمز فى أحـد استنتاجاته ، اذ كان فرويد لايزال يمارس الطب) اذ كان قريبا من مستشفى كراكنهاوس ، أعظم مستشفى تعليمى فى فيينا ، والذى كان يعمل به من قبل ، اذ كان يعمل فى قسم الطب النفسى تحت رئاسة الدكتور ثيودور ماينرت ، والذى كان يكن له اعجابا شديدا •

وكان ماينرت ــ شأنه شأن فرويد ــ يهوديا ، ولم يكن هذا أمرا لافتا للنظر فى الدوائر الطبية فى فيينا ، والتى كانت ــ كما أخبرنى فرويد ــ مليئة باليهود • وبدا أنهـم يسيطرون على جانب كبير من الحياة الثقافية والعقلية فى المدينة • ولم أكن قد قابلت فى حيـاتى كثيرا من اليهـود

وبالتالى فلا أعرف الكثير عنهم ، الا أننى أستطيع القول بصراحه اننى لا احمل فى نفسى أى تحيز ضدهم ، ذلك التحيز الذى ينشأ عادة عن الجهل · ولم يكن فرويد ـ كما اكتشفت فيما بعد ـ شخصا ذكيا لماحا ومتقفا فحسب انما كان ايضا رجلا طيب القلب · وفيما يتعلق بى (رغم أنى كنت لا أوافق على بعض نظرياته التى وجدتها ـ صراحة ـ صادمة) كانت تلك الفضائل أكثر وزنا بكثير من عقيدته ، والتى كانت ـ بالمناسبة ـ موضع شك منه ·

اننى أدرك أننى قد شطحت بالقارىء وخرجت عن وصف المدينة · ولذلك لابد من العودة الى قصتى ، وعلى اية حال فأنا لم اعرف فيينا دفعة واحدة وانما على اجزاء ، اما عن الاماكن والاجزاء التى جذبت انتباهى خلال اقامتى فسوف نتطرق اليها فى حينها ·

بعد أن تركت توبى مع راعيه المتأفف ، انطلقت فى طريقى الى «الجارين » حيث توجد مقهى « جرين شتيدل » والتى كانت تحتل موقعا متميزا فى منتصف الشارع ، وكنت على موعد مع الدكتور فرويد ، فى حالة بقاء صديقى هولمز نائما ·

والحق أن وصف « جرين شتيدل » بالمقهى لا يفيها حقها أبدا لأنها لا تشبه بأية حال ما نعنيه نحن الانجليز بهذه الكلمة · فالمقاهى فى فيينا أقرب الى نوادى لندن ، اذ انها مركز التبادل الثقافى والعقلى ، حيث يمكن للمرء أن يقضى فيها يوما طيبا ولا يذوق رشفة من القهوة · وكانت « جرين شتيدل » تعج بمناضد البلياردو ومجالس الشطرنج ورفوف الصحف والكتب · أما « الجرسونات » فكانوا فى غاية الكفاءة يغيرون كل ساعة كوب الماء الموضوع أمامك على الطاولة سواء طلبت أو لم تطلب · وكانت المقاهى هى المكان الذى يلتقى فيه الرجال ليتبادلوا الحديث والأفكار أو ليقرؤوا أو

ينفردوا بأنفسهم كما كانت أيضا مكانا يزيد فيه وزن الانسان ، اذ أن قائمة الطعام كانت تشمل أفخم الفطائر والحلوى ويحتاج الأمر الى عزيمة قوية لمقاومة روائحها الزكية ٠

وكان فرويد موجودا فى « جرين شتيدل » عندما وصلت ــ ويزعم هذا المقهى بالمناسبة ، انه المؤسسة الثقافية الوحيدة من نوعها فى المدينة ــ وقادنى الخادم الى منضدته وقدم لى قدحا من البيرة واصغيت اليه فأخبرنى أن هولمز مازال نائما ، ولو أنه من الضرورى ألا نطيل المكوث ونذهب الى المنزل سريعا ٠ ولم تبد على أى منا الرغبة فى الدخول مباشرة الى القضايا والموضوعات المختلفة التى تحتاج الى حلول اذا كان لنا أن نصل الى شفاء هولمز ٠ وعندئذ أخبرنى فرويد بجزء من تاريخه ، وبالطبيعة الحالية لعمله ٠ ولقد كان الكوكايين موضوعا جانبيا بدرجة أو بأخرى ولا يرتبط مباشرة بأبحاثه الحالية ، لقد اهتم هو واثنان من الاطباء بهذا العقار عندما اكتشفوا فائدته الثمينة كمخدر فى عمليات جراحة العين ٠

وكان فرويد قد تدرب فى مجال علم الأمراض العصبى (النيوروبيولوجيا) وكانت لديه معرفة بالتشخيص الموضعى والمآل الكهربائى وهى مصطلحات لا قبل لممارس عام مثلى بها ٠

ــ وابتسم وقال : « نعم لقد قطعت شوطا طويلا ومررت بدروب متعرجة ابتداء من رسم الجهاز العصبى حتى وصلت الى ما أنا فيه الآن » ٠

ــ « أنت مغترب اذن » ٠

ــ هز كتفيه وقال : « الحقيقة انه لا يوجد وصف رسمى

لما أنا عليه الآن ، فكما استنتج الهر هولمز أنا مهتم بالحالات العصابية ، وهم يأتون الى فى معظم الأحـوال ، واذهب أنا أحيانا لرؤيتهم فى منازلهم • أما الى أين ستؤدى بى دراستى فهذا أمر لست متاكدا منه الا اننى قد حصلت الكثير من العلم بشأن مرضى الهستيريا الذين أدعوهم عصابيين » •

وكنت على وشك أن أسأله ماذا يعنى بهـذا المصـطلح الأخير وعما اذا كان استنتاج هولمز صحيحا بشأن ان بعض نظرياته لم ترق فى عيون الدوائر الطبيـة ، عنـدما توقف فجاة واقترح ان نعود الى المنزل لنرى مريضنا • وبينما كنا نشق طريقنا بين المناضـد وجمـاعات المتناقشـين فى الفن والادب اقترح على أن أصحبه فى احـدى جـولاته بحيث أرى الاشـخاص الذين يعـالجهم واعراضـهم بنفسى وقبلت بكل سرور وبدأنا السير خلال « الجارين » المزدحم وامتطينا عربه يجرها حصان وتجرى على قضبان مثل الترام •

وسألته بعـد أن جلسـنا : « هل تعرف طبيبـا انجليزيا اسمه كونان دويل ؟ » فضم شفتيه فى محاولة للتذكر • ثم سألنى بعد هنيهة « أكان من الضرورى أن أعرفه ؟ » •

ــ « ربما فقد درس لبعض الوقت فى فيينا وتخصص فى طب العيون مثل زميليك » •

ــ « كونجشتاين كولر ؟ » •

ــ أجل ربما تكون قد تعرفت عليه عندما كان يدرس هنـا » •

فقال باقتضاب : « ربما » ، ولم تحمل اجابته أى عرض من جانبه أن يسأل زميليه اذا كانا قد عرفا دويل • وربما كانا من بين زملائه الذين قاطعوه •

ـ وسألني : « وما هى علاقتك بالدكتور دويل ؟ » قالها وكأنه يحاول ازالة انطباع الاقتضاب الذى خلقته اجابته ٠

ـ « الحقيقة ان اهتمامى به ليس طبيا فهو يكتب كتبا أكثر من ممارسة الطب هذه الايام ونتيجة لنفوذه لدى بعض المجلات الادبية بانجلترا أدين له بالفضل فى جعل تلك المجلات تنشر مذكراتى المتواضعة لمغامرات شرلوك هولمز »؟٠ وتركنا عربة الترام عند تقاطع فارنجر وبرجاس وتوجهنا مشيا على الأقدام الى منزل فرويد ٠

وما ان تخطينا عتبة الدار حتى سمعنا جلبة فظيعة فى الطابق الاعلى ٠ واندفعنا مارين فى طريقنا بالخادمه باولا وامراة اخرى قدمت لى فيما بعد على انها « فراو فرويد » ولاحظت بالكاد فتاة صغيرة تقارب الخامسة وهى تمسك باعمدة السلم فى فزع ٠ وقد أصبحنا صديقين فيما بعد أنا وآنا فرويد ولكن فى تلك اللحظة لم يكن هناك وقت للتعارف فقد اندفعنا أنا وفرويد الى الغرفة حيث كان هولمز ينثر محتويات الحقيبة فى جنون وصدره مفتوح وشعره منفوش ، بالاضافة الى تقلصات جسمه وعضلاته بطريقة بدا منها انه فقد السيطرة عليها ٠

عند دخولنا الى الغرفة استدار الينا وعيناه تقدحان شررا ٠

وصرخ : « أين هى ؟ ماذا فعلتما بها ؟ » ٠

وتطلب الأمر جهودا مضنية من جانبنا لتهدئته واخضاعه وكنا كمن يخطو برجليه الى أعماق الجحيم ٠

كان التنويم ينفع أحيانا ولا ينفع أحيانا أخرى ٠ وكان يمكن احداثه أحيانا عن طريق اعطاء مهدئات مسبقا الى هولمز ولكن فرويد كان ينفر من ذلك اذا كانت هناك فرصة للنجاح بدونه ٠

وفسر لى ونحن نتناول وجبة خفيفة فى مكتبه قائلا : « يجب ألا يبدأ في الاعتماد على المهدئات » ٠

وكان من الضرورى بالطبع أن يظل أحدنا قائما بحراسته حتى يحميه من ايذاء نفسه أو ايذاء الآخرين وذلك أثناء الفترات التى لا يمكن اعتباره فيها مسئولا عن تصرفاته ٠ وشيئا فشيئا بدأ هولمز يكره رؤيتنا وكذلك رؤية الخادمة باولا التى كانت رغم خوفها منه تستمر فى آداء عملها بعزم وتصميم مبدية الاهتمام وحسن النية ٠ وكان دكتور فرويد وعائلته يفهمون ثورات الغضب عند هولمز ولا يعبأون بها رغم سفالتها وانحطاطها ، ولكننى تأثرت أعظم التأثر لتلك الشتائم والاهانات فلم أكن أظنه قادرا على التلفظ بمثل هذه القبائح ٠ وكنت عندما أدخل عليه الغرفة لمؤانسته وملاحظته يصب على من الشتائم ما يؤلمنى ولا يزال كما تذكرته اليوم ٠ فكان يصفنى بالغباء ويلعن نفسه لاحتماله صحبتى وأنا المتخلف العقل والأحمق المأفون ٠ ومن الطبيعى أن تتصوروا مدى ما كنت أعانى لأتحمل تلك الاهانات والشتائم والبذاءات ، ولكن حز فى نفسى انه في اليوم الثالث حاول أن يدفعني ويخرج الى الممر وكنت مضطرا أن أمنعه بضربة قوية على أم رأسه وأعترف ان السبب لضربى له بهذه الشدة هو ذلك الغضب الذى كان يعتمل فى نفسى ، فقد كانت الضربة من الشدة بحيث أغمى عليه ٠٠ الأمر الذى أفزعنى وصحت فى طلب النجدة وأنا أدق على صدرى لفشلى فى التحكم فى أعصابى ٠

وقال فرويد وهو يربت على كتفى بعد أن حملنا هولمز الى فراشه : « لا يحزنك الأمر يا دكتور واطسون فكل ساعة يقضيها غائبا عن الوعى تزيد من فرصتنا ٠ لقد أنقذتنى من جلسة تنويم ، ويبدو مما وصفته لى أن جلسات التنويم لن تصبح مجدية بعد ذلك » ٠

وفى تلك الليلة استيقظ هولمز وقد ارتفعت درجة حرارته وأخذ يهذى ، وجلسنا أنا وفرويد بجانبه على السرير نحاول التحكم فى حركاته العصبية وهو يهذى عن كيف ان المحار البحرى سوف يغزو العالم وما شابه ذلك من خرافات بينما فرويد ينصت الى هذيانه بانتباه كامل ٠ وسألنى خلال احدى فترات السكون : «هل هو مغرم بالمحار ؟» فهززت كتفى فى حيرة لا أدرى كيف أجيب (١) ٠

وخلال ملاحظته فى الليل كنا نتناوب مع باولا كما حظينا بليلة سهرت فيها فراو فرويد وكانت امرأة جذابة ، لها ، مثل زوجها ، عينان سوداوان حزينتان لا تخلوان من دعابة وفم رقيق ينم عن الحزم وقوة الشكيمة ٠ وفى احدى المرات اعتذرت لها عما نسببه لها ، أنا وصديقى من ازعاج٠

فقال ببساطة : «لقد قرأت أنا أيضا رواياتك عن قضايا الهر هولمز ، ومن المعروف أن صديقك شخص فائق الشجاعة عظيم القدر وهو يحتاج الى مساعدتنا الآن مثلما احتاج اليها صديقنا السابق ـ وافترضت انها تشير الى صديق فرويد التعيس الذى ذكره فى مقالته التى نشرت بمجلة « لانست » ـ « وأعتقد اننا لن نفشل هذه المرة » ٠

استمرت الحمى والهذيان عند هولمز ثلاثة أيام متتالية أخرى، كان من المستحيل خلالها أن ندخل الى جوفه أى غذاء ٠ وكان البقاء بجانبه جهدا مضنيا ـ حتى ولو نلنا قسطا من الراحة ـ فقد وصلت تشنجاته وهذيانه ، بعد أن استمرت لمدة

---

(١) يلعب المحار دورا كبيرا فى لا شعور هولمز اذ انه عندما تصنع الهذاء فى مغامرة « وفاة المخبر السرى » كان يهذى بفكرة أن العالم سيغزوه المحار ومن المعروف انه كان يحب تناول المحار فهل كان هذا الهذاء محاولة منه للسيطرة على مخاوفه ؟ هذا أمر متروك لاصحاب علم النفس كى يدرسوه (نيكولاس ماير) ٠

ست ساعات فى الليلة الثالثة ـ وصلت الى درجة أزعجتنى بحيث اعتقدت انه على وشك الاصابة بحمى فى المخ . وعندما عبرت عن رأيى هذا لسيجموند فرويد هز رأســه بالنفى وقال : « الأعراض متشابهة جدا ولكنى أعتقد أننا لا نخشى حدوث حمى فى المخ ، ان ما نراه هــو الخلجـات الأخـيرة لسيطرة المخدر عليه ، ان التعود على المخدر ينتزع انتزاعا من جسمه . فاذا مرت تلك الأزمة بسلام ، أى اذا عاش ، فاننا سنكون قد وصلنا الى نقطة التحول فى طريق التعافى » .

ـ « اذا عاش ؟ » .

ـ « نعم الناس يموتون فى مثل هذه الأزمات » .

وجلست بجانب سريره أراقبــه وأنا عديم الحيلة بينما تنتابه التشنجات ويستمر صراخه بلا هــوادة الا من فترات قليلة كانت كل وظيفتهــا فيما أرى هى زيادة قدرته عـــلى الصراخ . وحوالى منتصف الليل أصر الدكتور فرويد على أن أذهب الى سريرى لأنال قسطا من الراحة مشــيرا الى ضرورة استجماع قوتى حتى أكون ذا نفع لصديقى فى محنته الكبرى . وذهبت الى غرفتى على كره منى .

كان النوم مستحيلا ، وحتى لو استطعت ألا أسمع صرخات هولمز وأنينه الذى كان يخترق الحــوائط فان مجرد معرفتى بالعذاب الذى يمر به كان كافيا ليقض مضجعى . فهل يا ترى كان الأمر يستحق كل ذلك العناء . ألا توجــد وسيلة أخــرى لانقاذه دون المرور بهذا العــذاب الأليم والذى قد يؤدى الى موته ؟ ورغم أننى لم أكن من معتادى الصــلاة ومع ادراكى أن ما أقوم به هو نوع من النفاق فلم أستطع أن أمنع نفسى من الركوع والتضرع الى الخــالق العظيم بمنتهى الخشــوع والخضوع أن ينقــذ صــديقى ولم أكن متأكدا من نتيجة صلاتى ولكنها على الأقل دفعتنى الى النوم العميق .

وفى اليوم الرابع منذ بدأت الحمى والهذيان ، استيقظ شرلوك هولمز تبدو عليه السكينة وحرارته طبيعية .

وعندما دخلت غرفته لأحل محل باولا ، نظر الى نظرة حزينة وسأل بصوت ضعيف كان يستحيل على التعرف عليه : « أهذا أنت يا واطسون ؟ » فأجبته بالايجاب وسحبت مقعدا لأجلس الى جانب سريره وفحصته وأخبرته أن الحمى قد انقشعت .

وأجابنى بلا مبالاة : « حقا » .

ـ «نعم أنت فى طريقك الى الشفاء ياصديقى العزيز» .

ـ « حقا » .

واستمر يحملق فى أو بالأحرى فيما ورائى وقد امتلأ وجهه بتعبير يدل على الخواء ولا تبدو عليه أية معرفة بالمكان ولا أى فضول بشأن ما أتى به الى هنا .

ولم يعترض عندما جسست نبضه وكان ضعيفا جدا ولكنه منتظم ، كما لم يقاوم تناول الطعام الذى أتت به فراو فرويد بنفسها على صينية . وتناول كمية ضئيلة من الطعام تحت الالحاح والتشجيع . وكانت تبدو عليه الرغبة فى تناول الطعام الا انه كان يجب تذكيره بأن الطعام موجود أمامه ، وكان هذا التحول الى الهمود بعد ما سبقه من هبات عنيفة وهذاء وحمى من أغرب ما مر بى فى تلك الحالة .

ولم يرض فرويد عن ذلك الوضع أيضا عندما عاد من جولته لعيادة مرضاه وفحص المريض المقيم لديه ، وعبس وجهه وسار الى النافذة التي كان يرى من خلالها النهايات

المدببة لأبراج كاتدرائية سانت اسطيفان ـ وهو منظر بالمناسبة يكرهه أشد الكره ـ وربتت على يد هولمز وانضممت الى فرويد عند النافذة :

ـ « ماذا ترى ؟ » •

ـ « يبدو أنه قد عبر منتصف الطريق فى التخلص من الادمان • ويمكن بالطبع أن ينتكس فى أية لحظة ، هـذه هى لعنة الاعتماد على المخدرات » •

وأضاف بلهجة يبدو فيها عدم الاهتمام ، « سيكون من المهم أن أعرف كيف تعرف على الكوكايين » •

وأجبته بصدق : « لقد وجدته فى مسكنه منذ أن تعرفت عليه ، ويقول انه يتعاطاه بسبب الملل وقلة النشاط » •

وتحول فرويد الى مبتسما وقد بدت على ملامحه علائم العطف والحكمة التى لاحظتها فيه منذ أن وقعت عيناى عليه :

« هذا ليس سببا كافيا ليسير المرء فى طريق الدمار •• على أية حال » •

وسألته محاولا اخفاء القلق فى صوتى : « ماذا يقلقك ، لقد قلت اننا قد تمكنا من انتزاعه من براثن المخدر الشيطانى » •

ـ « مؤقتا ولكن يبدو أننا انتزعنا منه أيضا روحه المعنوية • وهناك حكمة قديمة تقول بأن الشفاء قد يكون أحيانا أمر من المرض » •

ـ « ماذا نفعل اذن ؟ هل نسمح له بقتل نفسه بهـــذا السم ؟ » ٠

وتحول فرويد الى وقد وضع اصبعه عــلى شفتيه وربت عــلى كتفى وقال « صبرا » وسار الى سرير هــولمز وســأله بلطف وهو يبتسم : « كيف حالك ؟ » ٠

ورماه هولمز بنظرة ولــكن عينيــه كانتا تسـبحان فى اللانهاية : « لست فى حالة حسنة » ٠

ـ « هل تتذكر البروفسور موريارتى ؟ » ٠

ـ « العبقرى الشرير ؟ » ولاح عــلى شـفتيه شـــبح ابتسامة :

ـ « ماذا بشأنه ؟ » ٠

ـ « أعلم ماذا تريدنى أن أقوله يا دكتــور ٠ حســـنا سأرضيك ان المرة الوحيــدة التى شـغل فيهــا البروفســور موريارتى دور العبقرى الشرير فى حيــاتى كانت عنــدما استغرق منه الأمر ثلاثة أسابيع ليشرح لى غوامض وألغــاز حساب التفاضل والتكامل» وأجابه فرويد بهدوء : « مايهمنى ليس قولك اياها وانما ادراكك لها كحقيقة واقعة » ٠
وسادت فترة صمت ٠

ـ « أنا أفهم ذلك » همس هــولمز بتلك العبــارة التى كانت تحمل منتهى الذل والمعاناة التى يمكن لكائن انسانى أن يمر بها ٠ وحتى فرويد الذى كان عنــاده لا يقل عن عنــاد هولمز ، كره أن يقطع ذلك الصمت الطويل الذى تلا الاعتراف الرهيب ٠

وكان هولمز نفسه هو الذى قطع حبل الصمت ، ودار ببصره فى الحجرة ورآنى ودب في ملامحه نبض الحياة ٠

ـ « واطسون ؟ اقترب منى يا صديقى العزيز . أنت صديقى القديم أليس كذلك ؟ » .

« أنت تعلم ذلك جيدا » .

ـ « أجل أجل » واضطجع على الوسادة التى وضعها خلف رأسه ونظر الى وفد بدأ الانزعاج على ملامحه وقال : « أنا لا أذكر الكثير مما دار خلال الأيام القليلة الماضية .. » وقاطعته باشارة من يدى :

ـ « لقد ذهب الماضى الى غير رجعة فلا تستعده . لقد انتهى الأمر » .

ـ فأصر على متابعة كلامه : « أقول اننى لا أذكر الكثير ولكنى أتذكر اننى صرخت فى وجهك وانهلت عليك بكافة أنواع الشتائم » وابتسم ابتسامة من يقلل من شأن نفسه وقال : « هل فعلت ذلك حقا يا واطسون أم أننى أتخيل ذلك ؟ » .

« أنت تتخيله فعلا يا صديقى العزيز . والآن ارقد واسترح » .

واستمر فى الحديث : « واذا كنت قد فعلت ذلك فأرجو أن تعلم أننى لم أقصده . هل تسمعنى ياعزيزى ؟ انى أتذكر بوضوح أننى وصفتك بيهوذا أرجو أن تصفح عنى لهذا القول الشنيع هلا صفحت عنى » .

ـ « أرجوك يا هولمز .. » .

وتدخل فرويد : « من الأفضل أن نتركه الآن انه سيخلد الى النوم » ونهضت وأسرعت خارجا من الغرفة وعيناى مليئتان بالدموع .

الفصـل التاسـع

الكمان ولعبة التنس

حذرنى سيجموند فرويد ألا نفقد صبرنا فى مراقبـة هولمز ، فرغم انه قد بدا عليه انه قد فقد اشتياقه للكوكايين فان اليقظة فيما يتعلق بالمخدر وطرق الحصول عليه يجب أن تظل صارمة كما كانت • كانت قد راودتنى فكرة العودة الى انجلترا ، باعتبار أن أسوأ الفترات قد مرت وهو الأمر الذى أكـده لى فرويد ولـكنه رجـانى أن أبقى اذ مازالت معنويات هولمز منخفضة بشـكل مزعج ، فكان من الصـعب اقناعه بتناول الطعام ، كما كان من المستحيل أن نعيده الى عالمه ، لقد كان فى أمس الحاجة الى صديق ، وهكذا وافقت على البقاء لفترة •

وتبادلت البرقيات مع زوجتى أوجـزت فيهـا المـوقف ورجوتها أن تصبر على واستجابت هى بكل عطف وتشـجيع وأخبرتنى أن دكتور كولينجوورث يراعى العيادة وأنها ستخبر مايكروفت هولمز بأنباء تقدم أخيه •

وكان تقـدم هـولمز بطيئا جدا • واذا كان قد فقـد اهتمامه بالمخدر فلم تبد عليه علائم الاهتمام بأى شىء آخر • وكنا نرغمه على تناول الطعام ونتحايل عليه حتى يرضى أن يتمشى فى الحدائق بجوار هولبورج • وفى تلك المناسبات التى كان يتنزه فيها معنا فى الحديقة كان يظل شـاخصا الى الأرض ولا ينظر فى أى اتجاه آخر • ولم أدر هل أحزن أم أفرح بهذا التقدم ، وكنت أعلم الناس بطباع هولمز وأدرك

أنه نادرا ما كان يلقى بالا الى المناظر الطبيعية وكان يفضل دراسة آثار الأقدام • ولكن كلما حاولت أن أجره الى الحديث عن الموضوع وأساله ماذا استنتج من ملاحظة الأرض كان يستجيب بلهجة متعبة طالبا منى أن أكف عن رعايته ثم يصمت •

وأصبح الآن يتناول وجباته مع بقية الأسرة صامتا رغم كل المحاولات التى نبذلها لجره الى الحديث ولا يتناول من الطعام الا اقله • وكانت مناقشات الدكتور فرويد لحالات مرضاه لا تجذب انتباهه أيضا ، وأخشى انني ايضا نادرا ما كنت أسمع شيئا من حالات الدكتور بسبب انشغالى بهولمز وحالته • الا أننى آتذكر بشكل دائم انه أشار الى تلك الحالات بأسماء غريبة فأحيانا يشير الى الرجل الفأر أو الرجل الذئب وأحيانا كان يشير الى شخص أطلق عليه « (Anna O) انا آو » وقد ادركت انه يخفى شخصيات هؤلاء الناس بسبب الأمانة المهنية ، الا أن اختياره لتلك الأسماء المستعارة ينم عن روح فكاهية كامنة أو على الأقل ، عن موهبة فى تشبيه الصفات الانسانية • كثيرا ، عندما كان يغلبنى النوم وتحلق أفكارى هنا وهناك كنت أتذكر تلك اللمحات من الحديث على مائدة فرويد وأبتسم وأنا أفكر فى الرجل الذى يشبه الفار والآخر الذى يشبه الذئب أما « أنا آو » فهل يا ترى كانت مستديرة أو بيضاوية الشكل ؟ •

ومن الغريب أن العضو الوحيد فى الأسرة الذى بدا انه يستثير استجابة من هولمز هو « آنا » أخرى ، ابنة فرويد الصغيرة وكانت طفلة رائعة ــ ولست عادة من الذين يحبون الأطفال ــ (١) تلفت النظر • وبعد اليوم الأول ، لم تعد نوبات هولمز تثير خوفها وأصبحت تعامله بحرية • ولعل غريزتها هدتها الى أن تتعامل معه بهدوء ، ففى ذات

(١) هل يعنى هذا التصريح ان ذلك ربما كان سببا فى ان واطسون لا يذكر اطفاله ابدا بل لا يذكر انه انجب •

يوم بعد العشاء عرضت عليه أن تريه عرائسها وقبل هولمز بطريقة جادة مفرطة فى الأدب ، واتجهت الى الصيوان الذى تحتفظ فيه بعرائسها وكنت على وشك النهوض من مقعدى لاتبعها عندما أشار الى فرويد بيده أن أبقى فى مكانى، وقال مبتسما : « يجب ألا نكتم أنفاسه برعايتنا له » ، واضافت فراو فرويد « وكذلك آنا » وطلبت لنا مزيدا من القهوة ٠

وفى الصباح التالى كنت راقدا فى سريرى ، أفرك النوم من عينى عندما تناهت الى أصوات صادرة من الحجرة المجاورة ٠ ونظرت فى ساعتى وتأكدت ان الوقت لم يقارب الثامنة بعد كما تناهت الى أصوات من الطابق الأرضى أدركت منها أن باولا لا تزال فى المطبخ وان بقية الأسرة لا تزال نائمة فما الأمر يا ترى ؟

وتسللت بهدوء متجها الى الباب المشترك بين غرفتينا ونظرت من ثقب الباب ، واذا بهولمز يجلس على السرير فى هدوء مع انا الصغيرة ، وكانت جالسة فى نهاية السرير ٠ ولم أستطع أن أسمع ما يدور بينهما ولكن بدا لى انه حديث ممتع ، فكانت الطفلة تلقى أسئلة على هولمز وهو يحاول جهده أن يجيب عليها ٠ وسمعته يضحك ، وانسحبت بهدوء بعيدا عن الباب حتى لا تفسد أية حركة منى التجاوب الذى كان يدور بينهما ٠

وبعد تناول الافطار ، اختار هولمز أن يبقى فى المكتبة بهدف قراءة بعض أعمال ديستويفسكى بدلا من أن يصاحبنا الى مومبرج ، نادى فرويد الخاص الذى يمارس فيه لعبة التنس فى الصالة المغلقة ٠

وحاولنا اغراءه بالانضمام الينا ونحن على وشك المغادرة فقال متوجها بالحديث لفرويد : « سيؤكد لك واطسون أننى لا أهتم البتة بالرياضة من أجل الرياضة ، ويجب ألا تعزو تخلفى الى آية دوافع أخرى خاصة بمرضى » ٠

وقرر فرويد ألا يضغط عليه وتركناه فى رعاية السيدات ـ فراو فرويد وباولا والصغيرة أنا ـ وانطلقنا ٠

كان نادى مومبرج الذى يقع جنوب هوفبرج يختلف عن أندية لندن التى أعرفها ٠ فقد كان مكانا مخصصا للرياضة، بينما كانت المقاهى تكمل الجانب الاجتماعى والثقافى الذى ينقصه ٠

وكان النادى يحتوى ، طبعا ، مطعما وبارا ، ولكن فرويد لم يكن معتادا على ارتيادها ، أو على اقامة علاقات اجتماعية مع الأعضاء ٠ وأخبرنى انه يستمتع بلعبة التنس ولا يستخدم من مزايا النادى سوى ملاعب التنس بقصد الترويح لا أكثر ولا أقل ٠ ولم أكن أنا نفسى أمارس هذه اللعبة ولكنى رغبت فى أن أشاهد النادى واهرب لفترة من التأثير الممل لمعركة هولمز التى تجعلنى دائم اليقظة والاكتئاب٠ ويبدو أن فرويد قد أحس بذلك ومن هنا كانت دعوته لى ٠

وكانت ملاعب التنس تقع داخل هيكل كبير من الحديد أشبه بالصوبة سقفها مغطى بالزجاج ليسمح لضوء الشمس بالدخول ، وفى الداخل كانت هناك مدافىء لتدفىء المكان فى الاشهر الباردة ٠ اما أرضية الملاعب فكانت من الخشب المصقول اللامع ترن فيه أصوات الكرات أثناء ارتطامها به ٠

ودخلنا غرفة الملابس حيث كان فرويد يحتفظ بملابس اللعب ومررنا بجماعة من الشباب يحتسون البيرة فى أكواب من الزجاج الرقيق وقد مدوا أرجلهم على المقاعد ووضعوا المناشف على رقابهم ، وعندما مررنا بهم سمعت واحدا منهم يغص بشرابه ويضحك ضحكة مكتومة وهو يقول : « يهودى فى المومبرج لقد أصبح هذا المكان مأوى للكلاب منذ أن زرته لآخر مرة » ٠

وكان فرويد يسير أمامى فتوقف وواجه الشاب الذى

تظاهر بأنه منهمك فى الحديث مع زميل له ـ ولو انهما الاثنان لم يكفا عن الضحك ـ وعندما استدار الينا وعلى وجهه علامة الاستفهام دهشت لمرأى ملامحه • كانت تقاطيع وجهه جميلة وكان مظهره الخارجي باردا زاد من بشاعته ندبة لضربة سيف قبيحة على خده الأيسر • والواقع أن وجهه كله بدا بتأثير هذا الجرح المخيف غاية فى البشاعة ، بينما كانت عيناه الباردتان اللتان لا تطرفان تعطيانه مظهر الطيور الجارحة • ولم يكن يتعدى الثلاثين الا أن الخبث الذى فى وجهه يرجع الى آلاف السنين •

ـ وسأله فرويد بهدوء وهو يخطو نحوه : « هل كنت تعنينى ؟ » •

ـ « أرجو المعذرة » وتحول الى شخص يسيل براءة وعذوبة بينما فمه القاسى يمتلىء بالابتسام الا أن عينيه ظلتا بلا تعبير •

وقال فرويد : « قد يهمك أن تعلم ، يا سيدى ، أنه منذ أن وطئت قدماك هذا المكان آخر مرة ـ ويبدو لى انك لم تطأه قط أو تبدو جاهلا تماما بطبيعة تكوين هذا النادى وكذلك بآداب السلوك فيه ـ ان أكثر من ثلث أعضاء النادى من اليهود » •

ودار على عقبيه منصرفا تاركا خلفه عاصفة من الضحك • وتحول لون الشاب ذى الندبة الى لون أحمر قان ، بينما أحنى رأسه ليستمع الى بعض الهمسات من زملائه وهم يتتبعون بأعينهم شخص فرويد وهو يتحرك منصرفا •

وصاح الشاب فجأة من خلفه : « أنت الدكتور فرويد ؟ أظنك نفس الشخص الذى طلب منه مستشفى كرانكنهاوس أن يستقيل من عضويته بسبب تأكيده «الظريف» ان الأطفال

الصغار يضاجعون أمهاتهم ؟ وبالمناسبة يا دكتور هل ضاجعت أمك ؟ » ·

وتجمد الدكتـور فى مكانه ثم التفت الى محـدثه وقد امتقع وجهه امتقاعا شديدا :

ـ « انت شخص سخيف » وتحول مرة أخرى لينصرف بعد ان رد الاهانة ولكن ذلك الشخص نهض على قدميه والقى بكأسه عـلى الأرض لتتحطم شظايا وصاح فى غضب : « هل لك آن تبارزنى يا سيدى ، سأرسل اليك شاهدين » · ونظر فرويد اليه ، من فوق لتحت ، وارتسمت عـلى شـفتيه شـبه ابتسـامة وقال : « وبعـدين معـاك انت تعلم ان السـادة لا يتبارزون مع اليهود أم انك لا تعرف قواعد الاتيكيت ؟ » ·

ـ « أنت ترفض اذن ؟ هل تعرف من أنا ؟ » ·

ـ « لا أعلم من أنت ولا آهتم بذلك · اسمع سـأطرح عليك بديلا : آراهنك على أن أهزمك فى مباراة التنس هـل يرضيك هذا ؟ » ·

وعند هذه اللحظة تدخل بعض أصدقاء الشاب ولكنـه دفعهم بيده بقوة دون أن يحول ناظريه عن فرويد الذى جلس بهدوء يستبدل حذاءه ويتناول مضربه للتنس :

ـ « حسنا يا دكتور سوف أقابلك فى الملعب » ·

وأجاب فرويد دون أن يهتم بالنظر اليه : « سـأوافيك حالا » ·

وسرعان ما انتشرت قصة المباراة خلال النادى حتى اننا عندما وصلنا الى الملعب كان حشـد من النـاس قد اجتمع ، والتف حول الشاب ذى الندبة عدد من زملائه وآخـذ بعضهم يفحص كرات التنس كما لو كانت رصاصات ·

وحاولت أن أحذر فرويد ونحن نرتقي السلم : « ألا تجد هذا الأمر سخيفا ؟ » ٠

ــ فأجاب دون تردد : « انني أجده سخيفا أشد السخافة ، ولكنه على كل حال لا يبلغ في سخافته مبلغ محاولة قتل بعضنا البعض » ٠

ــ « ألا تخشى أن تهزم في المباراة ؟ » ٠

ــ « يا عزيزي الدكتور انها ليست الا لعبة » ٠

ربما بدا الامر لعبة في نظر فرويد ، أما خصمه فقد كان ياخذ الامر بجديه شديدة ٠ واتضح ذلك من اللحظه الاولى في الملعب ٠ كان اكبر جسما واقوى واكثر تدريبا من الطبيب وكان الاثنان يعلمان ذلك ٠ وكان الشاب يضرب كراته في العمق وبدقة كبيرة ، وكان فرويد يحاول صدها باقصى ما يستطيع ولكن لم تكن تبدو عليه مظاهر الاحباط عندما كان يفشل في صدها ٠ وبهذا الشكل فقد اول شوطين في المباراة اذ لم يحرز فيهما الا نقطة أو نقطتين ٠

وفي الشوط الثالث تحسن قليلا ووصل الى التعادل قبل أن يهزم فيه ٠ وقمت باحضار بعض الماء للدكتور خلال الفترة التي يتم فيها تبادل الأماكن وقلت له مشجعا وأنا أناوله الاسفنجة : « لقد تحسن أداؤك في الشوط الأخير » ٠

ــ « مازلت آمل في أن أتحسن أكثر » قالها فرويد وهو يمسح بالاسفنجة حول رقبته ٠ ان طريقة لعبه هجومية فقط كما انه لا يستخدم ظاهر اليد ألم تلاحظ ذلك ؟

وهززت رأسي بالنفي :

ــ « ولكن هذا هو الواقع فكل نقطة كسبتها منه كانت موجهة الى ظاهر اليد لاحظ اللعب » ٠

واخذت الاحظ الشـوط شـانى شـان المائتين (١) من المتفرجين المتحمسين وتحول المد الان ببطء ولكن بعزم وبدا فرويد يكسب نقطة بعد نقطة من خصمه الشاب وفى البداية لم يستوعب خصمه ماذا كان يحدث ولم يدرك استراتيجيـه فرويد المتعمدة الا بعد الشوط الثالث ، وأدرك نقطة ضعفه وآخـذ يقف فى شـمال الملعب محاولا مواجهـة تكتيـكات الدكتور • واستطاع بدلك ان يكسب نقطه او نقطتين الا ان فرويد أدرك مقصده فاخذ يوجه ضرباته الى الجانب الايمن بعيدا عن موقف خصمه • ولكن كلما سارع الخصم بصد تلك الكرات اليمينية كان يكشف نقطة ضعفه فيرد فرويد بتوجيه الكرة الى اليسار مرة اخرى • لم يكن اللعب سـهلا ولـكن الشاب ذا الندبة وضع فى موقف لا يحسد عليه • فقد أجبر على أن يتخذ موقفا دفاعيا وآخذ فرويد يدفعه الى الجـرى ، من اليمين الى اليسار بينما وقف هو فى موضع ثابت واستولى الغضب على الشـاب الشرس مما أوقعـه فى أخطاء لم تكن لتحدث لو كان متمالكا لأعصابه وأخيرا انتهت المباراة بعد أن استمرت ما يقرب من سـاعة وكانت النتيجة سـتة أشـواط لفرويد مقابل ثلاثة لخصمه •

واقترب فرويد من الشبكة بهدوء واستفسر من خصمه قائلا : « هل سلم الشرف الرفيع من الأذى ؟ » وأعتقـد أن الشاب كان على وشك الامساك بخناق فرويد لولا أن تدخـل أصدقاؤه وحالوا بينهما بالقوة •

وفى غرفة الملابس استحم فرويد وبدل ملابسه دون أن ينبس بأية كلمة اللهم الا الشكر على تشجيعى له ، وانطلقنـا عائدين الى ١٩ شارع برجاس •

---

(١) يبدو أن ذاكرة واطسون قد خانته فبمراجعة مساحة صالة الومبرج اتضح لى انها لا تستوعب اكثر من مائة وعلى اية حال فان هذه الواقعة غير معروفة فى حياة فرويد ولم يدونها ارنست جولز مؤرخ فرويد •

ونادى فرويد على عربة وهو يقول : « على الأقل لقد حصلت على مباراة التنس ولم أنتظر حتى أجد ملعبا خاليا » .

وسألته بعد أن جلسنا فى العربة ، وبعد تردد : « وماذا عن التعليق الذى ذكره ذلك الرجل .. أتزعم فعلا أن الأولاد .. » وابتسم لى بينما ساد وجهه ذلك التعبير الحزين الذى أصبحت أعرفه جيدا :

ــ « فليهدأ بالك يادكتور أنا لا أزعم ذلك على الاطلاق » ، واستندت بظهرى الى مساند العربة وأنا أتنهد ارتياحا . وعندما رجعنا الى المنزل نبهنى ألا أذكر شيئا عن مبارزة التنس لهولمز . فلم يكن يرغب فى تشتيت انتباه صديقى بهذه الواقعة ووافقته على ذلك .

ووجدنا المخبر السرى الشهير حيث تركناه ، منكبا على بعض الكتب فى غرفة المكتب غير ميال الى الحديث . وكانت رؤيته مهتما بشىء ما علامة مشجعة لى . فانسحبت الى غرفتى وجلست أستعيد تلك الوقائع الغريبة التى حدثت فى مومبرج . ولم تتح لنا قط معرفة اسم « الرذيل » الا أن وجهه ، ذلك الوجه اللئيم ، الذى تشقه تلك الندبة القبيحة ، ظل يراود مخيلتى طوال ما بقى من اليوم .

وخلال العشاء ، بدا أن هولمز قد عاد سيرته الأولى ، فرغم جهودنا لجره الى الحديث كانت اجاباته كلمات قصيرة ومبتسرة . ونظرت الى فرويد فى قلق ولكنه تجاهل نظراتى وأخذ يثرثر كأن شيئا لم يكن .

وبعد العشاء نهض فرويد واستأذن ثم عاد بعد لحظات يحمل طردا بين يديه :

ــ « هر هولمز ، معى شىء هنا . أعتقد أنك ستستمتع

به ، وناوله الطرد البيضاوى الشكل • وتناول هولمز الطرد وتركه فى حجره ، لا يدرى ماذا يفعل به • واستطرد فرويد وهو يأخذ مقعده ثانية : « لقد أبرقت الى انجلترا طلبا لهذا » وظل هولمز ساكنا ينظر الى الصندوق •

وتطوعت آنا : « هل أساعدك فى فتحه » ومدت يديها لتفك خيوط الطرد • وأجاب هولمز : « ساعدينى من فضلك » وناولها الصندوق •

وانضم اليها أبوها ، بينما أصابعها الصغيرة تحاول فك العقدة ، وقدم لها مطواة جيب صغيرة قطع بها الخيوط بينما أزاحت آنا أوراق التغليف وأخرجت الصندوق وحبست أنفاسى رغما عنى عندما رأيت ما بداخله • وصاحت آنا : « هناك صندوق آخر » •

وقالت فراو فرويد : « فلندع هر هولمز يفتح هذا الصندوق بنفسه » •

وشجعته آنا قائلة : « هيا افتح الصندوق » •

ودون أن يجيب ، استخرج هولمز من الحشو الذى يملأ الصندوق ، ببطء ولكن بطريقة أوتوماتيكية ، صندوقا آخر وأعمل يديه فى الأقفال واستخرج الكمان «الاستراديفاريوس» ثم نظر الى الطبيب النمساوى وقال بتلك اللهجة الهادئة التى تخيفنى : « هذا كرم وعطف منك » وصفقت آنا الصغيرة بيديها وهى مبتهجة وصاحت : «انها كمان •• هل تستطيع أن تعزف عليها ؟ أرجوك •• هلا عزفت عليها من فضلك » •

ونظر هولمز اليها ، وعاد ببصره الى الآلة فى يديه وكانت تلمع فى ضوء المصباح الغازى وجذب الأوتار بأطراف أصابعه وعيناه ترمشان عند سماع الصوت ، ثم أحكم وضع

الكمان تحت ذقنه وهو يحرك عنقه ارتفاعا وانخفاضا حتى يضع الكمان فى مكانها الملائم ثم بدأ يضبط الأوتار· وما أن انتهى من ذلك ونحن جميعا نشاهده وقد توقفت أنفاسنا ـ كما لو كنا نشاهد تلك الحركة التى يقفز فيها لاعب السيرك من ارتفاع عال والناس جميعا تترقب ـ واستخرج القوس ومر على شعيراته بقطعة من الشمع الراتنجى وهو يشد خيوطه المصنوعة من ذيول الخيل ·

وبدأ العزف بشكل تجريبى أولا ، ولم تكن تلك طريقته المعتادة ، وشيئا فشيئا ارتسمت ابتسامة على ملامحه ، لعلها أول تعبير سعيد صادق رأيته على وجهه منذ أمد بعيد ·

ثم بدأ فى العزف بشكل جاد ·

ولقد سبق لى أن أشرت ـ فى كتابات أخرى ـ الى مواهب صديقى الموسيقية ، ولكنى لم أره يتفوق على نفسه ويسحر سامعيه بمثل ما رأيته فى تلك الليلة ·

لقد حدثت معجزة أمام أعيننا ونحن نرى تلك الآلة تنطق بالحياة وتبعث فى صاحبها حياة أخرى ·

ونهض هولمز ـ دون وعى كما يبدو ـ وأزاح مقعده الى الخلف مستمرا فى العزف وقد صار أكثر حيوية وأكثر اندماجا · لقد نسيت أسماء الألحان التى بدأ بها ـ فكما يعلم قرائى لست ذا دراية كبيرة بالموسيقا ـ ولكنى أظن أنها كانت بعض التدريبات والتأليفات المرتجلة ·

الا أننى عرفت فورا المقطوعات الموسيقية التى بدأ يعزفها بعد ذلك · وكما تعلمون لقد كان لهولمز بعض الاتجاهات الدرامية كما كان مدركا لوضعه فى تلك اللحظة ·

وبدأ فى عزف فالسات شتراوس ·· ويا للروعة ، ايقاع مرح صاخب ثرى ، يحرك جوارح الانسان ، وسرعان

ما نهض الدكتور فرويد ووضع يده حول خصر زوجته وبدأ يرقص معها الفالس فى أنحاء غرفة الجلوس ، وتبعناهما هولمز يعزف ، وآنا وباولا معى ، ولقد أخذتنا النشوة ونحن نرى ذلك المنظر وأنا أرمق صديقى من طرف خفى . لم تفارق البسمة وجهه وبعد لحظات أحسست بيد صغيرة تجذب كم سترتى ونظرت الى أسفل ورأيت آنا وهى تمد يديها نحوى تطلب مراقصتى .

لم اكن طيلة حياتى من النوع المحب للرقص ، 'ذا أضفنا الى ذلك العرج الخفيف فى ساقى ، فلا شك أننى ت أبعد الناس عن ذلك الفن ، ولكنى رقصت . وأعتقد انه م يكن رقصا رشيقا ولكنى كنت ممتلئا حيوية وحسن نية وتتالت ألحان شتراوس : « قصص من غابات فيينا و « الدانوب الأزرق » و «الخمر والنساء والأغانى» ، عزفه هولمز جميعا بينما نحن الأربعة ندور فى أرجاء الغرفة نضج بالضحك والمتعة . وبعد فترة تبادلنا أنا وفرويد فرقصت مع فراو فرويد بينما رقص الدكتور مع آنا الصغيرة . بل لقد بلغت بنا المتعة أقصاها حتى وجدت نفسى أجذب باولا أراقصها والجميع يضج بالضحك ازاء احتجاجاتها .

وعندما انتهى الأمر فى النهاية ، ارتمينا على المقاعد تتلاحق أنفاسنا ونتبادل الضحك والابتسامات رغم أن الموسيقا التى بعثتها كانت قد توقفت . وأزاح هولمز الكمان من تحت ذقنه وأخذ يحملق فيها لفترة طويلة . ثم حول ناظريه عبر الغرفة الى فرويد .

فقال له الطبيب : « لقد فاقت مواهبك كل ما لدى من دهشة » .

ورد عليه هولمز : « أما أنا فقد بدأت أندهش من مواهبك » ولاحظت ، وأنا قرير العين عودة لمعة الحياة والحيوية الى عينيه .

آويت الى سريرى تلك الليـلة وأنا أعجب لسـلطان الموسـيقا ٠ وأظن أن شـكسبير قد أشـار فى موقع ما من « يوليوس قيصر » الى أن للموسيقا القدرة على تهدئة العواطف الجياشة ومواسـاة الروح القلقـة ، ولـكن لم تتح لى قط مشاهدة تلك الظاهرة الا فى تلك الليلة ٠

ولقد استمرت تلك الظاهرة بعد أن هجع أهـل المنزل ولاذ[illegible]ا بالنوم ، أما أنا فقد تناهت الى مسـامعى ، من خلال ال[illegible]جز الرقيق الذى يفصل بين غرفة هولمز وغرفتى ، ألحان الك[illegible]ان الى ساعة متأخرة من الليل ٠ فعندما اختـلى هـولمز بن[illegible]سه لجأ الى عزف تلك الألحـان الحالمة الممتلئة بالشـجن و[illegible]تى كان يرتجلها ارتجـالا ٠ كانت ألحانا حزينة يائسـة [illegible]لتنى على أجنحتها الى عالم النوم العميق ، وأنا أتسـاءل [illegible] ستستمر تلك الشرارة التى أشـعلناها فى أعمـاق روح [illegible]ـديقى الباردة أم أنها ستخمد وتموت مع طلوع النهار ! ٠ [illegible]قد بينت لى هذه الواقعة أن روحه لم تفقد بعد تلك الجذوة [illegible]أنه يمكن اشعال النار فيها من جديد ٠ أما هـل سـتكفى الموسيقا فى حد ذاتها للقيام بتلك المهمة فهـذا هو ما كنت أشك فيه ٠ وخلال نومى المتقطع كنت أرى فى أحلامى ذلك الوجه الشيطانى الذى يحمل آثار جرح على وجنته ، كنت أراه يتمشى فى أحلامى ٠

الفصــل العــاشر

دراســة فى الهستيريا

جلس هولمز الى مائدة الافطار في اليــوم التــالى ساكنا تماما • ولم تتضــح عليــه أية آثار فيما يتعلق بالواقعـــة الموسيقية فى الليلة الماضية ، وهل وضعته فعــلا على بداية طريق التعافى • وظل وجه الدكتور فرويد جامدا لا يمكن استكشاف كنهه فى مواجهة الســلوك المحــايد لمريضــه • وسأل ، بطريقة طبيعية كالمعتاد كيف كان نوم هولمز ، وما اذا كان يريد قدحا من القهوة •

وقد منعنى ما حدث بعد ذلك ـ والى الأبد ـ من التأكد هل كان للكمان وحدها الدور الحاسم فى استعادة صــديقى لنفسه • فقد دق جرس الباب ، ومن لحظتها دخلنا فى مغامرة جنونية ما كانت لتحدث لولاه ، ومع ذلك ، ورغم ما تلا ذلك من أحداث ، فقد كنت سعيدا عندما وصل رسول يحمل رسالة الى الدكتور فرويد • وأعتقد أنه لولا ذلك لكان صديقى قد انتكس ، بالكمان أو بدونها •

كان الرســول مبعوثا من مستشــفى كرانكنهــاوس ، المستشفى التعليمى الذى كان فرويد عضوا به ، ومعه رسالة من أحد الأطباء يسأل فيها هل يتكرم الدكتور فرويد ويأتى ليرى مريضا دخل المستشفى فى الليلة الماضية • وقرأ فرويد الرسالة علينا :

« سأكون شاكرا اذا سمح وقتكم وتبادلتهم معي المشورة

بشأن حالة غاية في الغرابة ، فالمريضة لا تستطيع أو لا ترغب في الكلام ورغم هزالها البادى فانها تبدو فى تمام الصحة فهل لديك لحظات للمرور علينا وتفحصها ولو بسرعة . أنا أعلم أن طرقك غير تقليدية ولكننى احترمتها دائما » . « التوقيع شولتز » .

ــ قال فرويد وهو يبتسم ويطوى الورقة : « أترياان الى أى حد أنا منبوذ ؟ ــ هل تحبان مصاحبتى يا سادة لرؤية تلك المرأة الممتنعة ؟ » .

ــ ورد هولمز بنشاط : «سيكون هذا من دواعي اهتمامي» وأخذ يطوى فوطة المائدة . واستعددت أنا أيضا . وسألته بمرح أننى لم أعرف عنه الاهتمام بمثل تلك الحالات .

ــ وضحك هولمز قائلا : « آه أنا لا أهتم بالمريضة ولكننى مهتم بالدكتور شولتز ، ألا يبدو لك شبيها بصديقنا القديم لستراد (١) ؟ لقد قررت الذهاب تعاطفا مع الدكتور فرويد » .

لم يكن المستشفى بعيدا عن المنزل . وعندما وصلنا أخبرنا بأن الدكتور شولتز موجود مع مريضته فى جناح الطب النفسى . ووجدناه فى الفناء الخارجي للجناح ، وهو فناء لا يوجد له الا مدخل واحد وفيه يسمح للمرضى بالتنزه والجلوس ــ تحت اشراف ــ والتريض فى الشمس . كما كانت هناك بعض الألعاب الرياضية ، وكان بعض المرضى يلعبون الكروكيت . ولو أنهم كانوا يلعبونها بجنون ، وسط الصياح والهرج والمرج ومراقبة الممرضين .

---

(١) يشير هولمز الى مفتش بوليس سكوتلانديارد ج. لستراد الذى كان مغرما شانه شان عدد آخر من ضباط البوليس ــ بالتهوين من شان هولمز واساليبه ونظرياته والذى كان يضطر فى نهاية الامر الى طلب معونته عندما تستعصى احدى القضايا على فهمه "الساذج".

وكان الدكتور شولتز شخصاً بديناً (مربع الجسم) يضفي على نفسه سمات الأهمية . يقارب الخمسين من العمر به شارب رفيع وعارضان كثيفان لا يتناسقان معه . وسلم على فرويد بشكل رسمي متحفظ ، وعلى أنا وهولمز دون اعتناء . ولما كان المستشفى تعليميا الى جانب قيامه بعلاج الجمهور ، فانه لم يمانع عندما طلب منه فرويد أن نصاحبه . وأعتقد أنه استشف أننى طبيب ، وافترض أن لدينا أسبابا تدعونا لرؤية المريضة .

وأوضح شولتز الأمر ونحن نسير بجانبه قائلا : «الحقيقة أن المسألة ليست من اختصاصى ، ولكننا يجب أن نفعل شيئا من أجل هذه المريضة . فقد أمسك بها بعض الناس وهى تحاول القاء نفسها من على جسر أوجارتن فى النهر ، ولكنها غافلتهم وأفلتت وألقت بنفسها فى الماء ربما تعانى من سوء تغذية » . واستطرد قائلا بعد تفكير : « ولكن عندما أحضرتها الشرطة ، أكلت شيئا طفيفا . والمسألة الآن هى أننا نريد معرفة شخصيتها فاذا ساعدتنا على معرفة ذلك أو أى شىء عنها سيكون ذلك دينا فى عنقى لا أنساه » .

ولم ينم صوته عن أنه سيهتم بأن يكون فى عنقه دين لفرويد . ونظر اليه فرويد مبتسما بدلا من أن يرد عليه . وقد شدهت ـ مثلما شده هولمز لرسالته ـ للشبه الواضح بين نغمة صوته كطبيب محترف وبين نغمة صوت لستراد مفتش بوليس سكوتلانديارد المحقق المحترف . ومهما كانت نظريات فرويد فانها كانت تشبه نظريات هولمز من حيث ما تثيره من شك فى الأوساط الرسمية والفكر المحافظ .

ـ « ها هى ـ تحت تصرفكم . واعذرنى فأنا مطلوب فى قسم الجراحة ، من فضلك اترك ملاحظاتك فى مكتبى اذا تكرمت ، وسأنظر فى أمر المريضة مرة أخرى غدا » .

وغادرنا شولتز فى طريقه الى قسم الجراحة ، تاركا أمامنا امراة شابة تجلس على مقعد من القش ، تنظر الى الحديقة بعينين زرقاوين مفتوحتين لا تطرفان رغم ضوء الشمس الساطع ، وكانت أمارات الهزال بادية عليها بينما كانت بشرتها ذات لون أزرق خفيف خاصة حول العينين • وربما بدا وجهها متميزا لولا ان صروف الزمان تركت آثارها عليها • وبدت لى مجهدة منهكة لولا أن شكل جلستها كان ينبىء انها واقعة تحت ضغوط شديدة •

ودار فرويد حولها ببطء ، بينما نراقبه أنا وهولمز • ومر بيده أمام عينيها ولكنها لم تستجب ، ولم تقاوم عندما امسك برسغها ليقيس النبض ، وعندما ترك يدها سقطت على حجرها كما لو كانت شيئا ميتا • وكان وجهها نحيفا • بل أنحف مما كان يفترض فيه اذا حكمنا من هيئة تركيبها العظمى • ولم نستطع تقدير وزنها نظرا لأنها كانت ترتدى رداء المستشفى الفضفاض • وبدا على هولمز شىء من الاهتمام بالمرأة ووقف يشاهد بانتباه الفحص الذى يجريه فرويد •

ــ وقال فرويد بهدوء : «هذا هو السبب الذى استدعونى من أجله •• انهم لا يدرون كيف يتصرفون مع الحالة • لا يمكنهم تحويلها الى أى مكان آخر نظرا لتعاسة الحالة التى هى عليها » •

ــ فسألت : « وما الذى جعلها هستيرية ؟ » •

ــ « ليس من الصعب استنتاج السبب • الفقر واليأس وفقدان الأحبة • ولما وصلت بها الفاقة الى منتهاها قررت انهاء حياتها ، ولكنها حرمت ذلك أيضا فنكصت الى الحالة التى نشاهدها عليها الآن » •

وأخذ فرويد يبحث فى حقيبته السوداء حتى أخرج فى

النهاية قنينة ومحقنا بينما جلس هولمز بجانبه وسأل « ماذا تفعل ؟ » بينما لم يحول عينيه عن المرأة التعيسة التى جلست أمامه .

ـ « سأفعل ما أستطيع » ورفع كم الرداء عن ساعد المرأة بينما ظهر بقعة من الجلد بقليل من الكحول وقال : « سأحاول تنويمها . ولكى أتمكن من ذلك لابد من اعطائها شيئا يجعلها تسترخى ويساعدنى على جذب انتباهها » .

وهز هولمز رأسه ونهض على قدميه بينما غرس فرويد الحقنة فى ذراع المرأة .

وبدأ يهز ساعته ممسكا بسلسلتها جيئة وذهابا متحدثا بصوته القوى الحانى ـ الذى سمعته كثيرا قبل ذلك ـ وألقيت نظرة سريعة على هولمز . متسائلا بينى وبين نفسى عن التداعيات التى يجلبها هذا المنظر الى عقله ، ولكنه كان مستغرقا فى ملاحظة استجابات المرأة للساعة ولصوت فرويد .

وأشار الينا الطبيب بيده الأخرى أن نبتعد قليلا الى الخلف خارج دائرة نظر المريضة واستمر فى الحديث اليها بهدوء يطلب منها أن تنصت اليه وأن تسترخى وأن تدرك أنها بين أصدقاء وهكذا .

فى البداية كنت واعيا بلعبة الكروكيت التى تجرى فى الملعب وأصوات اللاعبين ، ولكن مع استمرار فرويد فى الحديث اختفت الأصوات ، شيئا فشيئا ، كان صوته لينا موحيا حتى خيل الى أننا نجلس فى غرفة مكتبه بشارع برجاس رقم ١٩ .

وبدأت عينا المريضة ترمشان بشكل لا يكاد يلحظ ثم تتابعان حركة الساعة وكانتا فى البداية لا تكادان تلحظانها .

ولمح فرويد ذلك التغير ، فغير من حديثه وأمرها بنفس النغمة أن تسترخي وتنام

وترددت الفتاة لحظة ، ورمشت عيناها مرة أخرى ، ثم استجابت وأغمضت عينيها ٠

ــ وسألها فرويد . « لا تزالين تسمعين صوتي ٠ ٠ أليس كذلك ؟ هزى راسك اذا كنت تسمعينني » هزت الفتاة رأسها بتباطؤ ، بينما انخفضت كتفاها ٠

ــ فقال لها فرويد : «ستستطيعين الكلام الآن، وستجيبين علي بعض أسئلة بسيطة ، هل أنت مستعدة ؟ اذا كنت مستعدة هزى رأسك من فضلك فهزت الفتاة رأسها

ــ « ما اسمك ؟ »

مضت لحظة صمت طويلة ٠ وتحركت شفتاها ولكن لم يصدر عنهما صوت ٠

ــ « من فضلك تحدثى بوضوح أكثر ٠ سأسألك مرة أخرى وسوف تجيبين بوضوح ٠ ٠ ما اسمك ؟ » ٠

ــ اسمى نانسى ٠

أجابت بالانجليزية ٠

وعبس فرويد قليلا مندهشا وتبادل نظرة لا ارادية خاطفة معى ثم تحول انتباهه الى الفتاة مرة أخرى ٠ وصدرت عنه نحنحة بسيطة ثم سأل الفتاة باللغة الانجليزية :

« والآن يا نانسى ماهو اسمك بالكامل ؟ »

ــ « ى اسمان

ـ « اسمان ! ما هما ؟ » .

سلاتر ، نانسى سلاتر . نانسى أوسبورن سلاتر فون لينسدورف .

ـ « حسنا ، يا ناسى سلاتر .. استرخ أنت فى أمان .. أخبرينى من أين أنت ؟ » .

ـ « بروفيدانس » .

ونظر فرويد الينا ، متحيرا ، وأعترف أننى أحسست اننا وقعنا ضحية لنكتة عملية أو « مقلب » .. أم ان خيال المريضة قد حلق بها فى سماء الأوهام الميتافيزيقية .

وحل لنا هولمز المشكلة . لقد كان يقف وراء كرسى المريضة ، وتحدث الينا بهدوء بحيث لا يسمعه سوانا : « ربما تشير الى بروفيدانس عاصمة رود أيلاند ، التى هى على ما أعتقد أصغر ولايات أمريكا » .

وهز فرويد رأسه موافقا ، ثم هز كتفيه معبرا عن استغرابه ، ثم انحنى أمام الفتاة مرة أخرى وكرر العبارة : « من بروفيدانس رود أيلاند ؟ » واستطرد قائلا :

« وماذا تفعلين هنا ؟ » .

ـ « لقد قضيت شهر العسل فى سقيفة » .

كانت ضروسها تمضغ بشدة وبشكل تشنجى ، وعندما تكلمت كان بها اعاقة فى النطق لم تسمح لنا بفهم ما تقول ولقد حيرتنى حالتها وعدم قدرتها على النطق ، ومال قلبى اليها ، هذه التعيسة ، التائهة .

ـ « حسنا .. حسنا . استرخ الآن » .

ونهض فرويد وواجهنا « ليس لهذا أى معنى » •

ــ ورد عليه هولمز بهدوء : « اسألها بعض الأسئلة الأخرى ، وكانت عيناه تختفيان خلف حاجبيه الكثيفين مثل رأس الكوبرا ، ولكنى كنت أعلم علم اليقين أنه أبعد ما يكون عن النوم • لقد كان مظهره الحالم هذا ينم عن رضى تام ، بينما كان دخان الغليون هو الدليل الوحيد على وعيه التام بما يجرى •• وحث هولمز فرويد مرة أخرى : « وجه اليها مزيدا من الأسئلة •• اسألها أين تزوجت ؟ » •

ــ فردد فرويد عليها السؤال

ــ «فى مجزر» • كانت اعاقتها الكلامية تجعل من الصعب علينا فهم ما تقول •

ــ « مجـزر »

فهزت رأسها • ونظر فرويد من فوق كتفها الينا فى حيرة ، فأشار اليه هولمز أن يستمر فى السؤال •

ــ قلت لى ان اسمك فون لينسدورف •• فمن هـو فون لينسدورف ؟ أهو زوجك ؟ » •

ــ « نعـم » •

ــ « البارون كارل فون لينسدورف » لم يستطع فرويد أن يخفى نبرة التحدى فى صوته •

ــ « نعـم » •

ــ فقال لها : « لقد مات البارون » ولكنه لم يكمل كلامه فقد نهضت المرأة التى تسمى نفسها نانسى ، فجأة بحركة

عنيفة ، ومازالت عيناها مغلقتين ولكنهـا تجاهد لتفتحهما وصاحت : « لا » ·

ـ « اجلسى يا نانسى ·· اجلسى ·· هـذا أفضـل ·· استرخى ثانية ·· استرخى » ·

ـ ونهض فرويد مرة أخرى واجهنا : « هذا من أغرب ما يكون · من الواضح آن ضلالاتها مستمرة حتى وهى تحت تأثير التنويم ـ وهو أمر غير معتاد » ·

فقال هولمز وهو يفتح عينيه « ضلالات » ·· وما الذى يجعلك تستنتج أنها ضلالات ·

ـ « لأنه لا معنى لها » ·

ـ « هذان أمران مختلفان ·· من هـو البارون فون لينسدورف ؟ » ·

ـ « انه أحـد أمراء المقـاطعة ، عم الامبراطور عـلى ما أعتقد · ولقد مات منذ عدة أسابيع » ·

ـ « هل كان متزوجا ؟ » ·

ـ « ليست لدى فكرة وأعترف أننى فى حيرة من أمرى· لقد حاولت التواصل معها ولكن ما قالته لا يفيدنا فى مسألة ماذا نعمل بشأنها ؟ » ·

وأخذ فرويد يفرك قبضتيه في حيرة ، بينما نحن ننظر الى المريضة الغريبـة · والتى بدأ فمها يتحرك ويتلوى مرة أخرى ·

ـ « هل تسمح لى بسـؤالها سؤالا أو اثنين ؟ » وأومأ هولمز الى المريضة ·

ـ وصاح فرويد مندهشا « أنت » وبدا عليه أنه أكثر اندهاشا مما وشى به صوته ٠

ـ « اذا لم يكن لديك مانع ، فربما أستطيع أن ألقى قليلا من الضوء على هذا الظلام الذى يحيط بنا »

فكر فرويد فى الأمر ، وهو يتمعن فى هولمز ٠ الذى كان ينتظر اجابته وقد أحاط نفسه بمظهر اللامبالاة ، الا أننى عرفت من مئات العلامات التى لا يعرفها سواى كيف أنه كان يتحرق شوقا لموافقة الدكتور على طلبه

وتدخلت فى الحديث قائلا : « لن يكون هناك ضرر خاصة أن الأمر غامض كما اعترفت وبالتالى فلا ضير هناك من بعض المساعدة ٠ وأنا خير العارفين بما يمكن أن يستخرجه صديقى من المعانى فى مواقف أقل وضوحا بكثير ٠

وتردد فرويد قليلا ٠ وأعتقد أنه لم يكن مستعدا للاعتراف بالهزيمة أو الاقرار بحاجته الى العون ٠ ولكنه كان محتاجاً للعون ، وأظن أنه قد استشف ما يغنيه ذلك لهولمز ، الذى لم تظهر عليه هو الآخر علائم الحيوية الا مؤخرا ٠

ـ « حسنا ولكن أسرع فان آثار المنوم تزول وسوف نفقد السيطرة مرة أخرى » ولمعت عينا هولمز لحظة من فرط الاستثارة ولكنه سرعان ما أسدل جفنيه . وتبع فرويد فورا ووقف أمام المريضة ٠

ـ « . هناك من يريد التحدث اليك يا نانسى ٠ ويمكنك التحدث بحرية اليه كما فعلت معى هل أنت مستعدة ؟ . » ٠

ـ « نعم » ٠

وأومأ فرويد الى هولمز الذى جلس على الحشائش عند

قوائم الكرسى ونظر اليها من أسفل ٠ وكانت يداه تسترخيان على حجره ولـكن أطراف أنامله كانت تضغط عـلى بعضـها بطريقته المعتادة حين يصغى الى تقرير من أحد زبائنه ٠

ــ « نانسى ٠٠ قولى لى من الذى قيد رسغيك وساقيك » ٠ ولم تكن به حاجة الى صوت فرويد الهادىء ، إلا أننى لاحظت ــ لدهشتى ــ أن صوت هـولمز عنـدما كان يواسى مرضـاه ويطيب خاطرهم فى منزلنا بشارع بيكر لم يكن يفترق عن صوت فرويد ٠

ــ « لا أعلم » ٠

ولأول مرة لاحظت أنا وفرويد الآثار الزرقاء على رسغ وساق المريضة ٠

ــ « لقد استخدموا رباطا من الجلد أليس كذلك ؟ » ٠

ــ « نعم » ٠

ــ « ووضعوك فى سقيفة » ٠

ــ نعــم ٠

ــ « كم لبثت فى ذلك المكان ؟

ــ « أنا ٠٠ أى ٠٠ » ٠

ورفع فرويد اصبعه محذرا هولمز وأومأ الأخير برأسه ٠

ــ « حسنا يا نانسى ، دعك من هذا السؤال وأخبرينى كيف هربت ؟ كيف غادرت تلك السقيفة

« كسرت النافذة »

« برجليك » ٠

ـ « نعم » ٠

ولاحظت فى تلك اللحظة آثار الجروح فى بطن ساق الفتاة ٠

ـ « ثم استخدمت قطع الزجاج المكسور لقطع قيودك؟» ٠

ـ « نعم » ٠

ـ « ثم تسلقت المواسير » ٠

وفحص يديها بلطف ٠ ولفت هولمز نظرنا الى الأظافر المكسورة وآثار الجلد المجلوط فى راحة اليد ٠ وكانت يداها فى غاية الجمال طويلتين ، رشيقتين جميلتى التكوين ٠

ـ « ثم سقطت ٠٠ أليس كذلك ؟ » ٠

ـ « نعم » وطغى على صوتها نبرة انفعال وأخذت شفتاها تدميان من ضغط الأسنان عليها ٠

ووقف هولمز وقال : « انظروا هنا أيضا أيها السادة » ، وأزاح بيده الى الخلف خصلة من شعرها الكستنائى فبانت لنا كدمة زرقاء قاتمة ٠

وتخطا فرويد الى الأمام وأشار الى هولمز أن يتوقف عن استجوابه ، فانسحب الى الخلف وهو ينفض التبغ من غليونه ٠

وقال فرويد للفتاة : « والآن يا نانسى ٠٠ استرخى ونامى ٠٠ نامى » واستجابت الفتاة وغرقت في النوم ٠

الفصل الحادى عشر

زيارة الى الأوبـرا

جلسنا فى مقهى صغير فى سنسان جاس ، يقع الى شمال المستشفى ومعهد الباثولوجيا وأخذنا نحتسى قهوة فيينا اللذيذة ونحن نتدبر مشكلات تلك المرأة التى تسمى نفسها نانسى سلاتر فون لنسدورف . وقال فرويد : « ماذا يعنى هذا كله ؟ » فأجاب هولمز بهدوء « يعنى الشر والخبث . . نحن لا نعلم الى أى حد هى صادقة فى روايتها ، ولكن الذى لا شك فيه أن تلك السيدة قد أوثقت أطرافها وتركت جائعة فى غرفة تواجه بناية أخرى فى حارة ضيقة . وأنها قد هربت بطريقة لا تختلف عما وصفته لنا . ومن المؤسف أن المستشفى قد تخلص من ملابسها . والا كنا قد علمنا الكثير عن حالتها الأصلية » .

واختلست نظرة الى فرويد ، مؤملا ألا يأخذ كلام هولمز على محمل الغلظة لقد أدرك المخبر السرى بجانب من عقله ضرورة العناية بالمرأة والاهتمام بها وأنها غارقة حتى أذنيها وتحتاج للعون والمساعدة . ولكن الجانب الآخر بشكل أوتوماتيكى يصنف البشر باعتبارهم أجزاء من مشكلة ، وفى هذه اللحظة فان اشارته اليهم ـ أمام هؤلاء الذين لا يعرفون طريقته ـ ستبدو غاية فى الغرابة .

الا أن الدكتور فرويد ، على أية حال ، كان مشغولا بمتابعة فكره هو نفسه.

ـ « ٠٠ والأدهى من ذلك أننى كنت على وشك أن أحرر شهادة باعتبارها مجنونة ٠٠ وأننى لم أر ٠٠

ـ وقاطعه هولمز : « لا ٠٠ لقد رأيت ولكنك لم تلاحظ والفرق شاسع بين الاثنين وأحيانا يكون عاملا حاسما » ٠

ـ « ولكن من هى ؟ هـل هى فعـلا من بروفيدانس ؟ رود ايلاند ٠ أم أن ذلك من وحى خيالها » ٠

ـ فقال هولمز : « من أكبر الأخطاء أن نضع النظرية قبل تمعن الواقع ، فلا شك أن ذلك سيجعل حكمنا منحازا » ٠

وأشعل هولمز غليونه ، بينما أخـذ فرويد يحملق فى فنجانه ٠ لقد انقلب وضع الرجلين خلال الساعتين الماضيتين٠ فمن قبل كان الطبيب هو المعلم والمرشد ، أما الآن فقد اتخذ هولمز هذا المقام ـ وهو دور أسهل عليه وأكثر ألفة من دور المريض العاجز ٠ ورغم أن ملامحه ظلت مستغلقة على الفهم، فقد أدركت كيف ابتهج وانشرح لعـودته الى ذاته المألـوفة القديمة بينما فرويد ـ والحق يقال ـ لم يكن نافرا من القيام بدور التلميذ ٠

ـ وسأل : « ما العمل الآن ؟ هل نبلغ الشرطة ؟ » ٠

ـ « لقد كانت فى يد الشرطة عندما اكتشفت الحادثة ٠٠ فاذا لم يكونوا قد فعلوا لها شيئا عندئذ فما الذى يدفعهم الى ذلك الآن ؟ وما الذى سـنخبرهم به ؟ نحن لا نعلم الا أقل القليـل ولن يجـديهم ذلك ـ وأضـاف ـ ولو أن ذلك قـد

ينفع فى لندن • وفضلا عن ذلك ، اذا كان هناك لأمير ضلع فى الموضوع ، فقد لا يحبون التعمق فيه » •

ــ « ماذا تقترح اذن ؟ » •

اضطجع هولمز الى الخلف فى مقعده ، واتخذ مظهر من يتأمل نقوش السقف •

ــ « هل لديك مانع من تولى الأمر بنفسك ؟ » •

ــ « أنا » وبذل هولمز قصارى جهده لتبدو عليه الدهشة، ولكن الدور كان « متفصل عليه » وأظن أنه فى هذه المرة قد بالغ فى دهشته • وقال : « ولكن حالتى لا •• » •

ــ « من الواضح أن حالتك لم تؤثر على قدرتك ــ قالها فرويد بنفاد صبر ــ فضلا عن أن العمل هو بالضبط ما تحتاج اليه » •

وتخلى هولمز عن المناورة وجلس فى مقعده منتصب القامة وقال : « حسنا أول شىء نفعله هو أن نتحرى عن البارون فون لينسدورف ، من هو ؟ وما الذى سبب موته ؟ ومتى •• الخ • وبالطبع هل كان متزوجا ؟ واذا كان فما جنسية الزوجة ؟ ولما كانت مريضتنا لا تستطيع الاجابة على تلك الأسئلة فعلينا أن نتناول القضية من طرفها الثانى » •

ــ وسألته : « ما الذى جعلك تقول ان الغرفة الضيقة التى حبست بها المرأة كانت تواجه بناية أخرى وبينهما حارة ضيقة ؟ » •

ــ « هذا بديهى يا واطسون •• فقد كانت بشرة المريضة بيضاء مثل بطن السمكة ، الا أننا نعرف مما قالته

أنه كان توجد نافذة فى هذا السجن وأنها كانت كبيرة بما فيه الكفاية لتسمح بهروبها • والنتيجة : أنه رغم وجود النافذة كان هناك شىء ما يحول دون دخول كمية كبيرة من أشعة الشمس ، لأنه اذا كانت الشمس تدخل فلن تصبح المريضة بهذا اللون الأبيض الممتقع وما الذى يفعل ذلك سوى بناية كبيرة أخرى ؟ ودعنا نذهب الى أبعد من ذلك ونقول ان تلك البناية أحدث من تلك التى وجدت بها مريضتنا • لأن المهندسين لا يفتحون النوافذ عادة أمام الحوائط » •

ــ وصاح فرويد « ممتاز » وبدا عليه الرضى والأمل من كلمات هولمز ومن طريقته الهادئة المطمئنة •

ــ « انها مسألة الربط بين الاحتمالات بطريقة منطقية • انظر مثلا الى مسرحية العاصفة لشكسبير حين حطمت العاصفة سفينة الدوق وألقت به وبزملائه الى شاطىء جزيرة بروسبيرو دون أن تبتل ملابسهم • لقد ظل النقاد والمفسرون يتجادلون لسنين طويلة حول تلك العاصفة الغريبة • فمن قائل انها عاصفة ميتافيزيقية ، ومن قائل انها عاصفة رمزية وغير ذلك من التفسيرات الرامية الى تفسير كيف تغرق العاصفة رجال البحر دون أن تبتل ملابسهم • ولكن لو نظر هؤلاء الى أن الملابس كانت هى الجانب الأغلى ثمنا فى تقاليد المسرح الأليزابيثى ، وان ادارة المسرح لم تكن لتستطيع تحمل المخاطرة بتعفن الملابس فى كل مرة تعرض فيها المسرحية ، دعك من احتمال اصابة الممثلين بالالتهاب الرئوى، لأدركوا السبب فى أن العاصفة لم تبلل ملابس الدوق • ومن السهل أن نتصور ــ متى ما عرفنا هذه الحقيقة ــ أن أصحاب المسرح قد طلبوا من المؤلف أن يشير الى جفاف الملابس بعد هذه العاصفة • وغالبا ما سيكون هناك مقابل نمساوى لأصحاب شكسبير ــ وربما استفدنا من عصر هذا اليوم اذا حاولت يا دكتور فرويد أن تبحث عن بعض التفاصيل الخاصة بالمرحوم البارون فون لينسدورف » •

واستدار هولمز الى ، بعد أن انصرف فرويد ليقوم بالتحرى عن حياة البارون ، وقال : « دعنى أستخدمك يا عزيزى واطسون مرآة لى ، فعلى أن أخطو بحذر ـ لا بسبب اننا نواجه لغزا غامضا ـ ولكن لأننى أشعر كالملاح الذى قضى وقتا طويلا على الشاطىء وعليه أن يستعيد مهارة امتطاء ظهر السفينة ، وبهذه المناسبة ما رأيك فى أن نتريض قليلا » ٠

دفعنا الحساب ، واتخذنا طريقنا الى فارينجر ستراس حيث اتجهنا يمينا وكان هولمز قد حشا غليونه مرة أخرى وتوقفنا لحظة ريثما يشعله فى وجه النسيم ، وقال :

ـ « هناك احتمالان يا واطسون ، الأول أن تكون هذه المرأة هى فعلا من تدعى والثانى ، أنها تعيش فى أوهام أو حريصة على أن تضللنا ، لا تنظر الى نظرة الاندهاش يا عزيزى ، نحن لا نستطيع أن نستبعد هذا الاحتمال فى هذه المرحلة فربما كان تصنعها لمصلحتنا وعلى أية حال سنترك مسألة هويتها هذه ، حتى نحصل على معلومات جديدة ، أما بقية عناصر القضية فمن حقنا أن نخمن ٠٠ فلماذا حبست تلك المرأة فى سقيفة ، مقيدة الأطراف ؟ وسواء أكانت أميرة أم متسولة ٠ فهناك احتمالان فقط ، اما أن خاطفيها يرغبون أن تقوم بعمل ما ٠ واما يرغبون فى منعها من القيام بعمل ما » ٠

فجازفت بالقول : « طالما هى مقيدة اليدين والرجلين فان الاحتمال الأخير هو الأرجح » ٠

ونظر هولمز الى وهو يبتسم :

ـ محتمل ، يا واطسون محتمل ٠ ولكن اذا افترضنا انها متسولة ، متسولة تتكلم الانجليزية بلكنة أمريكية ـ

فما الذى يمكنها أن تفعله ، وتجاه من بحيث يخشونها ؟ واذا كانوا يخشونها ويرغبون فى منعها من القيام بأى شىء فلماذا تركوها حية على الاطلاق ؟ لماذا ٠٠ ؟ » ٠

ــ وقاطعته : « ولكن ياهولمز فلنفترض أن هؤلاء الناس ــ آيا كانوا ــ رغبوا فعلا فى التخلص منهـا ــ آلا يحتمـل انهم دفعوها عمدا لارتكاب محاولة الانتحار فى النهر ؟ » ٠

ــ « تعنى انهم سـمحوا لهـا بالهـرب ؟ لا أظن ذلك يا واطسون ، فلقد كان هروبها جريئا ومبتـكرا بحيث لم يتوقعه خاطفوها وتذكر انها انزلقت على مواسير المجـارى بحيث هشمت رأسها » ٠

ومشـينا بعض الـوقت فى صـمت ٠ ولاحظت أننـا تجاوزنا منزل الدكتور فرويد فى شارع البرجاس واتجهنا ببطء صوب النهر ، فسألته :

ــ « هـل تنـوى الذهاب الى مكان الحـادث عـلى جسر أوجارتن ؟ » ٠

ــ فأجابنى بنفاد صبر : « وما الذى سنستفيده من الجسر الآن ؟ نحن نعلم أن الشرطة وجدوها هناك وفشلوا فى منعها من القاء نفسها من فوقه ٠ كلا الأفضل أن أحاول البحث عن المبنى الذى حبست فيه ٠ انه شىء يثير الغيظ عندما يكـون عميلك غير قادر على الكلام » ٠

ــ وما الذى يجعلك تظن انه سيكون بوسـعك العثـور على المبنى ؟ قد يوجد فى أى مكان فى فيينا ٠

ــ كلا يا عزيزى واطسون ، انه ليس فى أى مكان فى فيينا ٠ تذكر أن هذه السيدة وهى فى حالتها الواهنة تلك لم تكن لتستطيع المشى مسافة كبيرة ٠ لقد استنتجنا أنه موجود

فى حارة ، ألا توجد الحوارى عادة قرب الشواطىء ؟ ربما فى مخزن تقابله من الناحية الأخرى مسلخ او ما شابه • على آية حال آنا لا أتوقع أن أجدالبناية ، وانما أحاول ببساطة ان أكون فكرة عن مكان الأحداث بشكل عام •

وخلد الى السكون • تاركا اياى لأفكارى والتى كانت مشوشة تماما • ولم آشأ آن أقطع عليه تأملاته ، ولكن كلما زاد تفكيرى فى الامر زادت دهشتى وحيرتى •

ــ « ولكن يا هولمز •• لماذا تجشم المرأة نفسها كل هذا العناء للهرب ثم تلقى نفسها فى النهر عند أول فرصة ؟ » •

ــ « سؤال معقول يا واطسون ، بل سؤال فاتح للشهية ولعله اكثر الاسئلة حسما لقضيتنا ، ولو آنه يوجد حاليا عدد لا نهائى من الدوافع وكلها تعتمد ، فيما أظن ، على تحديد شخصية عميلتنا » •

ــ « ربما نحن نجعل ، من الحبة قبة » خاطرت بقولى هذا ، لاننى ورغم رغبتى فى آلا أحرم صديقى من العلاج الذى تتضمنه القضية ، كنت لا أريد بناء آمال زائفة وتابعت قولى : «ربما كانت ضحية تعيسة لشخص ما، عاشق مختل او•

ــ فقاطعنى هولمز ضاحكا : « لا ينفع هذا الكلام يا واطسون ، فأولا المرأة غريبة عن هذه البلاد ، وتحت تأثير التنويم كانت تجيب على الأسئلة بانجليزية أمريكية • ثانيا جاء ذكر البارون فون لينسدورف ، وهو شخصية كبيرة كما يبدو • وأخيرا « وفيها ايه يعنى » فحتى لو كانت القضية بسيطة وصغيرة ، فلها طعمها الخاص ولا يوجد سبب يجعلنا لا نقدم لتلك المرأة حقها مثل ما تستحقه أية أنثى أخرى ذات جاه ومال » •

ولم أنبس ببنت شفة وانما سرت بجانبه فى صمت حتى دخلنا قطاعا من المدينة كان من الواضح أنه أقل شأنا من الأحياء التى صادفناها حتى الآن •

كانت المنازل منخفضة لا يزيد علو الواحد منها عن طابقين ، مبنيه من الخشب لا من الحجر • تبدو عليها القذاره ويحتاج معظمها الى طلاء • وجميع ازقتها تنحدر نحو الشاطىء حيث تنتهى المنازل قريبا من حافة المياه • وهناك على الشاطىء الصخرى تنتشر قوارب صيد رنه متداعية كانها حيتان صغيرة ممددة وامتدت اعمدة التلغراف القصيرة واسلاكها متدليه لتكمل الصورة الموحشة الكئيبة أما القناة نفسها فكانت تالثة الاثافي ، شاطئها موحل ومياهها راكدة ومحتشدة بسفن قبيحة المنظر ـ حيث ان فيينا تستقبل كافة احتياجاتها عن طريق البحر ـ كان المنظر يذكرنى بأجزاء من نهر التايمز أكثر مما يذكرنى بنهر الدانوب الجميل الذى كان يقع على بعد عدة أميال الى الشرق • خارج مرمى النظر •

وهنا وهناك كانت تتناثر مستودعات ، ثم رصيف قصير يحاذى الامتداد اللامتناهي للمساكن والبنايات • وتتصاعد بين الحين والآخر موجات من الصخب والضحك وأصوات الاكورديون مما ينبىء بوجود حانات وملاه فى الجوار ـ وشتان ما بينها وبين فخامة مقهى جرينشيتدل وعلى بعد مسافة ربع ميل تقريبا الى اليمين يقع جسر أوجارتن حيث تمت الواقعة •

وعلق هولز وهو يمسح المكان بناظريه : « هذه جيرة مقبضة ، ان أية بناية من تلك البنايات تفى بمواصفات السجن الذى وضعت به نانسى سلاتر » •

ـ نانسى سلاتر ؟

ـ « نعم يا واطسون ، سنستخدم هذا الاسم مؤقتا • وأنا لست طبيبا ولذلك لا أستطيع الاشارة اليها بوصفها مريضة ، كما أن كلمة « زبونة » لا تبدو ملائمة فى الظروف

الحالية . فهى ليست فى وضع يمكنها من الحـديث الينا . فضلا عن أن تستأجر خدماتنا . هلا عدنا أدراجنا ؟ أعتقـد أن الدكتور فرويد قد رتب لنا الليلة حضور الاوبرا . وأنا أتشوق لسماع فيتللى ، رغم ما يقال من أنه « راحت عليه » وفى كل الأحوال لابد لى من التأكد من أن ملابس السـهرة التى اشتريتها لى تلائمنى » .

غادرنا ذلك المكان الكئيب وعدنا أدراجنا . ولم يقـل هولمز شيئا ونحن فى طريق العودة ، ولو أنه توقف عنـد مكتب تلغراف حيث أرسل برقية . ولما كنت أعرفه معرفة جيدة ، فلم أحاول أن أقتحم عليه أفكاره وانما شغلت نفسى بالمشكلة التى تواجهنا ، محاولا ، دون أى نجاح ، أن أمنـع نفسى عن الاستنتاج والتوقع متخطيا الوقائع . ولكنه كان جهدا ضائعا وسرعان ما انصرفت عنه . لقد كان عقلى غـير مرتب وغير منطقى ، مثله مثل عقل صديقى، فقد كان يسرح فى شطحات خيالية ، مبتكرا حلولا لا منطقية تماما ، حتى انى لا أجد الشجاعة لذكرها .

ولكنى نجحت تماما فى مهمة أخرى وهى شراء ملابس السهرة لهولمز ، فقد كنت أعرف مقاساته وعدلت قليلا فيها لتناسب ما طرأ عليه من هزال، وطلبتها من محلات، هورنى، الخياط الأنيق المعروف فى ميدان ستيفان (ستيفان بلاتز) . وكانت لائقة عليه بشكل رائع .

كان الدكتور فرويد فى المنزل عندما وصلنا ، ومعـه المعلومات التى كان هولمز نفسه سيحصل عليهـا لو كان ذا معرفة بالمدينة واللغـة . ولقد استغرقت منه تلك المعلومات بحثا ليس بالقصير . ومع ذلك فقـد بقى لديه من الـوقت ما يكفى ليقابل مريضا بعـد الظهر ، الرجـل الذئب ، أو الرجل الفأر لا أدرى .

كان البارون كارل هلموت ولفجانج فون لينســدورف (كما اخبرنا فرويد) خالا ثانيا للامبراطور فرانز جوزيف· وهو ينحدر من مقاطعة بافاريا ، وليس النمســا ، وكانت معظم ممتلكاتهم ــ والتى تشمل عدة مصانع لصناعة الذخيرة والأسلحة ــ تقع فى وادى الرور فى ألمانيا ·

وكان نجما من نجوم مجتمع فيينا ــ رغم انعزاليته ــ ومن كبار عشــاق المسرح · وقد تزوج مرتين ، الأولى من احدى أميرات بيت هابسبورج الأقل شأنا والتى توفيت من حوالى عشرين عاما وتركت ولدا واحدا هو الوارث الوحيد·

أما البـــارون الشـــاب مانفريد جوتفريد ــ كارل وولفجانج فون لينسدورف فيتمتع بسمعة أقل احتراما مما كان يتمتع بها والده المتوفى · فكان مبذرا متلافا · وبلغت ديونه فى القمار مبالغ طائلة · وكانت طبــاعه ــ خاصــة فيما يتعلق بالنساء ــ لا تتورع عن اتيان أى فعل· وقد التحق بجامعة هيدلبرج لمدة ثلاث سنوات ولكنه تركها فى ظروف مريبة · أما آراؤه السياسية فمحافظة جدا ويحبذ العــودة الى · · ·

ــ وقاطعه هولمز بهدوء : «وماذا عن زواجه الثانى؟» ·

ــ « ثم تمت زيجة أخرى قبل شهرين من وفاته ، أثنــاء رحلة لأمريكا · فقد تعرف على وارثة لأحد مصــانع النسيج فى بروفيدانس وهى نانسى أوسبون سلاتر وتزوجا عــلى الفور » ·

ــ وتعجب هولمز قائلا : « وفيم كانت العجلة ؟ مثـــل هؤلاء الناس من ذوى الثروة والجاه عادة ما يطيلون فترة الخطبة والزواج حتى يستمتعوا بمباهجها وحفلاتها » ·

ــ فأجاب فرويد وهو يهز كتفيه : « لقد كان البارون

يناهز السبعين • ربما ـ بالنظر الى وفاته التى أعقبت الزواج مباشرة ـ ربما أحس بدنو أجله » •

ـ علق هولمز : « صحيح •• صحيح وأغرب فأغرب » واضطجع على كرسيه مرتديا ملابس السهرة وقد مد رجليه الطويلتين نحو المدفأة فى مكتب فرويد وعيناه تلمعان تحت جفونه شبه المغلقة • وكانت أطراف أنامله تتشابك كما كانت عادته عندما يرغب فى التركيز •

ـ واستمر فرويد فى حديثه : « ثم عاد الى أوروبا على ظهر السفينة « اليسيا » فى حوالى منتصف مارس • وذهبا مباشرة الى فيلا البارون فى بافاريا ـ وهو مكان منعزل فعلا يصعب الوصول اليه كما قيل لى ـ وهناك توفى البارون منذ حوالى ثلاثة أسابيع » •

ـ وتمعن هولمز فى الأمر : «أكثر قليلا من شهرين» ثم فتح عينيه وسأل : « هل استطعت أن تحدد سبب الوفاة ؟ » •

ـ وهز فرويد رأسه بالنفى : « لم يعد شابا كما قلت لك » •

ـ ولكنه كان فى صحة جيدة •

ـ « هذا صحيح فى حدود ما علمته » •

ـ « هذا آمر مثير للاهتمام » •

ـ فتدخلت قائلا : « ولكنه لا يؤدى الى شئ » فعندما يتزوج رجل عجوز حتى ولو كان متمتعا بالصحة ـ من امرأة عمرها أقل من نصف عمره •• » •

ـ وأجاب هولمز : « هذه نقطة وضعتها فى اعتبارى » ثم استدار الى فرويد « وما الذى حدث لأرملته ؟ » •

ـ وتردد فرويد ثم قال : « لم أستطع أن أعلم شيئا عنها ، ويبدو أنها تعيش هنا فى فيينا كما يبدو أنها أشد انعزالية من زوجها الراحل » •

فقلت : « مما قد يعنى أنها لا توجد هنا اطلاقا » •

وساد صمت ، كان هولمز خـلاله يتدبر تلك المعلومات ويخزنها في المكان الملائم في عقله الجبار • ثم قال : « ربما كان لمثل هذا الانعزال ما يبرره ، فهي في حالة حـداد • ولا تعرف الا عددا قليلا من الناس في هذا البلد ما لم تكن جاءت هنا من قبل ــ ولا تتكلم الألمانية •• وبالتأكيد انها لم تزر فيينا » •

ثم وقف ونظر في ساعته وقال : « يا دكتور هل السيدة زوجتك مستعدة لمرافقتنا ؟ أعتقد أنك ذكرت أن الستـار ترفع في الثامنة والنصف » •

لقد كتب الكثير عن دار أوبرا فيينا الأسطورية وبأقلام أبرع من قلمي بكثير ، مما يثنيني عن محـاولة وصف تلك الدار الخرافية • ومع ذلك فان زيارتي لهـا وهي في اوج مجدها ورشاقتها وفيينا في قمة ثرائهـا وعزها ، تجعلني أقول انني لم أشاهد الفخامة في أجلى صورها مثلما رأيت في تلك الليلة • كانت الثريات المتـدلية المتلألئة لا يضـاهيها الا الجواهر اللامعة على صدور الفاتنات اللاتي تزيين بأبهى الحلل • وكم تمنيت لو كانت ماري الى جانبي ! كانت الماسات تلمع على الدانتيلا والمخمل والأجسام الحريرية ، بحيث كان النظارة ــ بحق ــ لا يقلون بهاء عن المنظر •

وكانت الأوبرا المقدمة في تلك الليلة من أعمال فاجنر، ولكني لا أتذكر اسـمها الآن • وكان هولمز يعبـد موسيقا فاجنر • ويقول انها تساعده على التأمل، ولو أنني لا أستطيع أن أفهم كيف يحدث ذلك • وكنت أكره تلك الموسـيقا من أعماقي • لم يكن بوسعي الا أن أفتح عيني وأسد أذني وأنا أجاهد حتى تمر تلك الليلة التي لا تلوح لها نهاية • أما هولمز، الجالس على يميني، فقد انسجم مع الموسيقا منذ لحظة بدايتها • ولم يتكلم الا مرة واحدة ليلفت انتبـاهي الى فيتللي العظيم ، وكان شخصا قصير القامة على رأسه « باروكة » شقراء فظيعة المنظر ، ذا سـاقين سمينتين وظهر في الجزء الأوسـط من

الأوبرا • وأستطيع أن أقرر بكل تأكيد أن رجليه كانتا سمينتين لأن جدد الكاب الذى كان يرتديه كان يعريهما تماما، لقد ولى زمنه بكل تأكيد •

ــ وعلق هولمز فيما بعد : « ما كان يجب عليه أن يقدم فاجنر » « لا تليق به » وسواء اكانت تليق به ام لا فقد مضى زمنه • ومهما كان الأمر فان هولمز قضى ساعتين باستمام والاكمال فى عالم اخر غير عالمنا هذا • وكانت عيناه مغلقتين معظم الوقت ، ويداه « تنقران » على ساقيه مع الموسيقا ، بينما راحت عيناى تجوبان الدار بحثا عن شيء أتسلى به من هذا الملل المميت •

واذا كان هناك شخص آخر أسقمته الأوبرا سواى فلم يكن سوى فرويد • كانت عيناه مغلقتين لا بدافع التركيز وانما بسبب النوم • الأمر الذى حسدته عليه •

وبين الفينة والفينة ، كان شخيره يتصاعد ولكن ذراو فرويد كانت تلكزه فيستيقظ مذعورا ينظر حوله فى دهشة • ولم يكن اهتمامه بالموسيقا يتعدى الفانس وبضعه اشياء اخرى • وكانت رغبة هولمز فى حضور الاوبرا هى التى دفعته لدعوتنا • ولا شك أنه رغب فى تشجيع اول بادرة تبدو من مريضه وتنم عن اهتمامه بالعالم الخارجى • ولكنه ــ أى فرويد ــ ما أن وصل الى الأوبرا حتى وجد انه غير قادر على الاستجابة للغناء أو المؤثرات المسرحية ، وكان بعضها مسليا جدا • وأخذ يشاهد فى تبلد تنينا ظهر على المسرح وقد أحكم صنعه وتحركه آليات ماهرة • وبينما كان فيتللى العظيم يستعد لذبحه (١) بدأ التنين فى الغناء مما دفع بفرويد الى أحضان النوم ثانية ، ولابد أننى استسلمت للنوم كذلك • اذ لم أدر الا والأنوار تضاء والناس ينهضون من مقاعدهم •

---

(١) أغلب الظن انها كانت اوبرا سيجفريد (نيكولاس ماير) •

كانت هـذه الاستراحة الأولى • وقدمت ذراعى لفراو فرويد وخرجنا نحن الأربعة الى الردهة بحثا عن المشروبات • وعندما مررنا بقرب المقاصير فى الطابق الاول ، تـوقف هولمز وتطلع اليها ، ثم قال بهدوء : « ألم يكن البارون فون لينسدورف راعيا للأوبرا ؟ اذن سنكون هناك مقصورة باسمه بالتأكيد » مشيرا بطرف عينه الى المقصورات دون ان يميـل برأسه •

فوافقه فرويد وهـو يغالب التثاؤب : « بالتـأكيد • ولكننى لم أحصل على معلومات مؤكدة بشأن هذا الموضوع » •

واقترح هولمز : « فلنحاول معرفة ذلك » وتحرك صوب الدهليز •

كانت الأسر الارستقراطية والعائلات الثرية لهـا حظ اقتناء مقصورة فى الأوبرا • ولم يكن بها حاجة الى التدافع للحصول على ما تريده من مشروبات ، فقد كان هناك الخدم ذوو المـلابس المزركشـة يحملـون اليهم فى مقصـوراتهم ما يحتاجونه • أما بقية الناس فكان عليهم أن يتبعوا أساليب بهلوانية ليشقوا طريقهم من خلال حلقة من السـيدات حتى يصلوا الى الدائرة الضيقة المحيطة بالبار •

وتركت فرويد وزوجتـه يتجـاذبان أطراف الحـديث وغامرنا أنا وهولمز بالمرور فى ذلك الزحام ورجعنا منتصرين ولو أننى سكبت نصف كأسى تقريبا عندما انحرفت لأتفادى شابا مندفعا فى الطريق المضاد •

ووجدنا فرويد يتحادث مع سيد طويل القامة فى ثياب أنيقة يبدو لدى النظرة الأولى شابا ولكنه لا يبدو كذلك لدى النظرة الثانية • وينظر الى العالم من خلال نظارات أنفيـة سميكة لا أظن أني رأيت أسمك منها فى حيـاتى • وكانت

ملامحه وسيمة متناسقة وشـديدة الجـدية ولو أنه ابتسـم ابتسامة خفيفة عندما قدمنا فرويد اليه :

ــ « دعونى أقدم لكم هوجو فون هوفمانستال · هـذه زوجتى التى تعرفها وهؤلاء السادة ضيوفى هر هولمز ودكتور واطسون » ·

وبدت على فون هوفمانستال الدهشة :

ــ « أنتما هر شرلوك هولمز ودكتـور جون واطسـون بعينهما ؟ ·· هذا شرف عظيم ! » ·

ــ وأجاب هولمز بلطف : « لا يقل عن تشرفنا بك ــ ومال برأسه قليلا ــ اذا كنت أنت مؤلف « جسترن » ·

ــ وانحنى الرجل انحناءة كبيرة بينما اندفعت حمرة الخجل حتى قمة رأسـه · وكانت استجابة احراج مشـوب بالسرور · لم أكن أتوقعهـا منـه · ولم تكن لدى فكرة عن « جسترن » التى أشار اليها هولمز · ولهذا لذت بالصمت ·

ووقفنا سويا عدة دقائق نحتسى الشمبانيا ، بينما دخل هولمز مع فون هوفمانستال فى مناقشـة حاميـة عن أوبراته وسأله عن زميله الذى يتعاون معه فى تلك الأوبرا وهـو من يدعى ريتشارد شتراوس · والذى لم أستطع ايجاد صلة بينه وبين شتراوس صاحب الفالسات الذائعة الصيت(١) · وكان صاحبنا الجديد يحاول الاجابة على أسئلة هولمز بقدر ما يمكنه بلغة انجليزية « مكسرة » متجـاهلا الأسئلة الأكثر صـعوبة التى وجهها هولمز بشأن الايقاع الشـعرى الذى يفضله فى كوميدياته · ثم سأل عن السبب فى وجودنا فى فيينا ·

---

(١) يبين اهتمام هولمز بفون هوفمانستال ومعرفته بالتعاون بينه وبين شتراوس بأنه كان على الفة بالمحاولات الفنية المحددة · وقد اكتسح هذان الرجلان ، بعد عدة عقود ، العالم عندما قدما أوبرا « الفارس الوردى » (نيكولاس ماير) ·

ـ « هل السبب أنك تبحث قضية جديدة ؟ » تساءل فى دهشة وعيناه تلمعان بفضول التلميذ ٠

ـ وأجابه هولمز « نعم ولا » ثم استطرد قبل أن يتـابع الآخر الحديث «هل البارون فون ليسندورف الجديد، له نفس الاهتمام الذى كان لوالده بالأوبرا ؟ » ٠

ـ وكان السؤال مفاجئا حتى ان فون هوفمانستال ذهل للحظة وظل يحملق فى صديقى ببسـاطة ٠ ولـكنى فهمت المنطق الكامن وراء السؤال ٠ اذ لما كان فون هوفمانستال من نجوم الحياة الفنية الأوبرالية فى فيينا فلابد أن معرفته بمن يرعونها ستكون وثيقة بلا شك ٠

ـ وأجابه الشاعر ببطء وهو يدير ساق كأسه فى يده سارح البال : « ان سؤالك هذا من أغرب الأمور » ٠

ـ فسأله فرويد الذى كان يتـابع الحـديث باهتمام : « وما وجه الغرابة ؟ » فرد فون هوفمانستال بسرعة وبالغـة ألمانيا فصيحة : « لأنه حتى هذه الليلة كانت اجابتى ستكون لا ٠٠ فلم أعرف عنه قط أن له أى اهتمـامات بالأوبـرا ٠ وبصراحة لقد خشيت أن الموسيقا بوفاة البارون الـكبير قد فقدت واحدا من أقوى أنصارها » ٠

ـ وقال هولمز : « والآن ؟ » ٠

ـ « والآن » رد عليه الشاعر بالانجليزية : « انه اليـوم فى الأوبرا » ٠

ـ « البارون هنا الليلة ؟ » ٠

فهز فون هوفمانستال رأسه وهـو فى حـيرة من أمره ويشتم رائحة قضية جديدة وقال : « تعال ٠٠ سأريك اياه » ٠

كان جمهور الرواد يعود عندئذ الى الداخل بعد أن رن الجرس المؤذن ببدء الفصل التالى · وقادنا فون هوفمانستال الى مقاعدنا فى الصالة ــ رغم أن مقعده لم يكن معنا ــ (وكان فى الحقيقة قد ذهب الى « البوفيه » ليحضر شمبانيا لمن معه ولكنه لم يوصلها قط لأن فرويد استوقفه) ثم التفت الى الخلف نحو المقاصير متظاهرا بأنه يبحث عن شخص ما ولكز هولمز فى جنبه قائلا : «هناك المقصورة الثالثة الى اليسار» ·

ونظرنا الى حيث قال فرأينا مقصورة يجلس فيها شخصان · ولاحت لنا للوهلة الأولى سيدة تلبس ملابس فاخرة بينما تلمع حلى من الزمرد فى شعرها الداكن المصفف · وكانت تجلس بلا حراك الى جانب سيد وسيم يطالع جمهور الرواد بقلق من خلال منظار الأوبرا الذى يحمله وكانت تزين وجهه لحية منمقة تحيط بذقن قوية وشفاه رقيقة وكان بوجهه شىء ، وتصورت للمحظة أن الشخص ينظر الينا ، فقد كانت محاولة فون هوفمانستال للتخفى مليئة بالزهو والتفاخر ·

لقد كان مؤلفا للدراما ، وكان يعتقد أنه يؤدى خدمة الى هولمز فى بحث جنائى ما (وهذا صحيح) ، الا أن الموقف جعله يتصرف بشكل ميلودرامى · ولو أنه كان حسن النية بالطبع ·

وفجأة أنزل الرجل فى المقصورة منظار الأوبرا عن عينيه ، وشهقت أنا وفرويد · لقد كان ذلك الشخص الشرير ذو الندبة الذى هزمه فرويد شر هزيمة فى ملاعب التنس فى مومبرج · وعلى أية حال فلم يبد عليه أنه تعرف علينا ــ اذا كان قد رآنا ــ وكذلك لم يبد شرلوك هولمز ــ اذا كان قد لاحظ استجابتنا ــ أى تغير ·

وسأل هولمز : « من هذه السيدة ؟ » ·

ـ « آه هـذه زوجة أبيـه عـلى ما أعتقـد ٠٠ الوارثة الأمريكية نانسى أوسبورن سـلاتر فون ليسـندورف وكنت لا أزال أحملق فى ذلك الجمال الباهر عندما أطفئت أنـوار الصالة وأحسست بهولمز يجذبنى من كم سترتى حتى أعتدل فى جلستى وأذعنت ، ولكنى لم أستطع منع نفسى من أن ألقى نظرة أخرى على ذلك الثنائى الغريب ـ البارون الوسـيم ورفيقته الساكنة كأنها تمثال بينما تلمع ماساتها فى الظلام والستار يرفع عن الفصل الثانى ٠

الفصل الثانى عشر

كشف السر

لا يحتاج الأمر الى القول ان ما صرح به هوجو فون هوفمانستال قد أطاح بأية متعة كنت أتوقعها من مشاهدة الجزء الثانى من الأوبرا . اذن فقد كانت المرأة الجالسة فى مقصورة البارون فون لينسدورف هى أرملته ؟! . ودار عقلى فى محاولة استيعاب تلك المعلومة وفهم مغزاها . أما هولمز فلم يكن منه رجاء على الاطلاق ، وحاولت أن أهمس فى أذنه خلال العرض الا أنه أسكتنى واضعا اصبعه بوقار على شفتيه واستسلم للموسيقا تاركا اياى غارقا فى تأملاتى .

لقد نشأت مجموعة أخرى من الاحتمالات . فالمرأة الجالسة أمامنا اما أن تكون الأرملة الأسطورية لملك السلاح والذخيرة واما أن تكون مدعية . فاذا كانت هى من تدعى — ولم يكن هناك بد من الاعتراف بأنها تبدو كذلك — فمن بحق السماء تكون المرأة الأخرى ، عميلتنا التى كان لديها تلك المعلومات الحميمة والتى تم اختطافها نتيجة لذلك ؟

واختلست نظرة الى فرويد ورأيت أنه كان هو أيضا غارقا فى تأملاته . وبدا للوهلة الأولى أنه مهتم بمشكلة المغنى الذى يرتدى فراء الدب ، ولكن اختلاجات جفنيه دلت على أن أفكاره تسرح بعيدا .

وفى العربة التى أقلتنا بعد ذلك الى المنزل ، كان هولمز لا يزال سابحا فى ملكوته رافضا أن يناقش أى أمر ومقتصرا على بعض الملاحظات عن العرض .

وعنــدما استقر بنا المقام أخيرا فى مكتبة فرويد ١٩ شارع برجاس • ودع زوجته متمنيا لها نوما هنيئا ، ودعانا الى تناول البراندى وتدخين السيجار • وقبلت الاثنين • اما هولمز فقد اكتفى بوضع قطعة من السكر فى فمه التقطها من الاناء الصينى الأبيض المدور فى المطبخ وجلسنا فى مقاعدنا مستعدين لمناقشــة خطواتنا التالية ــ ، عنــدما همهم هولمز يعتــذر قائلا انه سيعود حالا • وعبس وجه فرويد عنــدما غادر هولمز الغرفة وزم شفتيه ونظر الى فى حزن • ثم قال : « اسمح لى يا دكتور أنا الآخر ، أو ربما كان الأفضل ان تأتى معى » وتبعته وآنا فى حيرة من أمرى ، بينمـــا انطلق فى خطوات سريعة خارج المكتب واندفع يقفز فوق الدرج ، ودون استئذان دفع باب غرفة هولمز بقوة • ورأيناه جالسا يحملق فى « حقنــة » وقنينة صغيرة ، أدركت أن بهـــا كوكايين ، موضوعتين على المنضدة ، ولم تبد عليــه الدهشة لرؤيتنا ، ولكنى انزعجت للمنظر لدرجة أننى فتحت فمى من الدهشة • وظل فرويد بلا حراك • وتبادل هو وهولمز النظرات كأن بينهما تواصلا صامتا • وأخيرا قطع هولمز الصــمت وعــلى شفتيه ابتسامة حزينة : « لقد كنت أفكر بالأمر » •

ــ «هذا ما توقعته عندما رأيتك تتناول السكر • ان بعض أساليبك لها صلة بالملاحظة الطبية ، كما تعرف • وعلى أية حال عليك أن تتدبر الموقف بعناية : فلن تستطيع أن تساعد السيدة التى أخذت على عاتقك مساعدتها هــذا الصباح فى المستشفى ان عدت الى سيرتك الأولى » •

ــ « أعلم ذلك » •

ونظر هولمز مرة أخــرى الى القنينة على المنضدة بينما استندت ذقنه الى راحتيه • وبدا الكوكايين والحقنة كما لــو أنهما قرابين على مذبح أحــد الآلهة • وارتعــدت وأنا أفكر كيف أن الكثيرين من هؤلاء التعساء يجبرهم الادمان على أن

يعتبروا المخدرات عقيدتهم والاههم ، وأدركت عنـدما قام هولمز وأدار ظهره للحقنة أنه لم يعد ينتمى الى تلك الزمرة ٠

وجمع الحقنة والقنينة فى يده وأعطاهما الى فرويد (ولم أعلم قط كيف حصل عليهما) .وتناول غليونه الأسود وتبعنا ونحن نخرج من الغرفة وأغلق بابها بحرص ٠

عدنا الى مقـاعدنا فى مكتب فرويد ، الذى امتنع عن التعليق على الواقعة ٠ وبدلا من ذلك قص على هولمز مقابلتنا للبارون الشـاب فى مومبرج ، بينما أنصت البوليس السرى دون تعليق اللهـم الا ملاحظـة واحـدة : « لا يسـتطيع أن يسـتخدم ظاهر اليد ؟ هـذا مثير للاهتمام ٠٠ وكيف كانت رمية الارسال لديه ؟ » ٠

وقاطعت هـولمز وسـألته ان كان قد وصـل الى أى استنتاجات ٠

فقال : « لقد وصلت الى الأشياء الواضحة فقط ، وهى مؤقتة فى انتظار المزيد من المعلومات والبراهين » ٠

ـ فقال فرويد « وكيف نميزها ؟ » ٠

ـ «أخشى انها لن تثبت الا فى المحكمة ، فقد نصل الى أى استنتاجات نشاء ، ولكن ما لم نبرهن عليها فالأفضل لنا أن نظل فى أسرتنـا » وضـحك وهـو يصب لنفسـه قدحا من البراندى الذى كان قد رفضه قبل ذلك « لقد كانوا شديدى المهارة ، بل ان مهارتهم شـيطانية ٠ وحيثما لم تسـاعدهم مهارتهم ، أتت الطبيعة لنجدتهم بأن قدمت لنا شاهدة قليلة القيمة بل ومشكوكا فيها ان لم تكن غير صالحة على الاطلاق لتقديمها فى المحكمة » ٠

وجلس يفكر فى صمت ، ينفث دخان غليونه بين الفينة والفينة بينما نحن نراقبه دون أن نجرؤ عـلى قطع حبـل تأملاته ٠

ـ وتنهد أخيرا وقال : أخشى أن معرفتي بالسياسة الأوروبية ليست بالعمق اللازم فهل لك أن تساعدنى يا دكتور فرويد ؟

ـ « وكيف أساعدك » ٠

ـ « أريد بعض المعلومات العامة ٠٠ ألا يزال الأمير أوتوفون بسمارك حيا » ؟ ٠

ـ « أعتقد ذلك » ٠

ـ ولكنه لم يعد مستشار ألمانيا ٠

ـ ونظر اليه فرويد مندهشا وقال : « كلا بالتأكيد ٠٠ منذ ما يقرب من عام الآن » ٠

ـ « آه » وعاد الى صمته العميق مرة أخرى بينما تبادلنا أنا وفرويد النظرات فى حيرة ٠

ـ وصاح فرويد : « ولكن ياهر هولمز ٠٠ أية علاقة لفون بسمارك بذلك » ؟ ٠٠

ـ « ألا يمكنك أن ترى العلاقة ؟ ، ونهض واقفا وأخذ يذرع الغرفة : « كلا ٠٠ لا أظنك تستطيع أن ترى ٠٠ » ثم عاد الى مقعده وقال : « هناك حرب أوروبية يعد لها ٠٠ هذا واضح تماما » ٠

ونظرنا اليه مصعوقين ٠

وشهقت قائلا : «حرب أوروبية» فأومأ برأسه ، وهو يفتش جيوبه بحثا عن ثقاب « وذات أبعاد مخيفة أيضا اذا صدق حدسي » ٠

ـ « ولكن كيف استنتجت ذلك مما رأيته اليوم » وكانت لهجة فرويد توحي بأن هناك شكوكا تدور في رأسه بشأن حالة هولمز العقلية ٠

ـ « من التجاوب بين البارونة فون لينسدورف وابن زوجها » ٠

ـ « ولكنى لم ألاحظ أى تجاوب » ٠

ـ « طبعا فلم يكن هناك شيء من ذلك » ٠

ووضع كأسه على المنضدة ونظر الينا بعينيه الرماديتين متمعنا : « يا دكتور فرويد أيوجد هنا مكتب لتسجيل الوصايا ؟ » ٠

ـ « الوصايا ٠٠ آه نعم هناك مكتب بالتأكيد » ٠

ـ « اذن سأكون ممتنا لك اذا استطعت غدا صباحا أن تتنازل عن شيء من وقتك لتبحث لى فى ذلك المكتب عمن يتولى ادارة شئون أملاك البارون فون لينسدورف » ٠

ـ ورد فرويد محتجا : «لدى مريض في العاشرة صباحا» ولكن هولمز ابتسم ورفع يده قائلا :

« هل تصدقنى اذا قلت لك ان هذه المهمة تتوقف عليها حياة الملايين لا حياة شخص واحد ؟ » ٠

ـ « حسنا سأفعل ما تريد ، وماذا ستفعل أنت ؟ » ٠

ـ « سأبحث ، بمساعدة صديقى الدكتور واطسون ، عن شق فى جدار الأعداء » ونفض رماد غليونه ثم سأل « هل تستطيع مريضتنا أن تسافر غدا ؟ » ٠

ـ « تسافر ! أين ؟ وما طول المسافة » ٠

ـ « ليس لمسافة بعيدة ، داخل المدينة فحسب ، أريدها أن تقابل شخصا ما • تمعن فرويد الأمر للحظة ثم قال بلهجة متشككة ، لا بأس •• انها تبدو لى فى صحة جيدة بصرف النظر عن حالتها والضعف الناشىء عن سوء التغذية ، وأعتقد أن هذا الوضع قد تحسن الآن » •

ونهض هولمز وهو يتثاءب ويغطى فمه بظاهر يده قائلا : « لقد كان يومنا طويلا وتبدو لى الأيام المقبلة أكثر طولا • ولذلك فهيا الى النوم » وانحنى لنا وغادر الغرفة •

وتساءلت بصوت عال : « ما الذى يراه هولمز فى ذلك الأمر ؟ » •

ورد فرويد : « ليست لدى أية فكرة ، وعلى أية حال لقد حان وقت النوم ، لا أذكر أننى أجهدت كما أجهدت الليلة » •

وكنت أنا ايضا قد بلغ بى الاجهاد مداه • ولدن عقلى ظل يقظا يضرب أخماسا فى أسداس حتى بعد أن غرقت فى النوم ، محاولا ان افك طلاسم هذا اللغز الذى صادفناه على غير توقع خلال زيارتنا لهذه المدينة الجميلة ولكن بالغة الغرابة • حرب أوروبية (وملايين الأرواح) صحيح أننى كنت دائما مشدوها بالقوى العقلية الخارقة لصديقى ولكنى لم أشاهده قط يستنتج شيئا بمثل هذه الضخامة من معلومات بالغة الضآلة ••

ويا للهول ! ماذا اذا صحت أقواله ؟ • لم أدر كيف قضى فرويد ليلته ولكن أحلامى كانت أكثر فزعا من مخاوف يقظتى • ولم تعد مدينة شتراوس الممتعة البهيجة ترقص على ألحان فالساته البديعة ، ولكنها كانت تفور وتمور على صرخات كابوس فظيع •

وتناولنا افطارا سريعا فى صباح اليوم التالى قبل أن

ينطلق كل منا الى مهمته • وأكل هولمز بشـهية كبيرة بينت انه استعاد صحته • أما فرويد فقد اكل بنوع من الحسم ولكنه لم يكن ميالا الى الحديث وبينت تعبيرات وجهه القلقه انه قضى ــ مثلى ــ ليلة ليلاء •

كنا على وشك الافتراق عند الباب الأمامي ، عنـدما وصل رسول يحمل برقية الى شرلوك هولمز • فتناولها وفتح المظروف وقراها بشغف قبـل ان يدسـها فى جيب معطفه ، بدون تعليق ، وأشار الى الرسول بالانصراف فلم يكن هناك رد والتفت الينا قائلا : «مازالت خططنا كمـا هى»، وانحنى لفرويد متجاهلا نظرات الفضـول الواضـح فى أعيننـا • وانصرف الطبيب مسـتاء متجهما ، واسـتدار هـولمز الى : « والآن يا عـزيزى واطسـون فلننصرف الى مهمـتنا نحن أيضا » •

استأجرنا عربة اتجهت بنا الى المسـتشفى ، وهنـاك أبرزنا مذكرة كتبها لنا فرويد بخط يده مكنتنا من اصطحاب المريضة • وبدت متحسنة من الناحية الجسمية ولو أنها كانت لا تزال شديدة النحافة ولم تنبس ببنت شفة • ومضت معنـا دون مقاومة وركبت العربة التى كانت فى انتظارنا بالخارج• وانطلقت العربة ، وكان هولمز قد كتب العنوان على أسـورة قميصـه ، وسـارت بنـا العربة الى غايتنا الغامضـة • ولم يكن هولمز على استعداد للافصاح عن شىء أمام الراكبـة الجالسة معنا وقال لى : « كل شىء بأوان يا واطسون •• كل شىء بأوان » •

وأصررت على المضى فى محاولتى فسألته : « ماذا تتـوقع أن يجد دكتور فرويد فى السجلات ؟ » •

ــ « سيجد ما أعرف أنه سيجده » •

وتحول الى عميلتنا وابتسم لها مطمئنا ، ولكنها كانت

تنظر أمامها ولم يبد عليها أى وعى بايماءاته وكانت عيناها الزرقاوان الرماديتان خاليتين من آى تعبير ·

وعبرت العربة قناة الدانوب ودخلت الى قطاع من المدينه تحتله منازل ، بل قصور ، واسعة · وكانت حلها تحيط بها أسوار عالية الشجيرات كما كانت المنازل نفسها بعيدة عن الطريق لا تكاد تلمح منها الا أطراف ابراجها وحدائقها الفخمة المهيبة ·

وتوقفنا آخيرا فى شارع فالنشتاين ودارت العربة الى مدخل واسع يؤدى الى منزل قبيح المنظر يقع على ربوة مرتفعه قليلا وكانت المساحة التى تقع امامه مباشرة تحتلها حديقة واسعة حسنة التنظيم ·

وكانت هناك عربة أخرى تقف أمام المدخل المسقوف للبناية ، وبينما نحن نساعد عميلتنا على النزول ، فتح بوابة المنزل وخرج منها سيد متوسط الطول مشدود الظهر شديد الاستقامة · مع أنه كان يرتدى معطفا وملابس مدنية فان حركاته كانت تنم عن النظام والدقة المشهود بهما للعسكريين عامة وللتدريب البروسى الشاق بخاصة · الا أن ملامحه لم تكن بروسية · وذكرنى وجهه ، الذى بدا مألوفا لى بشكل غامض ، بالمنظر المعروف للكتبة أو الموظفين الانجليز · وكانت على عينيه نظارة أنيقة وبدت سوالفه مشذبة بأناقة وبدا عليه مشغول البال كأنه لا يعرف بالضبط أين هو ·

وانحنى لنا ، أو على وجه الدقة للسيدة التى كانت تستند الى ذراعى ، ولمس قبعته بأصابعه فى تحية كريمة ، واختفى داخل العربة التى انطلقت فورا دون أى اذن منه أو على الأقل لم أسمعه ·

وحملق هولمز فى العربة التى سارت للحظة وهو مقطب

الجبين وسألنى : « هل تتذكر رؤية هــذا الســيد فى الأيام الأخيرة يا واطسون ؟ » ٠

ــ « أجل ولكنى لا أتذكر أين ٠٠ ولكن يا هولمز منزل من هذا ؟ » ٠

ــ ونظر الى مبتسما وجذب الجرس وقال : « انه مقــر البارون فون لينسدورف فى فيينا » ٠

ــ « ولكن يا هولمز هذا شىء مفزع » ٠

ــ « لمــــاذا ؟ » وخلص ذراعه بلطف من قبضتى « ان البارون ليس هنا الآن » ٠

ــ « ولكن اذا عاد ؟ أنت لا تدرك أى أذى يمكن أن ينتج عن تلك المواجهة » مشيرا الى رفيقتنا « الخرساء » ــ « أعتقد أنه كان يجب عليك مشاورة الدكتور ٠٠ » ٠

ــ فقاطعنى بجدية : « يا عزيزى واطسون أشــكر لك عواطفك النبيلة ونصائحك الغالية ٠ ولكن الوقت له قيمة كبرى ، واذا استطعنا أن نفرض أنفسنا فلنفعل ٠ وعلى اية حال لا يبدو عليها أية استجابة لمرأى المنزل ٠ ومن يدرى ؟ ربما اذا استجابت تكون هــذه هى الصــدمة التى تعيــدها الى رشدها » ٠

وانفتح الباب الكبير وخرج الينا خادم فى بزة رسميه ، ذو مظهر جامد لا يبدو عليه أى انفعال وسألنا عن مبتغانا ٠ فأعطاه هولمز بطاقته ، وطلب منــه بالألمانيــة ــ التى تحسن أداؤه فيها منذ اقامتنا فى فيينــا ــ أن يقدمهــا الى ســيدة المنزل ٠

وتراجع الخادم الى الخلف دون أن يغير من سمته بعــد

أن يسمح لنا بالبقاء فى غرفة للانتظار ذات سقف مقبب عال، ومن خلالها رأينا قاعة مستطيلة ضخمة باذخة ولكن قبيحة المنظر مثلها مثل المظهر الخارجى للمنزل . كانت جدرانها مغطاه بخشب البلوط وأرضيتها مكسوة بالسجاد وعلى الحائط أسلحة من العصورالوسطى وصور فى اطارات مذهبة لم أستطع تبين موضوعاتها من موقعنا فى الردهة. وانساب ضوء ضئيل من خلال نوافذ زجاجية ضيقة .

وهمهم هولمز فى أذنى : « هل رأيت مكانا أبشع من ذلك ؟ .. انظر الى تلك السقوف » .

ــ « يا هولمز لابد لى أن احتج على تلك الطريقة ، قل لى يا رجل على الاقل ماذا يدور .. من سيحارب فى تلك الحرب المقبلة ؟ » .

ــ « أخشى أن أقول انه ليست لدى أدنى فكرة » ، أجابنى بفتور وهو لا يزال يحملق فى الزخارف الخشبية المحيطة بنا :

ــ اذن كيف بحق الألهة استنتجت ؟ .

ــ فأجاب بشىء من الحدة : « انظر هنا.. لدينا منافسة لامتلاك ضيعة تحتوى على مصانع ضخمة لانتاج الذخيرة .. لن يكون استنتاج الأمر صعبا .. » وقطع حديثه اذ لمح الخادم قادما من القاعة ؟ .

ــ وأشار الخادم الينا : « اتبعونى اذا سمحتم فسأقودكم الى البارونة » .

واتضح لنا أنه كان لابد من دليل . اذ كان المكان فسيحا مليئا بالممرات والدهاليز بحيث كان من المستحيل أن نستدل على صالون استقبال البارونة .

كانت الغرفة مؤثثة بذوق أكثر حداثة من الغرف التى لمحناها فى طريقنا اليها ولكن الذوق كان واحدا .. شنيعا للغاية .. الكسوة من قماش رخيص ذى لون أحمر زاه بينما غطت ظهور المقاعد ومساندها وكل قطع الأثاث مفارش من الدانتيلا .

وجلست على الأريكة وسط هذا الكم الهائل الموحد اللون ـ كطير جميل وسط عشه ـ المرأة الجميلة التى لمحنا طرفا منها فى الليلة الماضية . ونهضت عندما دخلنا الغرفة وحادثتنا بلغة انجليزية ذات لكنة أمريكية .

ـ « السيد شرلوك هولمز على ما أعتقد ؟ الام نعزو شرف هذه الزيارة » ..

وتوقفت فجأة وأطلقت صيحة تنم عن التعرف بينما ضمت يديها الى صدرها بحركة لا ارادية واتسعت عيناها الجميلتان من الدهشة وصاحت : «الهى.. هل هذه نورا؟».

وأسرعت بخطاها ، متجاهلة وجود هولمز ووجودى وجذبت ذراع عميلتنا بلطف بحيث أوقفتها فى الضوء حيث أخذت تتفحصها بتمعن . أما عميلتنا فقد ظلت على حالها مستسلمة ولا مبالية وتحملت فحص البارونة لها وهى فى حالة من اللامبالاة والملل .

ـ وصاحت البارونة وهى تنقل نظراتها من الواحد منا الى الآخر فى حالة من الاضطراب المتعجرف : «ماذا حدث؟.. انها متغيرة تماما » .

ـ وسألها هولمز بهدوء وهو يراقبها بعناية ، بينما عادت البارونة الى الاعتناء بالمرأة التى سمتها نورا : « هل تعرفين هذه السيدة ؟ » .

ـ « أعرفها .. بكل تأكيد هذه خادمتى الخصوصية نورا سيمونز ، لقد فقدناها منذ عدة أسابيع دون أى اثر .. يا للسماء يا نورا ماذا حدث وكيف تمكنت من الوصول الى فيينا ؟ » .

كانت ملامح وجهها تنم عن الدهشة البالغة التى تحولت الى عطف واهتمام خلال تفحصها للوجه الذابل للمرأة الأخرى .

ـ « أعتقد أنها غير قادرة على الاجابة عن أسئلتك ، وتقدم منها وساعد نورا سيمونز (اذا كان هذا هو اسمها فعلا) على الجلوس . وشرح للبارونة باختصار كيف عثرنا على خادمتها .

وصاحت السيدة بعد أن انتهى من حديثه : « ولكن هذا أمر مروع .. أتقول انها اختطفت ؟ » .

ـ أجابها المخبر السرى بنبرات محايدة : « هذا ما يبدو .. هل أفهم من حديث سيادتكم أنها قد صاحبتك الى بافاريا ؟ » .

ـ « طبعا ، انها لم تفارقنى منذ أن أبحرنا ـ اللهم الا فى أيام اجازتها » وبان على وجهها غضب فيه شىء من النبل واستطردت : «وقد اختفت منذ حوالى ثلاثة أسابيع » .

ـ وقال هولمز : « يوم وفاة البارون ؟ » .

واحمر وجه البارونة بشكل عميق وأصابعها تتشابك مع بعضها البعض :

ـ « نعم ، لم تكن نورا فى الفيلا عندما وقع الحادث المشئوم ، فقد كانت فى القرية المجاورة ، أرجولدزيخ ،

أعتقد أن هـذا هـو اسمها • وفى غمرة الاضـطراب الذى حدث ، لم يفتقدها أحـد • وعلى أية حال فقـد كان يـوم اجازتها • وعندما لم تعد فى الصباح التالى • ظننت انهـا ربما ، عندما علمت بالمأسـاة ، انتابهـا الفـزع • وكانت طبيعتهـا من النـوع العصبى ، كما أعلم تماما » وتوقفت لحظة ثم استطردت : « كما ترى ، كنا قريبتين من بعضـنا جـدا ـ كانت العـلاقة بيننا أكثر بكثير من علاقة سـيدة بخادمتها •• ولكن عندما غابت بعد ذلك • دون ارسال أى رسـالة ، بدأت أخشى أن يكون حـدث لها مكـروه فأبلغت الشرطة • وربما كان على أن أبلغ الشرطة قبل ذلك ولـكن وفاة زوجى المفاجئة قد أفسدت كل شىء » •

ـ « قلت انك خشيت أن يكون حدث لها مكروه ، فهـل تشكين فى وجود غدر ؟ » •

ـ « لم أدر وقتهـا كيف أفكـر •• كانت قد اختفت » وانهارت البارونة فى يأس واستسلام بينما ارتسمت عـلى وجهها علائم الأسى فى رشاقة ولطف • وكان من الواضح أن مشاعرها قد طغت عليهـا بل ان مجـرد الذكرى كان كافيا لذلك ومع ذلك فقد ألح هولمز فى سؤالها :

ـ «ألم تستطع الشرطة أن تخبرك بتحركات خادمتك؟» •

هزت رأسها نفيا ، ثم اندفعت لتمسك بيدالمرأة الأخرى تضغطها فى حنان : « يا فتاتى العزيزة كم ارتحت لرؤيتك مرة أخرى ! » •

ـ وسألها هولمز وهو يرمقها بانتباه : «هل لى أن أستفسر عن الطريقة التى لقىَ بها زوجك حتفه ؟ » •

تلون وجه البارونة بشدة مرة أخرى وأخذت تنقل بصرها بيننا نحن الاثنين فى حيرة شديدة . ثم قالت ببساطة فى همس لا يكاد يسمع «قلبه» . كان الموقف محرجا . ونهض هولمز واقفا وقال : «آسف لسماع ذلك .. يبدو آن عملنا هنا قد انتهى يا واطسون .. لقد حللنا اللغز الصغير » ومد يده ممسكا بذراع نورا سيمونز والتفت الى البارونة قائلا . « سيدتى . نأسف لازعاجك والحضور فى وقت حزنك ونشكرك على وقتك الثمين » .

ـ ونهضت البارونة كذلك قائلة : «هل ستأخذونها منى مرة أخرى .. اننى لم أكد أهنأ بلقياها .. وأؤكد لك يا مستر هولمز ان وجودها ضرورى لسعادتى » .

ـ « انها ، فى حالتها الراهنة ، لا تصلح لأى شىء » ثم بجفاف : «انها تحتاج لتلقى الرعاية لا أن تبذلها للآخرين ، ومد يده الى البارونة مرة أخرى ، ولكنها قالت بنوع من التأكيد :

ـ « ولكنى سأعتنى بها بنفسى .. ألم أقل لك انها رفيقتى مثلما هى خادمتى ؟ » كان فى لهجتها نوع من التوسل حتى اننى كنت على وشك ان أرجو هولمز أن يترك لها الفتاة . لأن الحب قد يكون أحيانا أفعل من الدواء . ولكنه سارع الى القول بحسم : «أخشى ألا يكون ذلك مستطاعا ، فان خادمتك تحت رعاية ومسئولية الدكتور سيجموند فرويد فى مستشفى كرانكنهاوس ، وقد سمحنا لأنفسنا أن نصطحب الفتاة الى هنا دون موافقته ، ولم أكن لأفعل ذلك لولا أن التحقق من شخصيتها أمر فى غاية الأهمية ..

ـ « ولكن » .

ـ « غير أننى أعتقد أنه في الامكان أن أقنع الدكتور

باخراجها من المستشفى ووضعها فى رعايتك • ولا شـــك انك فى بروفيدانس كنت تشــاركين فى الأعمــال الخيرية وتساعدين الكنيسة فى رعاية الفقراء والمشردين»، وسارعت البارونة الى الاجابة :

ــ « طبعا طبعا •• لقد كنت نشطة فى الأعمال من هذا النوع » •

ــ « هذا ما ظننته • وتأكدى يا سيدتى أننى ســانقل هذه المعلومات الى الدكتور فرويد ولا شك أنه سيضع ذلك فى الاعتبار عند اخراجه المريضة من المستشفى » • وكانت على وشك الاستمرار فى المناقشة ولكن هولمز رد بلطف وألقينــا التحية وانصرفنا مصطحبين معنا الخادمة التعسة •

وكانت العربة التى أقلتنا مازالت فى انتظارنا ، وما أن استقر بنا المقام بداخلها حتى اندفع هولمز فى نوبة من الضحك المكتوم :

ــ « لقد شاهدنا عرضا ممتازا يا واطسون ، جمع بين تماسك الأعصــاب والابتــكار الى جانب البراعة الفنية لمن تدعى « الين تيرى » • لقد كانوا بالطبع مستعدين لمثل تلك الواقعة لقد تم تدريب المرأة بمهارة فائقة » •

ــ « أهى مدعية اذن ؟ » لقد كان من المستحيل أن أصدق أن تلك المخلوقة الرائعة مزيفة • الا أن هولمز هز رأســه بالايجاب وهو ينفض بعض التبغ المحترق من غليونه .• وقال وهو يومىء برأسه الى عميلتنا : « هــذه المرأة المســكينة هى بلا جدال البارونة فون لينسدورف ــ ســواء أكان ذلك فى مصلحتنا أم لا » ، ثم أضاف : « ومع ذلك، أرجو عندما ننتهى من هذا الأمر أن نكون قد أعدنا اليهــا بعض حقــوقها ، بالاضافة إلى عقلها طبعا »••

ـ « وكيف عرفت ان المرأة الأخرى كاذبة ؟ » .

ـ « تقصد ما الذى وشى بها ـ بالاضافة طبعا الى تلك القصة المختلقة عن الخادمة التى هربت من المنزل دون انذار ، لأن سيد المنزل أصيب بنوبة قلبية » وهززت رأسى قائلا : « اننى أجد القصة محتملة الحدوث » وتابعت حديثى وقد تشكلت فى رأسى نظرية :

ـ « وربما كانت هناك صلة ما بين الأحداث التى لم ندركها بعد ، تساعدنا على فهم تصرفاتها .. » .

ـ فقال هولمز وهو يبتسم : « ربما ، الا أن هناك عوامل معينة تؤيد بشدة النتائج التى توصلت اليها » .

لقد كانت البارونة بالنسبة لى مقنعة تماما ، كانت شخصيتها الرائعة لا تقارن بتلك المرأة المتخلفة العقل التى نرشحها لذلك الدور ، كما كان هناك شىء يغيظ فى سلوك صديقى الواثق من نفسه (وهو الذى كان منذ أقل من أسبوع مجرد مجنون يهذى ـ ولم يستعد كيانه الا من جراء تدخلى) بحيث حز حديثه المتعالى فى نفسى ، أكثر من أى وقت مضى .

ـ وسألته بلهجة المتشائم : « وما هى تلك الحقائق يا ترى ؟ » .

ـ فأجابنى وهو يناولنى البرقية التى سبق أن تسلمها فى الصباح ومتجاهلا لهجتى العدائية : « قد يهمك أن تعرف أن آل سلاتر من رود أيلاند ينتمون منذ ما يزيد على مائتى عام الى تلك الفئة الدينية المعروفة باسم « الكويكرز » وهذه الفئة لا تذهب الى الكنائس وانما تعقد اجتماعات خاصة بها . وهم بالتأكيد لا يعتبرون أعمال الخير من الأعمال الكنسية .. » . وتحول الى النافذة يطل منها على الطريق .

لم أعد أستطيع اخفاء دهشتي ، ولـكن قبـل أن أنطق بحرف ، قال لى وهـو مازال ينظر من النـافذة فى تراخ : « وبالمناسبة لقد تذكرت أين سبقت لنا رؤية الـكونت فون شليفن » ·

ـ « الكونت من ؟ » ·

ـ « فون شليفن، السيد الذى قابلناه خارجا من القصر· لقد ظهرت صورته فى التايمز (١) منذ عدة شهور ·· ألم ترها ؟ واذا لم تخنى الذاكرة فقد كان قد عين لتوه رئيسـا لهيئة أركان حرب الجيش الألمانى » ·

---

(١) طبعا لم تنشر صورته الفوتوغرافية اذ لم تكن طباعة الصحف قد تقدمت الى ذلك الحد ، وانما نشرت صورة تخطيطية للكونت فون شليفن عام ١٨٩١ فى التايمز (ن· م·) ·

الفصل الثالث عشر

نظريات شرلوك هولمز

وقف شرلوك هولمز فوق السجادة الحمراء أمام الموقد في مكتب فرويد وهو يستند بمرفقيه على رف المدفأة خلفه وقال :

ــ « تمنح الوصية اذن كل شيء الى البارونة الجديدة » .

رفع فرويد عينيه عن الكراسة التى كان يكتب فيها ونظر بعتاب الى هولمز قائلا : «لو كنت قرات بعينيت شروط وصية البارون مثلما فعلت لكنت عرفت ذلك .. ولقد أضاع ذلك على ميعادا مع مريض كما سبق أن قلت لك ، الا أنك أصررت قائلا ان ذهابى الى دار السجلات له اهمية عظمى » .

ضحك هولمز بطريقته المكتومة المعتادة ورفع يده معترضا :

ــ « سوف تغفر لى بالتأكيد يا دكتور ، لقد كنت أتكلم عن اعتقاد لا عن معرفة . ان فترتك الصباحية لم تذهب سدى ، فان الحقائق التى أتيت بها أكدت شكوكى . الا أننى أقسم لك أنه لو كانت لغتى الألمانية كافية لم أكن لأضيع عليك ميعاد مريض . وها هو الدكتور واطسون يشهد أننى لم أكن أبعده عن مرضاه الا « للشديد القوى » فاعف عنى يا سيدى ؟ » .

وأخذ هولمز يحكى لفرويد نتائج زيارتنا . وعبس وجهه قليلا عندما عرف أين ذهبنا بمريضته .. ولكن عاد

اليه ارتياحه عندما أكدنا أنه لا المنزل ولا سكانه كان لهم أى تأثير على المريضة ٠

وتابع هولمز حديثه قائلا : « لقد حان الوقت الآن » ــ وأخذ يبحث عن غليونه الشهير ولو أنه ظل واقفا مستندا الى رف المدفأة ــ « أقول حان الوقت لنجمع أطراف معارفنا ونرى ان كانت تتفق مع نظرياتنا » ، وتوقف قليلا وانحنى ليمسك جمرة فحم متوهجة بالملقط ويشعل بها غليونه : « ودعنى أسألك ياهر فرويد سؤالا اخيرا قبل أن اعرض الحالة ٠ ما هو رأيك فى شخص قيصر ألمانيا الجديد ؟ » ٠

ــ وتدخلت قائلا : «انه يحكم ألمانيا منذ ١٨٨٨» وأومأ هولمز برأسه ولكنه ظل مركزا عينيه فى فرويد ، الذى كان يتدبر السؤال ٠ ثم قال بعد فترة :

ــ « اذا كان لى أن أدلى برأيى فى كلمة واحدة فهى أنه غير ناضج » ٠

ــ « وما رأيك فى سياسته ؟ » ٠

ــ « انها تدور فى معظمها حول التشريعات الاجتماعية ٠ انه يخشى الاشتراكية خشية الموت ٠ وتميل سياسته الخارجية الى العدوان ــ على قدر ما أستشفه من قراءة الصحف ٠ خاصة تجاه روسيا فى مسائل مثل حقوقه فى البلقان » ٠

ــ « وما رأيك فى طبعه ؟ » ٠

ــ « آه هذا سؤال أصعب ٠ انه ذكى كما يبدو ٠ ولكنه سهل الاستثارة تنتابه نوبات من نفاد الصبر ممن حوله ٠ وأعتقد أنه نتيجة تلك الصراعات تمت تنحية الأمير فون بسمارك ٠ فالقيصر مغرم بالمظاهر العسكرية ــ كالسترات والاستعراضات وعلائم القوة الشخصية » وتوقف فرويد

لحظة ثم ضحك وقال مترددا : « الواقع أننى كـونت نظرية بشأن القيصر منذ مدة » ·

ـ وسارع هولمز الى القول بأدب : « اننى جد مشـتاق لسماعها » ·

ـ « انها ليست صعبة الفهم » ونهض فرويد فجأة كما لو كان غير راض عن نفسه لأنه ذكر تلك النظرية ·

ـ فقال له هولمز مصرا وهو يضم أطراف أصابعه مستندا الى رف المدفأة وقد ضغط بأسنانه على غليونه وأخذ الدخان يتصاعد فى حلقات : « اسمح لى يا سيدى أن أحكم بنفسى على مدى أهميتها بالنسبة لقضيتى » ·

وهز فرويد كتفيه :

ـ « لعلك علمت ـ سواء من رؤيتك صور القيصر أو من القراءة عن الموضوع أن له ذراعا ضامرة بعض الشىء ، لم تنم نموا طبيعيا نتيجة المرض فى الطفولة » ·

ـ يحتمل أنه شلل الأطفال ·· لست متأكدا ـ وعلى أية حال فهو من الناحية الجسدية لا يعتبر رجلا مكتمل النمو ، وتوقف فرويد لحظة ونظر الينا متسائلا : « انكما أول من يسمع نظريتى الغريبة هذه » ·

ونظر اليه هـولمز من خلف دخان غليـونه ورجاه أن يستمر ·

« حسنا ـ باختصار ـ لقـد بدا لى أن اصرار القيصر والحاحه عـلى مظاهر القـوة وغرامة بالبزات العسـكرية الزاهية ـ خاصـة تلك العبـاءات التى تحجب عن الأنظار عاهته ـ بدا لى أن حبه لهـذه المظاهر الحربية العدوانية هى

كلها بشكل أو بآخر مظاهر لشعوره بعدم كفاءته الشخصية ٠ ويمكن النظر اليها كلها كوسائل تعويضية عن الذراع ٠ وليس من الضرورى أن يكون المعوق العادى حساسا بهذا الشكل ولكن حساسيته بالذات ترجع الى انه الملك وسليل نسب طويل من الأجداد النبلاء والأبطال » ٠

اندمجت فيما كان فرويد يقصه حتى اننى نسيت وجود هولمز فى الغرفة ٠ وعندما انتهى فرويد نقلت ناظرى فرايت هولمز يحملق فى الطبيب بانتباه واعجاب شديدين ٠ وغاص هولمز شيئا فشيئا ببطء فى المقعد المقابل لمقعدى ٠

ثم قال أخيرا : « هذه فكرة رائعة ٠٠ أتعلم ماذا فعلت ؟ لقد نجحت فى تطبيق أساليبى ـ الملاحظة والاستنتاج ـ على ما يوجد بداخل رأس الشخص » ٠

وابتسم فرويد : « لا تستطيع اعتباره شخصا بالمعنى المفهوم ـ وعلى اية حال أرجو الا تكون أساليبك ـ كما قلت خاضعة لحقوق براءات الاختراع ؟ » وكانت لهجته رقيقة الا أن الرضى كان يشيع فيها ٠ لقد كان ، شأنه شأن هولمز لديه شىء من الغرور ٠ « ومع ذلك قد يتضح أن ما وصلت اليه خاطىء تماما ٠ فلقد لاحظت أنت بنفسك مخاطر الاستدلال دون وجود معلومات كافية فى حوزة المرء » ٠

ـ وصاح هولمز : «هذا شىء بديع! انه لا يحمل فقط رنة الصدق ـ أو المصداقية كما يقولون ـ ولكنه يؤكد بعض الحقائق والنظريات التى سوف أعرضها عليكم الآن»٠ ونهض مرة أخرى وتوقف سارح البصر والذهن قبل أن يبدأ حديثه :

« أتعلم يا دكتور اننى لن أصاب بالدهشة اذا ما ثبت فى المدى البعيد أن تطبيقاتك لأساليبى ستكون ذات أهمية أعظم بكثير من التطبيق الميكانيكى الذى استخدمه » ٠

ولـكن تذكر دائما التفاصيل الملموسـة ـ فمهما بلغ توغلك في العقل فان التفاصيل ذات أهمية قصوى ٠

هز فرويد رأسه وانحنى أمام هولمز وقد أخـذ ، عـلى ما أظن ، بذلك المـديح المفـاجيء من جانب المخبر السرى الشهير ٠

واستطرد هولمز : « والآن دعونى أقص عليـكم قصتى » وأعاد اشعال غليونه بينما اتخذ الدكتور وضع الانتباه فى مقعده ٠ وكان فرويد شأنه شأن هولمز مستمعا عظيما ولو أن كل واحد منهما كان ينظر الى ما يقوله العميل بطريقة جـد مختلفة ٠ لم يكن فرويد ينصت وقد أغلق عينيـه وضـغط أطراف أنامله ببعضها البعض ٠ بل على العكس استند بخده الى راحته المفتوحة وثبت مرفقه على مسـند المقعد ووضـع ساقا على الأخرى وراح يراقب من يتحدث اليه بعينين ثابتتين واسعتين ٠ بل ولم يكن دخان السيجار الذى كان يمسكه بيده الأخرى ، رغم رائحته النفاذة ، بقادر على أن يجعل عينيـه تضيقان وفى تلك اللحظات كان يبدو عليه أنه ينظر مباشرة الى روح الشخص وهو انطباع لم يفت نظر هولمز الثاقب ٠ وهكذا بدأ هولمز قصته :

« لدينا رجل أرمل ثرى، له ولد واحد ليس محل اهتمام خاص منه ـ كما أن الابن لا يهتم بأبيه أيضا ـ يسافر هـذا الرجل فى رحلة الى الولايات المتحدة ٠ وهناك يقابل امرأة شابة ـ فى نصف عمره تقريبا ـ ولكن رغم ذلك ـ أو ربما بسببه ـ يقعان فى الحب ، ولما كان الرجل يدرك أن ما بقى من عمره محدود فانهما يتزوجان فورا ٠ وتنحدر المرأة من أسرة ثرية تعتنق مبادىء الكويكرز « وتتم مراسم الزواج فى كنيسة تابعة للكويكرز وهى ليست كنيسة ، بالمعنى المألوف انما يطلقون عليها « مقر الاجتمـاعات » ولقـد فهمنا تلك العبارة عندما همهمت بها عميلتنا فيما بعد عـلى أنها المجزر

وبالتالى أخطأنا اذ ربطنا بين ما افترضناه من حبسها فى مستودع بجوار مجزر مما أبعدنا عن جادة الصواب لفترة ٠

ويعود الزوجان للاقامة فى ضيعة الزوج المنعزلة فى بافاريا٠ وكان اول ما فعله الزوج هو تغيير وصيته لمصلحة الزوجة ٠ وكانت معتقداتها الدينية فى هذا الشأن وكذلك معتقداته هو والتى تطورت بفعل الزمن قد جعلت من المستحيل عليه أن يحتفظ بامبراطورية كاملة خصصها لصنع أسلحة الدمار والحرب٠ ولما لم تكن لديه القوة الكافية أو الميل لكى يخصص سنواته الأخيرة لتفكيك مصانعه فانه تخلى عن الأمر ووضعه كله فى يدها فى حالة وفاته لتفعل به ما تشاء ٠

الا أن الرجل العجوز لم يضع فى اعتباره ـ أو أساء التقدير ـ غضب ابنه السفيه المتلاف ٠ فعندما وجد أن آماله قد انهارت وضاعت منه كل تلك الملايين اتخذ اجراءات شيطانية لاستعادتها ٠ ولما كانت آراؤه السياسية من النوع المحافظ ، كما انه نشأ فى المانيا الجديدة ، وكانت له صلاته التى استخدمها ببراعة ٠ فأثار أمامهم مسألة أن تقوم امرأة غريبة من العامة بتفكيك آلة الحرب الأساسية التى يعتمد عليها القيصر ٠ وبالطبع لم يكن هؤلاء الناس على استعداد بأية حال لقبول ذلك الأمر ٠ وهكذا أعطى الفتى « كارت بلانش » ليتصرف فى الأمر ولا شك انه منح أيضا بعض المساعدات ٠ وعلينا أن نكتشف كيف تم تدبير الأمر ولكنه استطاع بشكل أو بآخر أن يدبر مقتل والده ٠ ٠

ثم عمل على تهريب زوجة أبيه من ألمانيا وسجنها فى مستودع قرب قناة الدانوب هنا فى فيينا ٠ وتوجد وصية الوالد طبعا فى سجلات ألمانيا والنمسا حيث ان أملاكه موزعة بين الدولتين ٠ وبدأ الضغط على العروس لتتنازل عن الوصية لصالح الابن ٠ ولكنها رفضت ذلك بشجاعة ٠ ومنحها حبها وكذلك معتقداتها الدينية قوة قاومت الجوع وكافة أنواع

التهديدات الأخرى · وخلال حبسها الانفرادى بدأ عقلها يتهاوى · ولكنها ببراعة شديدة تمكنت من الهرب · وعندئذ فقط ، أى عندما نالت حريتها اتضح لها مدى العجز واليأس اللذين يحيطان بها فهى لا تتكلم الالمانية ، ولا تعرف أحدا ، وبلغ بها الضعف والهزال مبلغا لا تقدر معه على اتخاذ أية خطوة · وكان القفز من الجسر هو أقرب وأبسط الحلول ، الا أن رجل الشرطة المار أفسد هذه المحاولة ، فعادت الى حالة العجز واليأس التى وجدتها عليها يا سيدى الدكتور » ·

ــ واضطجع فرويد فى مقعده وهو ينفث دخان السيجار ويحملق متأملا ثم قال : « وماذا بشأن السيدة التى رأيناها فى الأوبرا ؟ » ·

ــ « ان الرجل الذى نواجهه ماكر مثلما هو جرىء · فعندما علم أن زوجة أبيه قد هربت من سجنها اتخذ قرارا سريعا · فقد أدرك ــ مثلما أدركت هى ــ أن موقفها يائس وعاجز ، ومن ثم تعمد أن يتجاهلها · فلتقل قصتها لمن يمكنه أن يفهم كلامها ــ ولا ريب أنه ابتسم لهذه الفكرة ــ أما هو فلن يجذب الأنظار اليه بأن يبحث عنها أو يستأجر من يبحث له · لقد لجأ الى استئجار من يحل محلها ويخدعة بسيطة وتزوير التوقيع يمكنه نقل الوصية كما يشتهى · فمن سيجرؤ على مناقضة قرار الأرملة ؟ والحق أننى لا أعرف كيف حصل على هذه التلميذة النابهة ، يحتمل أنها هى نفسها الخادمة والتى ادعت أنها السيدة أو ربما كانت ممثلة أمريكية مغمورة قذفت بها الرياح بعيدا عن وطنها ، ولكن أيا كان الأمر فقد دربت بمهارة ولا ريب أنها تكلفت غاليا أيضا » ·

« وقد توقع بذكائه أن هناك فرصة ولو ضئيلة لاكتشاف أمر زوجة أبيه ، ولذلك زود بديلتها بحكاية مقنعة · لقد كان يعلم بالطبع أن زوجة أبيه فقدت عقلها قبل هروبها · وكان واثقا من أن عقلها لن يسترد تكامله بسرعة بحيث

يمكنها لفت نظر اى شخص جاد • ولعلك تتذكر يا واطسون ان المراة التى تحدثنا اليها اليوم ذكرت ان خادمتهـا تدعى نورا سيمونز ، وهذه حركة بارعة من جانب البارون الشاب ولو انها اثارت ريبتى لغرابتها فاسم الخـادمة يحمـل نفس الحروف الأولى من اسم سـيدتها ن • س ، هـذه مصـادفة لا معنى لها ، الا اذا كانت الخادمة عنـدما هربت قد ارتدت بعض ملابس سيدتها والتى تحمل الحروف الاولى من اسمها • وكان الأولى به أن يدعى ان الخادمة قد سرقت بعض ملابس سيدتها ـ واستطرد يحلق فى آفاق استنتاجاته ـ وأعتقد بناء على ذلك أنه لم يبلغ البوليس البافارى بتلك القصة » •

ـ وسألته : « معنى ذلك أن هروب الخادمة تم تبليغه الى البوليس ليلة وفاة البارون ؟ » •

ـ « ربما فى الصباح الذى يليه ، ولن أدهش اذا علمت ذلك ، فالشاب الذى نتعامل معه قد تعلم أصول لعب الورق على يد الأمريكان » •

ـ « ماذا تعنى ؟ » •

ـ « أعنى انه يحتفظ دائما بـورقة مخبأة لا يظهـرها الا فى الوقت المناسب والمسألة الآن ••

وقطع حديثه صوت طرق على الباب •

وفتحت باولا البـاب لتعلن أن ممرضـا من مسـتشفى كرانكنهاوس قد حضر يحمل رسالة الى الدكتور فرويد •

وما أن فاهت بتلك العبارة حتى قفز شرلوك هولمز من مقعده صائحا وهو يخبط بكفه على جبهته : « لقد أخذوها •• لقـد تصـورت لغفلتى •• أنهم قد يترددون •• وها هم يسارعون بينما أنا واقف هنا أثرثر معكم

واندفع خارجا من الغرفة ولحق بالممرض المشدوه فى الصالة وأمسك بأطراف سترته بكلتا يديه وساله : « هل خرجت المريضة ٠٠ هل خرجت مريضة دكتور فرويد ؟ » ٠

وأشار الرجل برأسه فى غباء ، لقد بلغ به الفزع حدا لم يمكنه من الكلام ٠ فلم يدن الا ممرضا عاديا ارسل فى مهمة لا يقدر مدى خطورتها ٠ وكانت معه مذكرة من الدكتور شولتز يتساءل فيها عما حل بالمريضة منذ أن تركها فى عهدة فرويد ويحتج على اخراجها من المستشفى قبل أن تتاح له فرصة أن يراها ويقدر مدى تحسنها ٠ وألمح بشكل خفى الى أنه سيذكر هذا الأمر للدكتور ماينرت ٠

وسأل هولمز الممرض : « هل كنت هناك عندما خرج بها هؤلاء القوم ؟ » ودون أن ينتظر جوابه دس نفسه فى السترة وألقى بالمعطف على كتفيه ، بينما هز الممرض رأسه بالنفى٠

ـ « اذن فلتأخذنا الى من كان يوجد فى تلك النوبة » وجذب ياقة معطفه ليغطى بها رأسه صاح بنا : « أسرعوا أيها السادة ٠٠ ليست لدينا دقيقة لنضيعها ٠ فرغم أن لدينا امرأة تائهة العقل من ناحية الا أنه تكمن حرب أوروبية من الناحية الأخرى » ٠

الفصـل الرابع عشر

الجنـــازة

انطلقت بنا العربة فى طريق العودة الى المستشفى عصر ذلك اليوم ، ولم يتكلم أحد ، سوى أن هـولمز كان يســتحث الحوذى بين الفينة والفينة أن يسرع • كان كل منا غارقا فى أفكاره • وكان المرض ينقـل أبصـاره بيننـا متعجبا يتساءل بينه وبين نفسه ـ كمـا قدرت ـ ماذا جـرى بحق الشيطان ، وعيناه ترمشان كلما اندفعت العربة أمام الترام وأجبرت باعة الطرق على القفز ذات اليمين والشمال فارين من أمام العربة • وكان جبين فرويدالعريض مجعدا من كثرة التفكير بينما جلس هولمز منحنيا الى الأمام فى صمت كئيب، يصيح كل عدة ثوان بالسائق أن يسرع •

واضطرت العربة الى التوقف تماما عند أحـد المفارق حيث كان الطريق مسدودا باحدى كتائب الحرس الهنغارى فى طريقها الى مواقعها فى قصر هوفبورج • وراح هـولمز يتأمل تلك العقبة وهو مغموم ، ثم استند الى الخلف وهـــو يتنهد ثم قال : « لا فائدة •• لقد فقدناها وانهزمنا » وأخذ يصر على أسنانه من الغضب وعيناه الرماديتان تلمعان من الأسى •

فسأله فرويد : « ولماذا ؟ » •

ـ « لأنه سيقتلها فى أول فرصة تتــاح له » واســتخرج ساعته وراح ينظر اليها محزونا بينما لاحظت بطرف عينى

وجه المرض وقد امتقع لسماع الكلام ، والتفت الى قائلا :
« ولقد واتتهم الفرص الآن يا واطسون » ..

« كان الأفضل أن تتركني للكوكايين ، لقد أصبحت غير ذى نفع » .

ــ وتدخل فرويد قبل أن أهم بالحديث : « اسمح لى أن أختلف معك فى المسألتين .. أولا لا اظن ان حياة السيده فى خطر » واستدار الى الحوذى يأمره بالاسراع بعد ان انتهى مرور الحرس الذى كان يسد الطريق . ونظر اليه هولمز ولكنه لم يقل شيئا بينما انطلقت العربة بسرعة .

ــ واستطرد فرويد مصرا على الحديث رغم عدم التشجيع:
« اسمح لى أن اقدم بعض الاستنتاجات من عندى. فباستخدام نفس الأساليب التى استخدمتها فى حالة شخصية القيصر ، فانى أرجح أن حياة البارونة قد تكون فى خطر شديد .
ولكنى لا أعتقد أن ابن زوجها ينوى قتلها اذا وقعت فى يده مرة أخرى » .

ــ وسأله هولمز وقد بان الاهتمام فى عينيه : «ولماذا لا ؟ هذا هو الاجراء العملى الوحيد الذى يستطيعه » .

ــ « كلا لقد كان الأمر الأكثر عملية هو أن يتخلص منها فى نفس الوقت الذى تخلص فيه من أبيه أليس كذلك ؟»

واسترعى السؤال انتباه هولمز واستدار ليواجه الدكتور . وانتهز فرويد هذه الفرصة واستمر فى حديثه :
« كان هذا بالتأكيد سيكون حلا سهلا . تدبير الأمر بحيث يبدو أن الاثنين قتلا فى حادث ومن ثم يرث الضيعة بكاملها. هذا هو مضمون الوصية . وكان يعرفها بلا ريب » .

وعبس وجه هولمز . وسأل : « ولماذا لم يفعل ذلك ؟ » .

— هل لك أن تتنازل وتسمع نظريتى ؟ .

وأومأ هولمز برأسه ودبت الحياة فى عينيه اهتماما بتلك الفرصه الضسيله من الأمل التى لاحت من كلام الدكتور .

— « قد يستغرق الأمر منى وقتا طويلا اذا سردت عليكم كافة البحوث التى قمت بها . ولكنى أرى أن الشاب موضوع حديثنا يكره زوجة أبيه بعنف يزيد بكثير عن مجرد كونها عقبة أمام مشاريعه السياسية أو المالية » .

— وسألته رغما عنى : «ولماذا ؟ انه لا يكاد يعرفها فكيف نمت لديه تلك الكراهية التى تقول عنها » .

— « لكنك تقر أن سلوكه تجاهها سلوك ينم عن الكراهية الشديدة » .

— « تماما » .

— « ولقد بلغ حقده وكراهيته لها مبلغا » ومالت بنا العربة ميلة حادة جعلت فرويد يتوقف عن حديثه ثم تابع : « مبلغا جعله يفضل أن يبقيها حية — حين كان من السهل عليه قتلها مع ما فى ذلك من خطورة عليه . وأن يحبسها ويعذبها عذابا فوق كل تصور » .

هز هولمز رأسه وقد ضم شفتيه وهو يتدبر الموقف الذى عرضه فرويد .

واستمر فرويد والعربة تدنو من المستشفى : «ولذلك ، وباستخدام أساليبك ، لابد لنا من استنباط دافع آخر . فما قولك اذا أخبرتك أن تلك الكراهية المميتة كانت موجودة لديه قبل أن يرى تلك المرأة التى تزوجها أبوه ، بل انها توجد بصرف النظر عن أية امرأة يتزوجها أبوه » .

ـ « ماذا ؟ » .

ـ انظر يا صديقي ، ان سلوك الشاب غير العادي تجاه زوجة ابيه التي لا يعرفها لا يمكن تفسيره الا بطريقة واحدة . وهي انه مخلص ومتعلق بذكرى امه الحقيقية بحيث ان ما فعله ابوه وموافقة المراة على زواجه قد أيقظت إعمق نوازع التدمير في شخصيته . فبالنسبة للأب الموت العاجل جزاء خيانته للزوجة الأولى . أما الأم المزيفة فلتحيا ولكن بين الحياة والموت ولو أن ذلك غير عملي من زوايا أخرى . هذه هي النظرية الوحيدة التي تغطي كافة الوقائع وكما لاحظت أنت نفسك يا هر هولمز فانه عندما تستبعد كافة الاحتمالات الممكنة فان الباقي مهما بلغت غرابته يجب أن يكون الحقيقة . هأنا طبقت منهجك تطبيقا صحيحا ؟ أليس كذلك . وبالتالي يمكننا الاعتماد عليه .. المرأة ستظل حية مهما كانت الأخطار التي تتعرض لها .. ها قد وصلنا » .

حمق هولمز في فرويد لعدة ثوان قبل أن يقفز خارجا من العربة ومندفعا نحو بوابة المستشفى وهو يجر المريض وراءه . وتبعناه أنا وفرويد بينما طلبنا من الحوذي أن ينتظرنا .

وفي الداخل اتجهنا مباشرة الى البوابة حيث كان الحارس الذي سلمنا مريضة فرويد في الصباح . وحدثنا بحنق شديد مبديا اعتراضه على عدم اتباع القواعد بشأن خروج تلك المريضة . تصور يا سيدي لو أن لك مريضا يمكن اخراجه بمجرد ورقة دون أي توقيعات رسمية .. وقاطعه هولمز دون احتفال : «صف لنا هؤلاء الناس الذين اصطحبوها » . استدار الحارس الى هولمز ببطء وهو يتفحصه . واستشففت من سلوك الحارس ومن هيئة صديقي خاصة ملبسه الغريب أن الحارس قد يظنه من المرشحين لدخول جناح الطب النفسي . فسارعت بالتدخل قائلا : « أسرع أرجوك .. ان الأمر في

غاية الأهمية » وكرر الحارس الغبى الجملة ببطء : « أصف من ؟ لم تتح لى الفرصة ٠٠ » واستدار الى الدكتور فرويد قائلا : « ولماذا أصفهم ٠٠ أنت تعرفهم أفضل منى » ٠

فرد عليه فرويد مندهشا : « انا ؟ ! اذا كنت أعرفهم فلماذا اسالك عنهم ؟ » ٠

ـ وأجاب الحارس مغتاظا : «لقد قالوا انهم من طرفك»، ونظر الى فرويد كما لو كان هو الآخر مرشحا لدخول المستشفى ٠

وآخذنا ننظر الى بعضنا فى ذهول ٠ وقطع هولمز لحظة الصمت بالضحك وصاح وهو يهز راسه : «يا لهم من ماكرين ٠٠ اقوياء الاعصاب ٠ لقد استمادوا مما قلته للسيدة صباح اليوم فى شارع فالنشتاين ٠ بل وعرفوا أين توجد المرأة ٠٠ والان أيها الحارس صف لنا هؤلاء القوم ؟ » ٠

ووصف لنا الحارس من ذاكرته الضعيفة شخصين أحدهما قصير زائغ البصر حاد الطبع والآخر طويل ورزين ذو هيبة ٠

ـ فقال هولمز : «هذا هوالساقى غالبا» والتفتالى فرويد قائلا : « من الأفضل تحرير مذكرة لطلب الشرطة فلسوف نحتاجها فى نهاية الأمر ٠ أخبرهم أنه تم اختطاف امرأة من المستشفى واترك لهم عنوان شارع فالنشتاين فلسوف نتجه الى هناك الآن » ٠

ـ وهز فرويد رأسه وكان على وشك أن يخبر الحارس بالرسالة عندما تدخل القدر لصالحنا ـ مرة ـ وذلك فى شخصالدكتور شولتز الذى أقبل مسرعا الينا : «آه هذا أنت يا دكتور فرويد » قالها بلهجة متقعرة ٠

«كنت أود أن أتبادل معك» ٠٠ وقاطعه فرويد : « وأنا أيضا كنت أود الحديث معك » ٠

وأخبره فرويد بما حدث مغفلا ـ كما اقترح هولمز ـ بعض التفاصيل المهمة والتى لم يكن هناك داع لذكرها . وأن البارونة هى نفسها الخادمة التى اختطفت وختم حديثه للطبيب المنزعج قائلا :

« أسرع فى طلب الشرطة » ودون عنوان شارع فالنشتاين فى هامش دفتر الأحوال .

ودون انتظار لأى جواب هرعنا نحن الثلاثة الى العربة وقفزنا بداخلها وصاح هولمز بالسائق : « طر بنا الى رقم٧٦ شارع فالنشتاين فحياتك متوقفة على سرعتك » .

وهمهم السائق بقول يفهم منه أن فى التأنى السلامة وجذب العنان وانطلق بنا مرة أخرى . وأعتقد أنه لو كان بداخل العربة مساحة كفاية فان هولمز لم يكن ليتردد فى ذرعها ، ولكنه لضيق المساحة ، اكتفى بقضم أطراف أصابعه بأسنانه وسألنى : «هل أحضرت معك مسدسك يا واطسون؟» وأخبرته اننى دسست المسدس فى جيب معطفى عند خروجنا. فهز رأسه موافقا .

ـ « أعتقد أن البارون قد حسب حساباته دون أن يدخل فى اعتباره استنتاجات دكتور فرويد مما يعنى انه يحس الان بالامان . وهو يظن أننا نعتقد أنه سيقتل المرأة فى أول فرصة ويتخلص من الجثة ، بل أعتقد أنه يشك أننا نقفى أثره » . ولكنه ـ أى هولمز ـ لم يبد مقتنعا وسرح قليلا بينما عادت أطراف أصابعه تنقر على أسنانه .

والتقطت أنا خيط أفكاره فتساءلت : « هل ستصل به الحماقة الى هذه الدرجة بالتأكيد لن نجدها فى الفيلا » .

ووافق هولمز على مضض : « أخشى أننا لن نجدها .. ولكن أين .. سيذهب بها ؟» واندمج مرة أخرى فى التفكير

انه يعلم الآن أننا قد أذعنا أمره ، وأعتقد أنه متأكد أننا سنقتفى أثره بشكل مباشر أو غير مباشر » وغرق فى التفكير مرة أخرى ، وأنا أعلم من خبرتى السابقة معه انه يحاول الآن أن يضع نفسه فى موقف البارون الماكر، وأنه باستخدام الصورة التى رسمها له فرويد باقتدار يحاول أن يحدد الحركة التالية للبارون وأن يتوقع ماذا يفعل لو وضعته الأقدار فى موضع هذا البارون المجنون ٠

ووصلنا الى مدخل الفيلا رقم ٧٦ شارع فالنشتاين وخيولنا يتصاعد الزبد والعرق منها ، ووجدنا شرطة فيينا تذرع المكان فقد حذرتهم مكالمة دكتور شولتز ووصلوا فى لنش بحرى ، تحت قيادة سيرجنت طويل القامة معتدل القوام ذى شعر فاتح وعينين زرقاوين متنبهتين ٠ وتحرك نحونا بخطوة سريعة بينما نحن ننزل من العربة واتجه الى صديقى وحياه تحية عسكرية ٠

« هر هولمز ، لقد وصلنا لتونا ٠ ولكن المنزل مغلق ولا يبدو أن به حدا » وكانت انجليزيته فيها جهد ولكنها تفى بالغرض » ٠

وأجابه هولمز وهو يتنهد وينظر حوله بامعان : « أعتقد أننا وصلنا بعد فوات الأوان » ٠

ــ « أرجو ألا تظن بنا سوءا ، فقد أسرعنا الى هنا حالما وصلنا الانذار » ٠

ــ « كلا ٠٠ كلا لم تخطئوا فى شىء ، ولو أن رجالك قد أفسدوا الحديقة وجعلوا الأرض كما لو أن فصيلة من الخيالة قد دهستها ، ومع ذلك فلنلق عليها نظرة » ٠

ويدأ فى التحرك صاعدا الى أعلى التل فى اتجاه المنزل يتبعه السيرجنت فى لهفة وهو يقول له : «ان صيتك معروف

لنا جيدا يا هر هولمز ، وقد أمرني رئيس الشرطة أن أضع رجالى تحت تصرفك » ·

وتوقف هولمز مسرورا وقال له : « صحيح ، من المؤسف أن سكوتلانديارد لا تشاطر رئيسك رايه » واستمر في الصعود وعيناه مركزتان على الحشائش والارض الزلقه وسمعته يهمهم بالقول المأثور « لا كرامة لنبى في وطنه » ·

وبدأ فرويد يتحرك متابعا خطى هولمز ولكنى جذبت ذراعه برفق وشرحت له هامسا أن وجودنا مع هولمز قد يسبب له عائقا فادرك على الفور وثبت في مكانه ·

استعرض هولمز أرجاء المنزل بسرعة مقتصرا على منطقة المدخل ذات المظلة واخذ يدور ويلف فيها جيئه وذهابا وأحيانا بشكل دائرى مصدرا بين الحين والآخر همهمات تنم عن الرضى أو السخط أو التوقع · وكان مظهره في تلك اللحظات أقرب ما يكون الى منظر كلاب الصيد ، فكانت ملامحه الحادة وخاصة أنفه المستقيم وميل جسمه الى الأمام وخطواته المتحفزة كلها توحي بمنظر كلب مصمم على التقاط رائحة فريسته · ولولا أنه أخرج عدسته المكبرة وأخذ يفحص بها الأرض لكان أشبه بالكلب توبى وهو يتشمم الأرض بحثا عن أثر ·

وقف دكتور فرويد والسيرجنت ورجال الشرطة يراقبون ذلك المنظر وقد علت تعبيرات الدهشة وعدم التصديق وجوههم · وبالنسبة لفرويد فقد كان مشغولا بالجوانب المختلفة لهولمز والتى كانت تتبدى له الواحدة تلو الأخرى · وبالنسبة للسيرجنت فكان اهتمامه مهنيا ، كمن يريد أن يتعلم من أستاذ ولكنه لا يستطيع اقناع نفسه بأن مثل هذا السلوك الغريب يرمي الى أى شيء سوى ابهار المشاهدين ، أما بقية أفراد الشرطة فكانوا يبتسمون وكلهم شك وارتياب·

ولو كانت لديهم فكرة عن هولمز فقد استقوها من القيل والقال ، وعلى أية حال فان ما كانوا يشاهدونه لم يلن يعنى شيئا لهم • وربما ظنوا أنه مجرد تكلف أو افتعال • وكان بومسعى أن أقول لهم أن هولمز قادر على التصنع بغير حدود اذا لزم الأمر ، ولكن ما كنا نشاهده فى تلك اللحظة كان أبعد ما يكون عن ذلك •

وتوقف هولمز فجأة ومال بجسمه وهو يرتجف ويفحص شيئا على الأرض ثم انبطح أرضا على وجهه وظل كذلك لمدة لحظات ، ثم رفع قامته وسار متجها الينا •

ـ « كل الدلائل تشير الى أنهم وضعوا المرأة داخل صندوق كبير مما يستخدم فى السفن وسيحملونها معهم خارج البلاد » •

صعق السيرجنت بحيث لم يقو على الكلام ، وأصابه الذهول مما قاله هولمز • أما أنا ، الذى تعودت على ذلك ، فلم أناقش وانما سألته : «لكن ياهولمز الى أين سيأخذونها؟» •

ـ « الى أين ؟ » •

وفكر لحظة ثم فرقع بأصابعه وصاح : «أجل الى بافاريا بالطبع • فانه متى ما عبر الحدود فسيكون آمنا تماما • اللعنة ! » وكان يشير بهذه اللفظة الأخيرة الى حالة الخيل المنهكة فى العربة التى استأجرها • وصاح بى وهو يهرول هابطا المدخل : « هيا يا واطسون يجب أن نجد وسيلة نقل أخرى الى أقرب محطة » •

وتبعناه ، فرويد والسيرجنت وأنا ـ وفى أعقابنا بقية رجال الشرطة فى حالة من الاضطراب ـ ومرقنا بسرعة من البوابة الأمامية فى اثر هولمز الى الشارع الساكن •

وكدنا نصطدم به عند زاوية حيث توقف فجأة ومعطفه يطير فى الهواء من حوله ، ونظرنا الى نهاية الطريق فاذا بموكب يتقدم نحونا بخطى جنائزية وكان النعش محمولا على عربة يتلوها صف من العربات والخيول وعدد كبير من المتشيعين على الاقدام ، يرتدون كلهم الملابس السوداء • وكان من الواضح أن شخصية مهمة قد توفاها الله وأدت الى وجود ذلك الموكب المهيب ، ولمحت عينا هولمز تلمعان عند رؤيته لذلك المنظر الحزين ، وفجأة قفز الى الأمام •• وصحت به «يا هولمز» ولكنه لم يعرنى التفاتا وانطلق، ونحن فى أثره ، متجها الى العربة السوداء الضخمة التى تتلو النعش مباشرة ، والتى كانت بلا ريب تقل أقرب أقارب المتوفى ولابد أنهم كانوا من الدوقات والأمراء ، ولكن هولمز لم يتردد فقد ألقى بنفسه على العربة واختطف اللجام من أيدى السائق المذعور وحول العربة عن مكانها فى الموكب وفرقع بالسوط فى الهواء وصاح بى « يا واطسون » وأقبل علينا بسرعة بينما العربة تطلق أصواتا هادرة مشيرا الينا بالصعود وتعلقنا فرويد والسيرجنت وأنا بالعربة وهى مندفعة فى طريقها كل منا يمسك بأحد النتوءات وتمكنا فى النهاية من دخولها•

من المستحيل أن أصف تعبيرات الدهشة والذعر التى تجلت على وجوه ركاب العربة • كان هناك أربعة أشخاص كلهم يرتدون ملابس أنيقة ، منهم سيد ضخم الجثة ذو بشرة حمراء وسوالف بيضاء ينم حجمها الكبير عن أنها تنتمى الى « موضة » قديمة ، وهو يتنفس بصعوبة وفى حالة عجز ، وفتاة شابة فى السادسة عشرة أو حولها ملامحها مختفية نوعا وراء الحجاب بينما تنظر عيناها الينا فى تعجب ، وسيدة متقدمة العمر نوعا بدينة ترتدى ملابس مشابهة ولكنها كانت غارقة فى أحزانها بحيث انها لم تلاحظنا على الاطلاق، وانما استمرت فى البكاء تمسح دموعها بمنديل حريرى أسود ، والى جانبها يجلس شاب أعتقد أنه ابنها أو ابن أختها

يحاول أن يسرى عنها وفى نفس الوقت يحاول أن يفهم شيئا مما يدور حوله ، وأعتقد انه كان موزع الخاطر بين مواساة المرأة ومواجهتنا ٠

رأيت كل ذلك فى لمح البصر ، وكنت مشغولا بالتعلق بالباب الذى فتحته واعطاء هولمز مسدسى اذ ربما يحتاجه لمنع السائق من القيام بأى عمل متهور ٠

وكان السيرجينت قد تعلق بالباب الآخر وأخرج مسدسه فى حالة الاستعداد، رغم ما بدا من الركاب من آنهم لا ينوون التدخل ، بل ولم يستجيبوا عندما حاول ــ مستخدما لهجة غاية فى الرسمية ــ أن يطمئنهم مخبرا اياهم أنها حالة طوارىء وأنه لا يوجد سبب يدعوهم للانزعاج ٠ ولا شك عندى أنهم رأوا كلامه متناقضا ٠

ولم يكن هناك مكان فى العربة ، واضطر الدكتور فرويد أن يقف على درج العربة وأن يتعلق باطار النافذة لتثبيت موقفه بينما شعره يتطاير فى الهواء ٠

أما بقية المعزين ورجال الشرطة فقد تركناهم وراءنا٠

وسأل هولمز السيرجنت من خلال فتحة سقف العربة : « ما هو أقصر طريق الى أقرب محطة للسكك الحديدية ؟ » ٠

ــ « ان قطار ميونيخ لا يخرج الا من محطة » ٠ ٠

ــ «اللعنة على قطار ميونيخ، أينأقرب محطة يارجل؟»٠

وأخذ السيرجنت يوجه حركة العربة بحيث نصل الى أقرب محطة بينما هولمز يفرقع بسوطه والعربة تجرى بسرعة البرق بحثا عن تلك المحطة ٠

وفيما عدا صهيل الخيل وصوت العجلات والاجزاء المعدنيه فى العربة وبكاء السيدة لم ينبس احدنا ببنت شمه. وجال السيرجنت ببصره فى داخل العربة تم لكزنى واومأ برأسه الى بطانة بابها فالتمت ورايتها مزينة بشعار النبالة، وهمس فى أذنى «أرجو أن يكون الهر هولمز مدركا لما يفعله»، وعلق فرويد : «هذا هو ما أرجوه ايضا» وكان يجلس بجانب الشباك ورأى الشعار هو أيضا . فقلت لهما « لا تقلقا »، ولكننى بعد أن فكرت وجدت أن ذلك التعليق فى تلك الظروف كان غبيا وندمت على قوله .

بعد أن عبرنا القناة ، دارت العربة بزاوية حادة الى اليمين جعلت العجلات مع السرعة تصدر صريرا قويا بينما ارتفعت العجلتان على يسارها عن سطح الأرض ، ثم عادت فاعتدلت عندما درنا بزاوية أخرى الى اليسار ، ورأيت أمامى ساحة المحطة وأفنيتها واندفعت العربة الى نهاية الساحة حيث يوجد مدخل المحطة . وتوقفت العربة بفرملة قوية ، وقبل أن نترجل كان هولمز قد سبقنا وهو يجرى الى المبنى . وتدفقنا وراءه ، بينما اعتذر السيرجنت لأصحاب المركبة المذهولين عن تدخلنا المشين خلال حزنهم ، وأدى تحية عسكرية اعتبارا لمقامهم النبيل .

ولحقنا بهولمز الذى كان قد دخل فى مناقشة محتدة مع ناظر المحطة الذى أخبره أن البارون فون لينسدورف قد أمر بتجهيز قطار خاص غادر المحطة منذ ثلاث ساعات . وطالبه هولمز باستئجار قطار خاص أيضا . ولكن الناظر أخبره بأن ذلك الأمر يقتضى عدة ساعات بحيث يمكن اخلاء الطريق . وكان من الواضح أن البارون قد استأجر القطار منذ اللحظة التى غادرنا فيها منزله فى منتصف النهار .

كان هولمز يصغى لحديث ناظر المحطة بنصف أذن والرجل يحكى تفاصيل الصعوبات التى تعترض هذا الأمر ، بينما

عيناه تجوسان خلال الأرصفة وحطت أخيرا على قاطرة خلفها مقطورة الفحم ويتصاعد البخار من مدخنتها وقد ألحقت بها عربة واحدة ٠

ـ أخشى أنه لا يوجد لدى وقت لأضيعه فى الحديث ٠ وامتدت يده لتخرج المسدس من جيبه ملوحا به فى وجه الناظر : « سنأخذ تلك القاطرة الواقفة هناك » ٠

ذهل الرجل لدرجة أنه لم يمكنه الاستجابة ، ولكن السيرجنت وجد أن الموقف قد زاد عن حده فاستنشق نفسا عميقا والتفت الى هولمز قائلا : «رويدك يا سيدى٠٠» ولكن صديقى لم يكن على استعداد للمناقشة ٠

ـ « أرسل برقية الى الحدود على الفور أخبرهم أن يوقفوا ذلك القطار بأى ثمن٠ وليستخدموا أية حجة ويقوموا بتفتيش عربة العفش سمعت ٠٠ أسرع يا رجل فلكل دقيقة ثمنها الغالى ، ان حياة امرأة ومجرى التاريخ قد يتوقف على سرعتك » ٠

لم يكن تدريب السيرجنت وتعليمه يسمحان له بمقاومة أوامر تلقى بهذا الشكل فاستدار بأقصى سرعة ومضى الى التنفيذ دون أية مراجعة ٠

وتحول هولمز الى ناظر المحطة قائلا : «والآن ياسيدى هل تسمح بمرافقتنا » وهز الرجل التعيس كتفيه وسار معنا ٠ كان المهندس يضبط بخار القاطرة عندما اقتربنا منه ، وأوضحنا له الموقف ٠ فرفع حاجبيه عندما أخبره ناظر المحطة أن قطاره الصغير قد أصبح قطارا خاصا وأن عليه أن يستعد للرحيل ٠ وسأل المهندس عندما رأى أن الناظر لا يبدو عليه أنه سيغادر القطار « ولكن الى أين يا سيدى ؟ » فأجابه هولمز وهو يلوح بمسدسه : «الى ميونيخ»٠ والتفت هولمز الى فرويد

دون أن يعطى المهندس فرصة للرد وقال : «يا دكتور لا توجد بك حاجة للقدوم معنا ، فهلا غادرت ؟ » ٠

وابتسم سيجموند فرويد بلهفة وهز رأسه بالنفى : «لقد شاهدت الجزء الاكبر من هذه المسألة بحيث أصبح لا يمكننى التخلى عنها الآن ٠٠ كما أن لدى حسابا أريد تصفيته مع البارون ، ولا ننس أن المرأة هى مريضتى » ٠

ـ حسنا حسنا ! ٠

وتدخل المهندس بعد أن تلكأ طويلا قائلا : « ليس لدينا من الوقود ما يكفى لتوصيلنا الى ميونيخ ٠ كما أن هناك نقاط التحويل ٠٠ ستكون كلها خاطئة » ٠

فقلت له : « دعنا نتخطى العقبة الأولى عندما تواجهنا ، أما العقبة الثانية فسنعدل التحويلات كلما مررنا بها » ٠

والتفت الى هولمز وعلى فمه شبه ابتسامة : «لن أصل قط الى سير غورك يا واطسون٠٠ فلننطلق٠٠ وبأقصى سرعة»٠

نظر المهندس وناظر المحطة الى بعضهما البعض فى عجز وهز الناظر رأسه فى استسلام وأطلق المهندس تنهيدة يأس وأدار عجلة القطار وانطلقنا ٠

الفصل الخامس عشر

المطـــاردة

كان من المستحيل بالطبع أن ننطلق بأقصى سرعة ، ليس أثناء الخروج من فيينا على أية حال • كانت هناك العـديد من التحويلات التى يجب تعديلها ، كما أن الشريط الحديدى الذى يمر بأطراف المدينة فى اتجاه الشمال الغربى لم يكن معدا لتحمل القطارات السريعة • وكان نصف الساعة الأول، يبعث على الجنون ، اذ كان علينا ـ أنا والدكتور فرويد ـ أن نقفز بشكل مستمر من عربة القطار ونهرع لتحويل الخط حسب تعليمات المهندس فى سلسلة لا نهاية لها من النقاط ، بينما كان هولمز يصوب مسدسى فى اتجاههما حتى لا يفـكر المهندس أو ناظر المحطة فى ارتكاب فعل يعوق خططنا •

كان الليل يسدل أستاره بسرعة ، مما زاد من صـعوبة مهمتنا ، وأصـبح تمييز نقاط التحـويل أكثر صـعوبة ، وفضلا عن ذلك فقد كان علينا ، حفاظا على الأمان ، أن نعيد خط السكك الحديدية الى ما كان عليه بعد أن يمر قطارنا بحيث لا تقع حوادث من جراء ما نفعله • اذ يكون من سخرية الأقدار أن ينشأ عن جهودنا لانقاذ امرأة واحدة وفاة المئات، كما قال هولمز فيما بعد •

وكانت نقاط التحويل جافة يحتاج بعضها الى قوة رجلين حتى يمكن تحريكها ، وكان من حسن الحظ أن انضم الينـا فرويد فبدونه كان من المستحيل تحمل هذا العبء •

وانطلقنا فى طريقنا مارين بمنتزه « هرمالسر » والذى لم أتمكن من رويته طبعا فى هــذا الظلام ، واتجهنا جنــوبا حتى التقينا بالخط الرئيسى المتجه الى الغرب بدءا من المحطة الكبيرة ، التى نزلنا بها أنا وهولمز عند وصــولنا اول مرة لتلك المدينة ، والتى بدا لى أنها حدثت منذ دهر • وخــلال ذلك مررنا بنقاط تحويل لا حصر لها كنا فى كل مرة نحولها الى الأمام ثم نعيــدها الى ما كانت عليــه • وكنـــا ــ انا وفرويد ــ نتصبب عرقا عندما انتهينا من آخــر تحــويلة ، واندفعنا بالقطار ، الذى أخذت سرعته تزداد ، فى جــوف الليـــل •

خلال ذلك الوقت كان هولمز قد شرح المــوقف للمهندس وناظر المحطة ، فتغيرت اتجاهاتهما تماما، وبدلا من أن يعملا تحت تهديد المسدس ــ الذى احتفظ به هولمز فى جيبه خشية تغير أفكارهما ــ استجابا للتعاون معنا فى حدود امكاناتهما •

كان الليل باردا ونحن ننطلق بسرعة • ولــكن وجــود الأعمال التى ينبغى القيام بها ساعدنا على تدفئة أجسامنا • ولن يعرف من لم يمارس دفع الفحم بواسطة الجاروف مدى الاجهاد الذى يعترى الانسان فى تلك العملية • لقــد كان علينــا لكى نلحق بقطار البــارون أن نزيد من سرعتنا وأن نستمر فى تغذية فرن القاطرة بالفحم •

وهذا ما فعلناه ، ظللنا نحشو هذا الفرن بالفحم ، بينما المدن والحقــول تنساب حــولنا فى الظــلام • وكنا ــ أنا وفرويد ــ ندفع الفحم بالجــاروف كما لــو كانت حياتنــا متوقفة على ذلك • وكنت أول من أعلن افلاســه ، فقد زاد الألم فى ساقى نتيجة تلك القفزات التى كان علينا أن نقوم بها عند التحويلات • ولقد أحسست بالألم عندئذ ولكن لم أبال به فى خضم الحماس ، ولكن بدأت ســاقى الآن تنبض بالألم بشكل منتظم • أصــبحت واعيــا تماما بمســار تلك

الرصاصة التى اخترقت ساقى منــذ سنوات طويلة عنــدما أصبت فى معركة « مايواند » خــلال خدمتى العســكرية فى أفغانستان ٠

ظللت أعمــل حتى مررنا بمدينــة نيــولنجباخ ، حيث اضطررت للتوقف وحل هولمز محــلى ٠ واعطانى المســدس وتهاويت على الأرض واسندت ظهرى الى جدار العربه المعدنى ومددت ساقى مع ابقاء المسدس فى متناول يدى واحسست ببرودة الريح وبدأت أرتجف ، ولكننى كتمت ما بى وصممت على الا أظهر شــيئا فقــد كان صــديقاى فى حالة انشــغال فظيعة ٠

ولاحظ هولمز ما بى ، فتوقف لحظة عندما كان يستدير أمام الغلاية بعد افراغ الجاروف ودون كلمة خلع معطفــه والقاه فوقى ٠ لم يكن هناك وقت للكلام ٠ وبرقت فى عينى نظرة شكر وعرفان بينما هز هو رأسه وربت عــلى كتفى بلمسة ود قبل أن يعود الى عمله ٠

لقد كان منظرا لن أنســاه بسرعة ـ أعظــم مخبر فى العالم ، ومؤسس ذلك الفرع من الطب الذى عرف فيما بعد باســم التحليــل النفسى ـ يعمــلان جنبــا الى جنب مشمرى الأكمام يغذيان الفرن بالفحم بواسطة الجاروف كما لو كان ذلك العمل هو الذى ربيا عليه منذ الصغر ٠

وكانت قوة فرويد تتهــاوى بسرعة ، لقــد فعــل كل ما فى وسعه مثلما فعلت ، ومع أنه لم يكن لديه جرح قديم يعوقه مثلى ، فقد أصبح من الواضــح أنه لم يكن يألف بذل مثل هذا الجهد ٠ وقد لاحظ هولمز حالته وأمره بالتوقف ، ورجا ناظر المحطة ـ ان تفضل ـ أن يحل محل دكتور فرويد ٠ وقد أجاب الرجل بأنه يسعده ذلك وتناول الجاروف ٠ (ولو لم تكن المسافة بين القاطرة ومقطورة الفحم ضيقة لربمــا

كان قد ساعدنا قبل ذلك لكن المسافة لم تدن تسع سوى شخصين بالكاد) ٠

ورفض فرويد التخلى عن الجاروف ، قائلا انه لم يتعب بعد ، ولكن هولمز أصر مبينا له انه اذا لم يأخذ قسطا من الراحةالآن فلن يستطيع أن يحل محل أحد العاملين فيما بعد٠ واستمرت المناقشة ونحن نعبر مدينة « بوهيمكرشن » التى لمحت لافتتها للحظة ، ولان الدكتور فى النهاية وسلم جاروفه الى ناظر المحطة الذى أقبل على عمله بحماس ٠

وتناول فرويد سترته وأطلق تنهيدة من صدره وجلس قبالتى على أرضية العربة ٠ وسألنى « اتريد سيجارا ؟ » فتقبلته منه شاكرا ٠ كان فرويد يدخن بلا انقطاع سيجارا من النوع الفاخر ، مثلما يدخن هولمز الغليون ، ولو ان هولمز لم يكن يدقق فى نوع التبغ مما أدى الى نتائج معروفة بالنسبة لحاسة الشم ٠

جلسنا ، أنا وفرويد ، ندخن فى صمت بينما اسمر هولمز وناظر المحطه يقذفان بالفحم فى فرن الغلايه ٠ والمهندس يراقب مقاييس ضغط البخار وصمامات التحكم والطريق الحديدى ، وارتسمت على وجهه علامات القلق التى دلت على عدم ارتياحه لما يحدث لقاطرته والتفت مرة بعد أن فحص الصمامات ونادى على « الوقادين » ان يهدئوا من النيران قائلا : « ستنفجر القاطرة اذا لم تقل النار » ٠

ورد عليه ناظر المحطة : « كلا لن تنفجر ٠٠ لا تلتفت اليه ياهر هولمز ، لقد كنت أقود تلك القاطرات عندما كان هو لا يزال بالشورت ٠٠ تنفجر ؟ ها ! » واستمر فى تغذية النار وهو يقول : «لقد صنع هذه القاطرة فون لينسدورف ، فهل سمع أحد قط عن انفجار غلاية لينسدورف ؟ لا تعره اهتماما ياهر هولمز ٠٠ انه من الجيل الجديد لا اقدام

ولا شجاعة ولا احترام لمن هم أكبر سنا » وأشاح بيـــده فى اتجاه المهندس ٠

وقاطعه هولمز : « دقيقة واحـــدة هـــل تعنى أن هـــذه القاطرة قد صنعتها شركة فون لينسدورف ؟ » ٠

ـ طبعا يا سيدى بكل تأكيد « انظر الى اللوحة » وألقى بملء جاروفه الى الفرن الذى كانت ناره بيضـــاء متـــوهجة وتقذف الينا بلفحة محببة من الدفء ، وتحول الى لوحة معدنية صغيرة طمسها اللون الأسود وأخـــذ يحكهـــا بمنـــديله المبلل بالعرق والغبار ثم صاح :

ـ « هل ترى الآن » وتطلع هولمز الى اللوحة بفضول ورجع عنها وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة :

ـ « ماذا رأيت ياهر هولمز ؟ » ٠

ـ « سخرية الأقدار يا صديقى ٠٠ سخرية الأقدار ٠٠ استمر فى عملك » ٠

وهكذا انطلق القطار كالرعد خلال الليـــل ٠ وأخبرنا ناظر المحطة أن قطار البارون يتكون من ثلاث عربات بينما قطارنا به عربة واحدة ، وأن قاطرته التى تم تجهيزها عـــلى عجـــل فى ســـاعة واحـــدة فقط كانت أقل حجمـــا وقوة من قاطرتنا ٠ وأذكت هذه المعلومات حماسنا ورفعت من روحنا المعنوية ونحن نمر كالسهم خلال مدينة سانت بولان الكبيرة ، حيث كانت هنـــاك عدة تحـــويلات يجب تغييرها ، ثم مررنا بمدينة ميلك بسرعة خاطفة لا أجسر على التفكير فيها ٠

ـ وصاح ناظر المحطة بصوت يغطى على ضجيج القاطرة

بعد أن عبرنا مدينة ميلك : « هل ترغب فى المرور بمدينة لينز أم لا ؟ يجب أن تتخذ قرارك » ·

ـ واستفسر هولمز : « ما هى البدائل ؟ » ·

ـ « حسنا اذا مررنا خلال لينز فسنتخذ الطريق الاقصر الى سالزبورج » صاح وهو يضع كميه كبوق حول فمه حتى نستطيع سماعه : « ولكن لينز نفسها ستجعلنا نبطىء اذ توجد تحويلات كثيرة يجب تعديلها · ولكن اذا اتجهنا جنوبا فسنمر خلال امستيتين وستير ولكنهما اسهل ونماط التحويل فيهما أقل ورجال السكك الحديدية الذين قد يلاحظونك أقل · المهم أن تحزم أمرك قبل الوصول الى بوكلارن » ثم أضاف بعد تفكير : « كما أن الخط الحديدى قد لا يكون بجودة خط الجنوب » ·

ـ وسأله هولمز « ولكن هل هو مستعمل ؟ » ·

ـ والتفت ناظر المحطة الى المهندس الذى هز كتفيه ثم أحنى رأسه · ونظر هولمز الى فرويد وعلى وجهه علامة استفهام ·

فسأله فرويد : « كيف نعلم أن البارون سيمر بسالزبورج ؟ ·· ربما يتجه الى براناو » ·

فرد ناظر المحطة : « كلا ·· وهذا أمر أعرفه بالتأكيد ، فعندما نرتب المسار لقطار خاص يتم اختيار الطريق ويرسل الأمر بالتلغراف لكى يعدلوا التحويلات المطلوبة وذلك قبل قيام القطار · ولقد جهزت مسار قطار البارون بنفسى وأعلم الطريق الذى سيتخذه » ·

ـ وتدخل هولمز : « يا للصدفة ! ·· فبماذا تنصحنا اذن ؟ » ·

ـ وفكر ناظر المحطة قليلا وهو يعبث بشاربه ملوثا اياه بغبار الفحم : « فلنتجه جنوبا » ·

ــ « حسنا » ٠

وهدأنا من سرعتنا عند مدينة بوكلارن الصغيرة ونزل هولمز نفسه وعدل التحويلات ٠ كنا ــ الدكتور فرويد وأنا ــ قد استرحنا وأصبحنا ، فى حالة تسمح لنا بمعاودة عملنا وبدأنا فيه بينما القطار يندفع الى مدينه أمستيين ٠ ولاحظت عندئذ أن مخزوننا من الفحم يقل بسرعة ٠ وأخبرت هولمز بذلك بينما كان فرويد يكحت أرضية مقطورة الفحم ويدفع بما تبقى من الوقود الى مقدمة المقطورة ٠

ــ وسأل هولمز ناظر المحطة : «كم تبقى لدينا من الوقود؟»، وعاد الرجل الى المقطورة ثم تفقد الصمامات وقال : « سيكون من حسن حظنا اذا استطعنا أن نصل الى ستير » ٠ وهز هولمز رأسه ثم نهض وتعلق بالقضيب الحديدى على حافة المقطورة وقفز الى العربة الوحيدة التى يجرها القطار ٠ وتوقفت عن تجريف الفحم وحبست أنفاسى رغما عنى وأنا أدعو الله ألا تفلت قبضته وتحمله القفزة خارج القطار ٠ وكان معطفه ، الذى عاد فارتداه ، يطير فى الهواء يلفه كالشراع وأدت الرياح القوية الى أن طارت قبعته من فوق رأسه ٠

واختفى عن نواظرنا لفترة ، وانصرفت أنا وفرويد الى تغذية القاطرة بما تبقى لدينا من الفحم ، ولكن استمرار غيابه أقلقنى ٠ وكنت على وشك التعبير عن ذلك للدكتور عندما هبط علينا هولمز فى المقطورة وهو يرمى أمامنا كومة من الستائر وغيرها من المواد القابلة للاشتعال حملها من العربة ٠

وقال لنا : «استعملوا هذه ، وسأعود بالمزيد منها» وعاد من حيث أتى ٠

قد يكون من المفيد ــ بل ومن المسلى ــ أن أحكى لكم

بالتفصيل كيف مزقنا تلك العربة المسكينة اربا اربا وأحرقناها قطعة قطعة ، كل مقعد وكل شباك وكل باب الواحد تلو الأخر ٠٠ ولكن كما ترون ليس الوقت مناسبا لذكر كل التفاصيل ٠ ويكفى أن أقول اننا جميعا تناوبنا هذا العمل ـ ما عدا المهندس الذى رفض أن تكون له يد فى ذلك وأخبرنا بكل صراحة أننا نتلف ممتلكات السكك الحديدية ٠ وخصه ناظر المحطة بلعنة باللغة الآلمانية لم آستطع اكتشاف معناها ، ولكنى خمنت أنها ذات صلة بالام وبدت لى شديدة الوقع ، ثم تناول بلطة معلقة فوق اللافتة وانتقل الى العربة ليتبت بنفسه ما قد قاله ٠

وأخذ القطار ينهب الطريق مخترقا أستار الليل فى هذه المطاردة المجنونة ، واختفت العربة بفضل جهودنا التى استمرت حتى أتينا على آخر قطعة فيها دون أن تقل سرعتنا ولم نتوقف الا عند التحويلات حتى نستمر فى طريقنا الدائرى ، وتوقفنا مرة فى ايبنسى فى حوالى الخامسة صباحا تحت الحاح المهندس لنملأ خزان المياه ولم تستغرق العملية سوى بضع دقائق تسرب خلالها بعض البخار الى ضباب الفجر مع صفير القطار العالى وتساقط شرارات الفحم، ولكن المهندس ارتاح باله لاتمام العملية ٠ ثم تزايدت سرعتنا مرة أخرى ، وهدأت نفوسنا بعدما أكد لنا ناظر المحطة أن البارون لابد أنه قد قابل فى محطة لينز صعابا أكثر مما قابلناه ٠

كان ضوء الصباح الباكر يخترق حجب السماء بأشعة برتقالية وحمراء يضيء لنا الطريق ونحن نقوم بتحويل آخر نقطة فى باديش ، وأخذ عمال السكك الحديدية ينظرون الينا فى دهشة ثم أخذوا يصيحون بنا ونحن نندفع بالقطار خلال المحطة ، ورأيتهم من العربة يهرعون في اتّجاهات مختلفة مثل النمل ٠

ـ وقلت : «أتوقع أنهم سيبرقون الى المحطة التالية» وأومأ ناظر المحطة برأسه موافقا وهو يلوح بيديه فى استسلام ٠

ـ وقرر هولمز أن يخوض المخاطرة قائلا : « لا مفر من ذلك ٠٠ أطلق لها العنان أيها المهندس » ٠

وطار القطار ، بينما الشمس ترتفع من خلفنا ، وعلى يميننا لمعت مياه البحيرات تحت ضوء الأشعة المبكرة ٠ ومع أننا لم يكن لدينا الوقت لنستمتع بهذا المنظر ، فانه ذكرنى بالفخامة التى لاحظتها وأنا أمر بتلك المناظر فى طريقى الى فيينا ٠

أما الآن فبدلا من الجلوس المريح فى ديوان العربة والاستمتاع برؤية المناظر الخلابة من النافذة وقمم الجبال المغطاة بالثلوج والتفلسف بشأن الحياة والجمال ، كنت أكسر نافذة مشابهة ، بينما كان هولمز يقف على سطح العربة مستخدما أدوات أخرى وهو ينزع عوارضها الخشبية قطعة قطعة ويدفعها من خلال ثقب فى فتحة السقف لتنزل فى الممر تحته حيث يجمعها الدكتور فرويد وينقلها الى المقطورة فيجرفها ناظر المحطة الى الفرن المشتعل ٠

وتراءت أمامنا مدينة سالزبورج ، وبينما كنت أكوم ما جمعته من أنقاض فى ممر العربة سمعت صياحا من ناظر المحطة والمهندس فهرعت الى المقدمة ٠

وأثلج صدرى ما رأيته ، فعلى بعد ثلاثة أميال ـ كما قدرت ـ كان هناك قطار يسرع أمامنا فى اتجاه الجنوب الغربى مكون من قاطرة ومقطورة وثلاث عربات ٠

وصاح هولمز فى ارتياح وعيناه تبرقان : « ها هم هناك أنت عبقرى يا برجـر » واحتضن ناظـر المحطة المذهـول بحماس ، ثم توقف ليشاهد القطار المتقدم علينا بميـل أو اثنين وهو يميل بسلاسة ليتخذ المسار المتجه الى سالزبورج ٠ ولم ينم عن البارون وصحبه ما يشير الى أنهم رأونا ٠ واستمر قطارنا فى مساره واضطررنا للتوقف لتغيير آخر تحويلة قبل أن نضع قطارنا مباشرة فى اثر القطار الخاص للبارون ٠

الفصل السادس عشر

ما حــدث بعــد ذلك

صاح هولمز وهو يضع كفيه كالبوق حــول فمــه حتى نستطيع سماعه : «علينا أن نقتصد الآن كل أوقية من البخار قدر الامكان ٠٠ ولا تهتموا بعد ذلك بالتحويلات فلقد حولت كلها لصالح قطار البارون ٠ ولكن علينا أن نلحق بهم قبــل وصولهم الى الحدود عند سالزاك » ٠

كنا قبل دقائق قد بلغ بنا الارهاق مداه وكان كل واحد منا على وشك الانهيار ، ولكن الآن بعــد رؤيتنــا للفريســة اشتعل حماسنا ٠ واندفعنا ننفذ ما قال به هولمز ٠ نغــذى « الغلايه » بالوقود بحيث ارتفعت ألسنة النيران بيضاء عالية أكثر من أى وقت مضى ، ولــم نترك شــظية خشب فى تلك العربة التى فقدت تماما صــفتها كعــربة قطار ٠ وتفرعت أمامنا ، عند دخولنا الى سالزبورج ، خطوط السكك الحديدية فى متاهة من الطرق أكثر تعقيــدا من تفرعات الاوردة فى الجسم ٠ وكان المهندس قد فقد أعصابه تماما ، فلو كانت أية تحويلة قد أعيدت الى سابق وضعها لأصبحنا فى عــداد الأموات ٠ وسارع برجر ــ ناظر المحطة ــ الى احتلال مكانه ، بينما انزوى المهندس المذعور الى جوارنا يقذف بقطع الخشب الى « الفرن » وهو لا يجسر على رفع بصره ليراقب الطريق ٠

واقتربنا مرة أخرى من قطار البارون ٠ وأطلق هولمز عيارات نارية من مسدسه فى الهواء ليلفت نظرهم٠ ولم يكن

هناك داع لذلك فقد رأونا . ولمحت رأسين تتزاحمان فى شباك العربة تنظران الينا ، وبعد لحظات شرع قطار البارون فى زيادة السرعة .

مرت بنا مدينة سالزبورج مرور البرق ، ووجدت - مثلما وجد المهندس التعس - انه لا ضرورة لمتابعه خط سير القطار . ومع ذلك فقد كان من المستحيل الا ألاحظ المحطة وهى تندفع الينا بينما نمر بها كالرعد ، وكذلك نظرات الدهشه البالغه على وجوه الناس . كان قطار البارون يجرى بسرعة أكبر بكثير مما هو مسموح به فى المحطات ، ولكن ان يتبعه قطار آخر بنفس السرعة .. أمر يثير الدهشة بل ومحفوف بالخطر ، وسمعت أصوات الصفافير ورأيت الناس تجرى وهى تصيح مذعورة بينما كان بيرجر هو الآخر يطلق صفارة قطارنا .

وبعد المرور بمحطة سازبورج، لم يتبق أمام قطار البارون الا لحظات قبل أن يصل الى نهر سالزاك ويعبره الى بافاريا . ونسينا كل شىء وأخذنا نلقى فى « الفرن » بكل ما يصل الى أيدينا من بقايا عربة القطار بسرعة لم أكن أتصور أنها ممكنة قط .

وصاح فرويد : « لقد سدوا الطريق » وهو يشير الى الحدود أمامنا بعد أن عبرها قطار البارون . وصاح هولمز : « فلنقتحم الحاجز » وأطعنا أمره بينما تحطمت البوابة الى آلاف الشظايا التى تناثرت فى كل مكان .

ودخلنا بافاريا . وأثبتت قاطرتنا جدارتها ، وبدأنا فى الاقتراب من القطار الهارب وخلال لحظات التقاط الانفاس رأينا شخصا يلوح لنا بقبضتيه مهددا ، وفى اللحظة التالية سمعنا صوت طلقات نارية .

وصاح بنا هولمز « انبطحوا » وسقطنا جميعا على أرضية

العربة ، كلنا ما عدا المهندس المذعور الذى اختار تلك اللحظة لينهض من مكانه حتى يلقى نظرة على الطريق ، فأصابته رصاصة فى كتفه • فدار حول نفسه كدمية معلقة فى خيط وأمسك بجانب المقطورة • وأشار الى هولمز أن أعتنى به بينما ذهب هو وفرويد لجلب مزيد من الوقود • وزحفت الى جانب الرجل المسكين وتأكدت من آن الجرح ليس خطيرا • ولو آنه مؤلم • وتمكنت من تثبيت وضعى وضمدت الجرح بما وجدت فى حقيبتى من ضمادات ، ولكن كان من المستحيل فى ذلك الوضع أن استخرج الرصاصة • وكانت القاطرة تهتز بنا كما لو كان قد أصابها الشلل الرعاش كما كانت مشارطى قد ثلمت حدودها نتيجة استخدامها فى تقطيع أغطية المقاعد •

وعاد فرويد وهولمز بآخر كمية من الوقود وألقياها فى النار ، وأخبرانى بأنه لم يتبق شىء فى العربة يصلح كوقود• وكانت لحظة حاسمة ، فاذا قلت النيران ، كما يبدو أنه محتم ، فسنخسر كل شىء •

واقترح ناظر المحطة أن نفصل العربة (التىكانت) عنالقطار قائلا : « سيخفف ذلك منالحمل ويعطينا مزيدا من السرعة » ووافق هولمز وأخذنى معه بينما ترك فرويد ليعتنى بالمهندس ، واعتلينا المقطورة الفارغة ووصلنا الى الوصلة الحديدية التى تربطها ببقايا العربة ، وكانت الأرض تحتنا تجرى بسرعة رهيبة • وأخذ هولمز يحاول نزع الكلابات الحديدية بينما رقدت أنا على بطنى وأمسكته بقوة من خاصرته •

وبدأ هولمز يفك الوصلات ثم أخذ يفك الصواميل الكبيرة التى تربط العربة بالمقطورة • وكان عملا شاقا بسبب السرعة والضجيج الذى يصم الآذان• ومن الموقع الذى

كنت فيه لم أكن أرى شيئا من الجهـود التى يبذلهـا وبدأت ذراعاى تؤلماننى بسبب الجهد المبذول لحفظه فى مكانه وفجأة انفصلت العربة واندفعت القـاطرة بسرعة هائلة ، ولو لم أكن ممسكا به بثبات وقوة لـكان قد طار مرتطما بالأرض ملاقيا حتفه فى الحال ٠

وظللت ممسكا به وأنا أشده ببطء الى حافة المقطورة وهى عمليـة بدت وكأن لا نهاية لها وعنـدما استطاع فى النهاية أن يمسك بالمقطورة ندت عنه آهة عميقة هو يستنشق الهواء بشدة وقال لى : « لا تدع أحـدا يقل عنك بعـد ذلك يا واطسون انك مجرد مؤرخ لى » ٠

وابتسمت وانا أتبعه ونحن نعبر المقطورة لآخـر مرة آخذين حذرنا عند سيرنا فوقها ، فقد كان هناك من لا يزال يطلق النار فى اتجاهنا ، لقد كانت اصـابة المهنـدس ونحن نسير بهذه السرعة أمرا من قبيل الصدفة البحتة ٠

ونجحنا فى الوصول الى القاطرة ونظـرنا أمامنـا ٠ وأصبح واضحا لنا أننا فى طريقنـا الى التفوق عـلى قطار البارون ٠ واقترحت أن نفصل المقطورة أيضا ، حيث لم يعد بداخلها اى وقود ، ولكن برجر حذرنا من ذلك ، اذ أنهـا تعمل كثقل لتثبيت القطار وأنه بمثل هذه السرعة قد يكون من الخطر التخلص منها ٠

وكنا قد أجهزنا عـلى كل ما يمـكن أن يصـير وقودا ، وتخلصنا من الهيكل والعجلات الحديدية للعربة الوحيدة ، ولم يتبق شىء يمـكن عمله ٠ فاذا لم نلحق الآن بقطـار البارون ، فسوف تكون كل جهودنا قد ذهبت هباء ٠ وجزعت عندما تخيلت ردود الفعل العالميـة الناشـئة عن اقتحامنـا للبوابة عند الحدود وحدث ولا حرج عن الطريقة التى خرقنا

بهـا كل قواعد السـكك الحـديدية ، بالاضـافة الى تدمير ممتلكاتها !!

وخلال ذلك هبط مؤشر عداد ضغط البخار من موقعـه الذى كان ثابتا فيه (عدة درجات قبل منطقة الخطر الحمراء) . وأطلق هولمز تنهيدة كان صوتها أعلى من ضـجيج القطار ، وصاح : « لقد خسرنا » .

وكنا فعلا على وشك الخسـارة . لـولا أن البارون فى لهفته على الفرار ، ارتكب خطأ قاتلا . كنت عـلى وشك ان أجيب هولمز ببضع عبارات تشجيع زائف ، عندما استرعى انتباهى ان العربة الاخيرة من قطار البارون تتجه نحـونا بسرعة مخيفة .

وصحت وأنا أشير اليها : « هولمز لقد تخلص من احدى عرباته » وكان برجر قد رآها فى اللحظة نفسها وضغط على « الفرامل » بأسرع وأقوى ما يمكنه . ونحن نحاول تفـادى الاصطدام . ومرت عشرون ثانية من العذاب ونحن نـندفع الى الأمام دون آية بادرة تدل عـلى انخفـاض السرعه فى طريقنا الى الاصطدام بالعربة المفلوتة . واستعد كل واحد منا للصدمة ، وأمسك فرويد بالمهندس المجروح ، ولكن فى اللحظة الأخيرة أدركت أننا لن نصطدم . لقد اطلق البارون العربة على قمة منحدر ووفقا لقوانين القصور الذاتى فانها ما أن وصلت الى القاع وصعدت قليلا ، عادت الى النزول مرة أخرى وأصبحت تجرى أمامنا بسرعة حثيثة ، ولكنها كافية لتدميرنا ما لم يبادر برجر الى فعلته الحاسمة .

لما أدرك هولمز المـوقف ، ألقى معطفه عنـه وبدأ فى تسلق القاطرة متجها الى مقدمتها وصاح : « هدىء السرعة . سنحاول ضم تلك العربة » .

وتردد برجر لحظة أمام جرأة الفكرة ثم هز رأسه موافقا وخفف من قوة الدفع • وكان السياج المحيط بالقاطرة (الغلاية) شديد الحرارة لدرجة أن هولمز اضطر لاستخدام قبعته ليمسك بها السياج وهو يتحرك بجوار القاطرة •

وكنا ، فرويد وبرجر وأنا والمهندس (الذى استطاع النهوض على قدميه) نشاهده وقد حبسنا أنفاسنا في انتظار اللحظة الحاسمة وهو يتقدم خطوة خطوة نحو مقدمة القاطرة بينما لاحت عربة قطار البارون على مرمى البصر •

كان برجر ماهرا ، واستطاع الارتطام بالعربة برفق قدر الامكان ، بالنظر الى سرعة الطرفين • وحدثت صدمة خفيفة لم ينشأ عنها لحسن الحظ خروج احدى العربتين عن الخط ، ومع تحول المنحدر الى الصعود استندت العربة الى مقدمة قطارنا فى يسر •

واستطاع هولمز أن يقفز من مقدمة القطار الى العربة ، وأشار الينا أن نتبعه ، وبدأت فى الحركة ولكن فرويد أمسك بذراعى وصاح فى أذنى : « لن تساعدك ساقك على هذه القفزة » ثم خلع سترته وتتبع خطى هولمز واحتياطاته حتى وصل اليه •

وعاد فرويد بعد فترة وهو يحمل حملا من ستائر العربة ألقاها فى النار ، واقترح هولمز ، الذى كان يجمع مزيدا من الوقود ، أنه قد يكون فى وسعنا الآن أن نتخلص من المقطورة • وقال برجر انه من الممكن حدوث ذلك الآن ولكنه لا ينصح به ، ولكننا قمنا بذلك وتخلصنا منها • وعاد هولمز بالمزيد من الوقود وبدأ مؤشر ضغط البخار يرتفع • وبفضل هذا المدد الجديد من الوقود والتخلص من المقطورة بدأنا مرة أخرى فى اللحاق بقطار البارون • واقترب هولمز من برجر ، الذى كان مشغولا بأدوات التحكم

وأخذ يحدثه فى أذنه بشكل جاد · وانزعج الرجل فى البداية ونظر اليه بشدة ، ثم هز كتفيه وربت على كتف هولمز · وعاد هولمز الى حيث كنت أقف وطالبنى بالمسدس ·

فسألته وأنا أناوله السلاح : « ماذا ستفعل به ؟ » ·

ـ فأجابنى : « ما أقدر عليه » مكررا عبارة فرويد المماثله التى قالها فى موقف مشابه · «واطسون ايها الصديق القديم ، اذا لم نلتق مرة أخرى ، فاعتقادى انك ستذكرنى بكل خير » ·

ـ « ولكن يا هولمز ··· » فأمسك بيدى وضغط عليها بحيث أوقف كل كلام · واستدار الى فرويد الذى ساله : «هل هذا ضرورى ؟ » وكان فرويد ـ مثلى ـ لا يبدو أن لديه آيه فكرة عما ينتويه هولمز ، ولكن كلماته كان لها وقع ينذر بالشر ·

ـ أجاب هولمز : «أخشى أنه لا مفر من ذلك ·· وعلى أية حال ، ليس امامى مخرج آخر · الوداع يا سيجموند فرويد وليباركك الله جزاء ما قمت وستقوم به من خدمات للجنس البشرى ، ولانقاذك لحياتى التعيسة على الأقل » ·

ـ واحتج فرويد قائلا : « أنا لم أنقذها لكى تفقدها أنت » وبدا لى أن عينيه قد امتلأتا بالدموع ، الا ان ذلك قد يكون راجعا للحرارة والغبار والريح ·

وعلى كل ، فان هولمز لم يسمعه لأنه اتجه مرة أخرى الى العربة التى كان قطارنا يدفعها أمامه ، بينما كنا ندنو شيئا فشيئا من قطار البارون ، ولشدة انشغالنا بمراقبته لم نلحظ الا فجأة ظهور قطار آخر قادم من الجهة المقابلة على الخط الحديدى الموازى ، وكان هولمز منهمكا فى مراقبة خطواته بحيث لم نلحظه ، بل لم يسمع صرخاتنا ونحن

نحذره ان يلتصق بجسم القاطرة . وهكذا فاجأه القطار ومر بجانبه كالرعد القاصف يكاد يمس جسده حتى انه افلت احدى يديه وكاد الفراغ الهوائي ان يبتلعه . الا انه ثبت في موقفه وما هي الا لحظة حتى شاهدناه يهز براسه بما يعنى انه لم يصبه سوء ثم اختفى داخل العربه . ومن الصعب ان اصف ماذا حدث داخل العربة بالضبط . لقد ظللت ارى المنظر فى أحلامى بل وقارنت ذكرياتى عنه بما يتذكره فرويد ، ولكن الواقع أنه حدث بسرعة خاطفة وفى وسط خلط واضطراب حتى ان الواقعة لم تتخذ معالم واضحة فى أذهاننا .

كان برجر قد لحق بقطار البارون بحيث تساوت سرعتاهما وآخذ يدفع العربة بحيث تلامس قطار البارون . وخلال الطريق الملتوى بين الجبال الشاهقة عمل برجر على تقليد سرعة قطار البارون فيسرع ويبطىء وفقا لحركة قاطرته . وبهذا الشكل دخلنا الى النفق وفى أعماق ظلامه سمعنا صوت طلقات نارية تدوى مغطية على ضجيج القطار . وفى اللحظة التالية خرجنا مرة اخرى الى الهواء الطلق . ولم أعد استطيع تحمل هذا الموقف الغامض ، وصممت أن اتبع صديقى . ونظر الى فرويد وأدرك أنه من العبث أن يثنينى عن عزمى فانضم الى وبدأنا نخطو الى الأمام عندما صاح بنا المهندس وهو يلوح بيديه :

كان هناك شخص يتسلق العربة الأقرب الينا ، رجل يرتدى ملابس سوداء وحذاء لامعا ذا رقبة طويلة يحمل فى احدى يديه مسدسا وفى الأخرى سيفا .

ــ وصاح فرويد : « انه البارون » .

وآه لو طالت يدى مسدسا أو أى سلاح ، فاذا كان هذا الشخص قد قتل هولمز ويرمى الى اطلاق النار علينا الآن ، فقد أصبحنا فى خبر كان . ولم تعد المقطورة توجد خلفنا ،

أى لا يوجد مكان يمكن أن نلجأ اليه لنحتمى به . وفى تلك اللحظة أعتقد أن الموت لم يكن يهمنى بقدر ما أهمنى الموت دون أن أثأر لهولمز .

الا انه لم يمت . فبينما أنا أنظر ظهر شخص ثان على سقف نفس العربة من الطرف الآخر . كان شرلوك هولمز . وكان يحمل مسدسا وسيفا مثل البارون ، ولم أدر كيف يمكن أن توجد كل تلك الأسلحة فى قطار الا فيما بعد .

وبينما كنا نشق طريقنا بين أرجاء الريف البافارى ، وقف الرجلان يواجهان بعضهما البعض على طرفى عربة القطار .

وبدا الرجلان كأنهما تمثالان لا حراك بهما اللهم الا محاولة تثبيت أقدامهما على سقف العربة المهتز . وفى احدى تلك المحاولات فقد هولمز توازنه فأسرع البارون وأطلق مسدسه الا انه لم يضع فى اعتباره أن نفس الهزة التى جعلت هولمز يفقد توازنه تؤدى الى اختلال توازنه هو الآخر فطاشت طلقته . وحاول مرة أخرى بينما كان هولمز يحاول النهوض ، الا أن المسدس لم ينطلق . اما لأن رصاصه قد فرغ أو حدث خلل فى ميكانيزم الاطلاق . ولاح على وجهه غضب عظيم وهو يلقى بالمسدس جانبا . وبشكل تلقائى رفع هولمز مسدسه وصوبه ولكنه لم يطلق النار .

ـ وصحنا به : « أطلق يا هولمز .. أطلق يا هولمز » ولم يبد عليه انه سمعنا كما لم يبد عليه أى اهتمام عندما حاولنا أن نحذره من فوهة النفق الذى كنا مقبلين عليه . وثبت البارون أقدامه وهو يرقب الموت يقترب سريعا من هولمز .

ولكن من سخرية الأقدار أن كان البارون نفسه هو

الذى أنقذ هولمز • اذ آنه انبطح بحـركة لا شـعورية فوق سطح العربة ليتحاشى الاصطدام بالنفق وأدرك هولمز عـلى الفور السبب فى ذلك فانبطح هو الآخر وطار المسدس من يده أثناء تلك الحركة •

وبدا أن النفق الجديد لا نهاية له • ترى ماذا يحـدث الآن ؟ هل تغلب ذلك الشيطان منتهزا فرصة الظلام وتسلسل عبر العربة ليطعن صديقى ؟ أطار ذلك الخاطر ما تبقى من عقلى •

وعندما خرجنا الى ضوء النهار مرة أخرى كان العدوان المتنافسان يتحركان صوب بعضهما البعض وقد شـهر كل منهما سيفه وهما يحاولان بصعوبة الاحتفاظ بتوازنهما •

والتقى السيفان ونصلاهما يلمعان فى ضوء الشـمس وتبادلا الطعنات وهما يحاولان الاحتفاظ بتوازنهما خـلال المبارزة • ولم يكن أى منهما هاويا • فقد تدرب البارون فى هايدلبرج ــ ولعل الندبة على وجهه خير دليل عـلى ذلك ــ أما هولمز فكان بطلا فى لعبة الشيش وخبيرا فى اللعب بالعصا • ولكننى لم أشاهده من قبل يلعب بسيف المبارزة ، كما لم أر قط مبارزة على أرض لا تثبت عـلى حال مثـل سـقف تلك العربة •

عـلى أن البارون ، والحق يقال ، كان أبرع من هـولمز فى المبارزة بالسيف فأخذ يضغط عليه ببطء مجبرا اياه على التراجع المنتظم الى نهاية العربة • وكانت ملامحه الشيطانية تطفح بالسرور فى انتظار النهاية المتوقعة عندما أدرك مدى تفوقه على خصمه •

وصحت فى برجر : « الصق القاطرة بقطار البارون » فأعطاها دفعة جاءت في الوقت المناسب اذ اصطدمنا بقطار

البارون فى اللحظة التى اضطر فيها هولمز الى التراجع للخلف منتقلا الى سطح عربة قطار البارون ، ولولا أن الصدمة كانت خفيفة لذهب هولمز فى عالم النسيان ٠

وتابعه البارون برشاقة ومهارة كنمر متوحش ٠ واستطاع برجر بعد فترة أن يتحكم فى القاطرة ويهدىء من سرعتها حتى يفصلها عن قطار البارون ٠ وتعثر هولمز مرة أخرى ولم يضيع البارون الفرصة فدفع بسيفه نحو هولمز ٠ واستدار هذا الأخير ليتجنب الضربة ولكن سيف البارون أصاب ذراعه ورأيت الدم يندفع من الجرح ٠

ثم انتهى الأمر فجأة ٠ أما ماذا حدث وكيف حدث بدقة فلم أستطع قط الوصول الى كنهه ٠ بل ان هولمز نفسه لم يستطع التذكر ٠ ويبدو أن البارون سحب سيفه الى الخلف واستعد لطعنة ثانية الا أن قدمه انزلقت فاندفع الى الأمام ملقيا بجسده على سيف هولمز الذى كان مشرعا وهو فى حالة النهوض من سقطته ٠ وكان اندفاع البارون قويا لدرجة أن سيف هولمز اخترق جسده حتى المقبض ولم يستطع الشقى أن ينتزعه من جسده ٠ ووقف للحظة فوق سطح العربة يتمايل ووجهه الشرير متجهم من هول الألم ثم صاح صيحة هائلة ــ مازلت أسمعها تتردد فى أحلامى ــ وسقط من فوق العربة ٠ وظل هولمز راكعا على ركبتيه لعدة لحظات ممسكا بذراعه المصابة محاولا أن يحتفظ بتوازنه حتى لا يسقط هو الآخر ٠ ثم تلفت حوله باحثا عنا ٠

وهرعنا ، فرويد وأنا ، من القاطرة بأسرع ما نستطيع وتسلقنا سقف العربة حيث أمسكنا به وأنزلناه بحرص على السلم فى نهاية العربة ٠ وكان فرويد متلهفا على فحص الجرح الا أن هولمز هز رأسه بعناد مصرا على أنه ليس سوى خدش بسيط ٠ وقادنا خلال العربتين اللتين كانتا لا تزالان

متصلتين بقاطرة البارون • وشاهدنا فى العربة الأولى الجثة الضخمة للساقى مصابا برصاصة فى الصــدغ أطلقها هولمز عندما دخل العربة أول مرة • وفى زاوية أخرى من العربة انكمشت المـرأة التى قامت بكفـاءة بدور البـارونة فون لينسدورف وهى تصيح صـيحة هسـتيرية أفسـدت ملامح جمالها الباهر • ولم تتحرك من مكانها أثناء مرورنا وانما جلست تبكى كطفل صغير وهى تهتز الى الأمام والى الخلف •

الفصل السابع عشر

المشكلة الأخيرة

قال شرلوك هولمز وهو يضع كأس البراندي جانبا :
« نحن لم نمنع الحرب حقيقة ·· كل ما يمكن قوله أننا أجلناها فحسب » ·

ـ « ولكن » ··

ـ « ليس سرا أن الأساطيل تتجمع في سكابا فلو » قالها وهو نافد الصبر ولكن بعطف « فاذا أراد القيصر أن يحارب روسيا بشأن البلقان · فسيجد وسيلة لذلك ولما كان البارون قد مات والبارونة عاجزة فلن يدهشني أن أعلم أن الحكومة الألمانية قد أعلنت أن الوصية لاغية وأن الضيعة مصادرة » واستدار في مقعده ليواجه فرويد وهو حريص على ألا يغير وضع الرباط الذي تستند اليه ذراعه اليسرى : « وهكذا سنجد يا عزيزي الدكتور أنفسنا في جانبين متحاربين » ·

كنا جالسين مرة أخرى في المكتب المألوف في شارع برجاس رقم ١٩ · ورغم أن هذه الجلسة كانت آخر زيارة لنا لهذه القاعة المريحة الا أن كثافة الدخان فيها أصبحت تذكرني أكثر فأكثر بمأوى شرلوك هولمز في شارع بيكر ·

وهز سيجموند رأسه في أسى موافقا على ما قاله هولمز وأشعل سيجارا آخر وتنهد وهو يقول : «لقد كان أخذ أسباب

مساعدتي لك هو منع حدوث تلك الحرب الا أنه لا شك لدى في صدق نبوءتك لقد انتهت كل جهودنا الى لا شيء » ٠

ــ وابتسم هولمز قائلا : « أما أنا فلن أذهب الى مثل ما ذهبت اليه » وعدل من وضعه على المقعد ، فلم يكن جرحه بسيطا لأن سيف البارون قد قطع طرفا من عصب ، وكانت كل حركة تحدث ألما شديدا ٠

وبصعوبة بالغة أمسك غليونه بيده اليسرى ورفعها ببطء الى شفتيه حيث أشعلها وثبت وضعها بين أسنانه وترك يده تهبط ببطء الى أسفل ٠

ــ « لقد كسبنا بعض الوقت رغم كل شيء وهذه هي الفائدة الرئيسية التي جنيناها من جهودنا ٠ ألا تتذكر يا عزيزي واطسون عبارة مارفل المفضلة « آه لو كان لدينا متسع من العالم ومن الوقت ؟ » ان ما يحتاجه العالم الآن أشد الاحتياج هو الوقت ٠ فربما اذا أتيح للبشرية الوقت الكافي لجاهدت ذلك النصف المرعب من نفسها والذي يبدو دائما معنيا بأفعال العبث والفساد والتدمير ٠ فلو كان عملنا هذا قد كسب ولو ساعة واحدة تفهم البشرية فيها مسئوليتها فان ما فعلناه لن يكون عبثا » فتدخلت قائلا :

ــ « هناك فائدة أخرى ذات طبيعة عاجلة نشأت عن عملنا ٠ فقد أنقذنا تلك المرأة التعسة من مصير أسوأ من الموت وهناك أيضا ٠٠ » وترددت ثم توقفت بينما ضحك هولمز وتابع مسيرة أفكاري وأكمل لي جملتي قائلا : « والشيء الآخر أن فرويد قد أنقذ حياتي فلو لم أحضر الى فيينا ولو لم ينجح دواؤك لكانت هذه الفرصة قد فاتتني بلا شك ، وغيرها من الفرص التي ستمر بي» وأضاف ملتفتا الى وهو يتناول كأسه مرة أخرى : « ولو لم تتحايل أنت يا واطسون لتأتي بي الى هنا رغما عني فلم تكن الفرصة لتتاح للدكتور فرويد لينقذ مدمنا حالك المصير ، انني أدين بحياتي لكما ٠ وبالنسبة لواطسون

فلا تزال آمامنا فرصة من الحياة لأرد له صنيعه • أما بالنسبة لك أنت يا دكتور فرويد فأعترف انني فى حيرة من آمرى • واذا صحت توقعاتى فقد تكون هذه المرة الأخيرة التى نشاهد فيها بعضنا بعضا فكيف أرد لك صنيعك ؟ » •

ولم يجب فرويد مباشرة وانما كان يبتسم بطريقته التى انفرد بها حينما كان هولمز يتحـدث • أما الآن فقـد نفض رماد سيجاره ونظر بثبات الى صـديقى • ثم قال : « أعطنى فرصة لأفكر » •

كانت حقائبنا جاهزة والقضية قد انتهت والبارون قد توفى وبعد فترة قصيرة سأكون فى لندن مع زوجتى • واتضح أن التى انتحلت شخصيته البارونة فون لينسدورف ـ كمـا توقع هولمز ـ هى ممثلة أمريكيـة بقيت فى أوروبا بعـد عودة فرقتها الى أمريكا وكان اسـمها الحقيقى ديانا مارلـو وخلال اقامة الفرقة فى برلين التقت بالبارون الشاب ونشأت بينهما علاقة • وقد أطلق سراحها بعد توقيعها اقرارا اعترفت فيه بدورها كما وقعت على تعهد بأنها لن تكشف عن الأحداث التى شاركت فيها ولا أسماء من شـاركوا فى تلك الأحـداث بما فى ذلك اسم شرلوك هولمز وانها لن تحاول الدخول مرة أخرى الى النمسا أو المانيا •

وكانت سلطات الأمن فى كلتا الدولتين حريصة على أن تسدل الستار على تلك الفضيحة ذات الأبعاد الواسعة والتى قاربت أن تكون فضيحة عالمية • وتكشفت كل الحقائق • وشهد كل من برجر والمهندس بما شاهداه وتلقيا ، مثلنا ، تعليمات بألا يفشيا السر الى الأبد • كذلك تلقى السيرجنت ورجاله من شرطة فيينا تعليمـات بكتمـان السر • ولو أنه كان من الواضح أنه لا مفر أمام الجميع الا أن يظلـوا صـامتين • ولاقى مدبرو تلك المؤامرة الدنيئة جزاءهم العـادل • أما البارونة المسكينة فربما مر وقت طـويل قبـل أن تستطيع

الكلام (هذا اذا تمكنت منه على الاطلاق) · ولا شـك أن حكومنا القيصر والامبراطور رآتا من الفطنـة الا تكشـفا تحالفاتهما ومؤامراتهما السياسية للرأى العام فى الـوقت الحالى وفى ظل تلك الظروف المريبة وحقيقة الامر كما علمت فيما بعد ان الضالع فى تلك الدسيسـة لم يكن الامبراطور العجوز وانما ابن أخيه المتآمر الأرشيدوق فرانز فرديناند الذى دبر تلك المؤامرة مع الكونت فون شيلفن والبارون فون لينسدورف ودار المستشارية فى برلين ·

وقد حصل الآرشيدوق ــ ولكن بطريقة غريبة ــ عـلى أسلحته الفظيعة ، فقد قدمتها ألمانيا الى النمسا بعـد مصرعه فى سراييفو بعد ذلك بعدة سنوات ، بينما أدت الحرب التى نشبت بعـد ذلك الى أن يفقـد القيصر عرشـه · وكثيرا ما تذكرت ، خلال السنوات السوداء التى بدأ بهـا هـذا القرن وصف سيجموند فرويد المختصر لذلك الرجل والذى بناه على ملاحظته لذراعه العاجزة · ولو أننى لم أستطع الجزم بصحة تفسيره · وكما سبق لى القول كانت لى نقاط خلاف عـديدة مع سيجموند فرويد ·

وخلال حزمنا لأمتعتنا · ناقشت مع شرلوك هولمز فكرة خرق الاتفاق مع هاتين القوتين (ألمانيا والنمسا) وأن نعلن للعالم سلوكهما المشين · فمتى عدنا الى انجلترا لن يكـون هناك ما يمنع قيامنا بذلك ، ولن يعوقنا ــ سرقة القطار أو الساقى الذى قتله هولمز أو اختراقنا للحدود ــ فهـذه كلهـا أشياء حدثت عندما كنا فى النمسـا ولا يمـكن استخدامها لارغامنا على التعاون · ولربما كان من الأصـلح أن يعرف العالم مهاوى السوء التى يدبرها له قادته العظماء ·

الا أننى قررت السكوت ، فلم نكن متأكدين من النتائج التى سيؤدى اليها هذا الكشف ــ اذ لم يكن أى منا بارعا فى السياسة لدرجة تسمح بتقدير نتائج ذلك العمل ــ والأسوأ

من ذلك لم نكن نستطيع كشف الأمر دون فضح دور الدكتور فرويد ، وهو أمر لم نكن تجسر عليه طالما بقى الدكتور فى فيينا ٠

وقال فرويد فى النهاية : « سأخبرك بما أرغب فيه » ووضع سيجاره وهو ينظر نظرة ثاقبة الى عين هولمز : « أود أن أنومك مرة أخرى » ٠

ولم تكن لدى أية فكرة عما يود أن يطلبه (كنت أظن أنه سيرفض أى شىء من هذا القبيل) ولكنى لم أتوقع ذلك قط ٠ كذلك هولمز ، الذى جحظت عيناه من الدهشة وأخذ يكح قبل أن يجيب :

ــ « تريد أن تنومنى ٠٠ لأى سبب ؟ » ٠

هز فرويد كتفيه دون اجابة وعلى فمه نفس الابتسامة الهادئة ثم قال : «لقد تكلمت لتوك عن ورطة الانسانية ٠٠٠ ويجب أن أعترف أن هذه هى مناط اهتمامى البالغ ولما كنا قد لاحظنا أن الوسيلة الوحيدة الملائمة لدراسة البشرية هى دراسة الانسان الفرد لذلك فكرت انك ربما تسمح لى بأن ألقى نظرة أخرى الى أعماق عقلك » ٠

وفكر هولمز فى الأمر مليا

ــ « حسنا أنا خادمك المطيع » ٠

وتدخلت قائلا : « هل تسمحون لى بالانصراف » هممت بالقيام اذ ظننت أن فرويد ربما يرى فى وجودى عرقلة لما سيقوم به ٠

ــ فأجاب : «كلا بل انى أفضل أن تبقى» وقام ليسدل الستائر ويحضر ساعته ذات السلسلة مرة أخرى ٠

كان تنويم هولمز هذه المرة أسهل بكثير مما كان عليه الأمر قبل ذلك ، عندما كنا معتمدين على أسلوب فرويد لايقاف هولمز عن تعاطى الكوكايين. أما الآن فكان التجاوب سهلا ولم يكن هناك ما يعكر صفو تفكيرهما . ولدينا وقت كاف . وأغلق هولمز عينيه خلال ثلاث دقائق وجلس ساكنا منتظرا تعليمات الدكتور .

ــ وبدأ فرويد حديثه بصوت خافت هادىء : « سأوجه اليك بعض الأسئلة . وسوف تجيبنى عليها . وعندما ننتهى سأطرق بأصبعى وسوف تستيقظ عندئذ . ولن تتذكر شيئا مما حدث خلال نومك .. اتفقنا » .

ــ « اتفقنا » .

ــ « حسنا ــ وأخذ نفسا عميقا ــ متى بدأت تعاطى الكوكايين ؟ » .

ــ « فى سن العشرين » .

ــ « لماذا ؟ » .

لم يحر هولمز جوابا .

ــ كرر فرويد السؤال « لماذا ؟ » .

ــ « لأننى كنت تعيسا » .

ــ « لماذا اخترت مهنة المخبر السرى ؟ » .

ــ « لأعاقب الأشرار وأرى العدالة تأخذ مجراها » .

ــ « هل سبق لك أن خبرت ظلما ؟ » .

توقف ...

ــ وسأله فرويد مرة أخرى وهو يمسح شفتيه بلسانه ناظرا الى : « هل خبرت ؟ » .

ــ « نعـــم » .

كنت جالسا فى مقعدى أستمع الى هـذا الحـوار بكل انتباه واعجاب وقد أسندت كوعى الى ركبتى وملت بجسمى الى الأمام متحفزا حريصا على ألا تفـوتني كلمـة من هـذا الحديث الخافت ٠

ـ « هل مررت أنت نفسك بخبرة أفعال اللوم والاثم؟»٠

ـ « نعـــم » ٠

ـ « وماذا كانت تلك الخبرة ؟ » ٠

وتردد هولمز مرة أخرى ، وحثه فرويد ثانية على الكلام « ماذا كانت تلك الخبرة ؟ » ٠

ـ « كانت أمى تخون أبى » ٠

ـ « هل كان لها عشيق ؟ » ٠

ـ « نعـــم » ٠

ـ « وماذا كان الظلم أو الاثم الذى وقع ؟ » ٠

ـ « قتلها أبى » ٠

وأحسست بجسم فرويد ينتصب فى مقعده وأخذ ينظر متحيرا فى أرجاء الغرفة وهو فاقد لسيطرته على نفسه ـ مثلى تماما ـ فقد نهضت فجـأة من مقعدى فى اسـتجابة آلية ثم تجمدت فى مكانى ٠٠ دون أن أفقد حاستى السمع والابصار ٠ وتمالك فرويد نفسه بسرعة عنى ٠٠ والتفت مرة أخـرى الى مفحوصه :

ـ « اذا لقد قتل أباك أمك ؟ » (١) ٠

ـ « نعم » وغص حلقه بشهقة مزقت نياط قلبى ٠

---

(١) لقد استطاع تريفور هوارد ببراعة استنتاج هذه الواقعة وذكرها فى مقالة بعنوان « السنوات المبكرة فى حياة شرلوك هولمز » ـ (نيكولاس ماير) ٠

ـ « وماذا عن عشيقها ؟ » تابع فرويد استجوابه فى مثابرة وعيناه ترمشان بسرعة .

ـ « لقد هرب » .

وتوقف فرويد ليتمالك نفسه قبل أن يتابع :

ـ « وماذا بشأن والدك ؟ » .

ـ « لقد انتحر » .

ظل هولمز بلا حراك طيلة هذا الاستجواب . وكان ظهور قطرات العرق على جبهته فجأة مؤشرا على العذاب الداخلى الذى يعانيه . وتأمله فرويد بعناية ، كما لو كان يقدر الى أى مدى يمكن الاستمرار فى هذا الاستجواب .. ثم قرر الاستمرار .

ـ « هل كنت تعرف شخصية عشيق أمك ؟ » .

ـ « نعم » .

ـ « من هو ؟ » .

ولم أستطع أن أمنع نفسى من التدخل .. «ياذكتور» . لم يكن الاسم يعنى شيئا بعد هذه السنوات الطويلة . ولكن السؤال كان قد ألقى . وكان هولمز بحكم طبيعته المنتظمة ـ داخل التنويم وخارجه ـ على وشك الاجابة .

ـ « لقد كان مدرسنا ! » .

ـ « مدرسك أنت وأخيك مايكروفت ؟ الأستاذ موريارتى ؟ »

ـ « نعم » جاء الجواب مصحوبا بأنة مكتومة .

ـ « هكذا اذن » .

ونظر فرويد الى ساعته في سلسلتها وحملق فيها مكتئبا برهة ثم وضعها في جيبه وقال : «حسنا فلتنم الآن ياهر هولمز .. وابق نائما سأوقظك بعد لحظة ولن تتذكر شيئا مما دار في هذه المقابلة .. مفهوم ؟

ـ « قلت انني فاهم » .

ـ « حسنا فلتنم الآن » .

ولاحظه فرويد لفترة وتأكد من أنه لا يتحرك . ثم نهض وعبر الغرفة وجذب مقعدا وضعه بجانبي . وكانت عيناه أكثر حزنا من أى وقت مضى . ولم يقل شيئا بل أخذ سيجارا وقص طرفه وأسفله . وكنت قد غرقت في مقعدي وعقلي في دوامة وأذناى تدويان من هول الصدمة .

ـ قال فرويد بعد فترة وهو يحدق في من خلال الدخان : « لا يتجه المرء الى المخدرات بسبب أنها « الموضة » أو لأنه يحب ذلك . هل تتذكر انني سألتك في البداية كيف عرف طريقه الى المخدر . ولم تستطع أن تجيب على سؤالي ، بل ولم تدرك أهميته . الا أنني أدركت منذ البداية أن شيئا قد دفعه الى هذا الطريق المهلك ..

ـ « ولكن » ـ وألقيت نظرة على هولمز ـ « هل خطر ببالك ؟ » .

ـ « كلا بالطبع لم أتوقع قط أن أسمع ذلك الذى سمعته الآن . ولكن انظر الى الكم الهائل الذى شرحته لنا تلك الوقائع . فنحن نفهم الآن مصدر ادمانه والسبب الذى جعله يختار تلك المهنة بل وفهمنا أيضا سر تجنبه للنساء والصعوبات

التى يعانيها فى التعامل معهن • وفضلا عن ذلك فقد اتضحت أسباب عداوته لموريارتى وكذلك النفوذ الغامض الذى يمتلكه مايكروفت على هذا الشخص • كما نفهم ايضا لماذا ضخم صديقك من شان هذا الأستاذ الصغير وسماه « نابليون الجريمة » • فتحت تأثير التشبع بالكوكايين تتخذ العلاقة غير المشروعة بين موريارتى ووالدة هولمز أبعادها الانفعالية الحقيقية ــ وهى أبعاد لا نهاية لها » • ومال فرويد بجسمه الى الأمام وهو يمسك بالسيجار يهزه لتأكيد كلامه ثم عاد الى جلسته تاركا لى فرصة من الوقت لأفهم تسلسل افكاره • ولما رأى اننى اتابعه استأنف حديثه قائلا : « ويجب ان ندرك بالطبع أن كل هذه الاستنتاجات مدفونة فى أعماق نفسه ــ فى منطقة أطلقت عليها تعبير « اللاشعور » ــ ولا يسمح لها قط بالظهور فى ادراكه ، وانما تظهر أعراض هذه الافكار رغما عنه ــ كما يتضح فى اختياره لمهنته ولا مبالاته بالنساء (وهو أمر قد سجلته يا دكتور واطسون) وأخيرا فى تفضيله للمخدر الذى تتكشف تحت تأثيره مشاعره الحقيقية الدفينة حول الموضوع » •

لقد استوعبت الحقيقة المهولة فى قول سيجموند فرويد فى لمحة • لقد فسرت لى أيضا ذلك الانسحاب الغريب لمايكروفت هولمز من العالم الى مكان يحظر فيه الكلام، وكذلك حالة العزوبية الدائمة للأخوين • أما بالنسبة للبروفسور موريارتى ودوره فى المسألة فقد أدركت مفزوعا كيف أن شرلوك هولمز كان مصيبا بالنسبة له على أية حال والتفت الى سيجموند فرويد : «انك أعظم المخبرين السريين على الاطلاق» ولم يكن هناك وصف يمكن أن أطلقه عليه غير ذلك •

ــ وهز فرويد رأسه وهو يبتسم ابتسامته الحزينة الحكيمة : « لست مخبرا سريا ، ما أنا الا طبيب مجاله هو العقول المضطربة » ولاح لى أن الفرق لم يكن كبيرا •

ـ وما الذى ستستطيع فعله بالنسبة لصديقنا ؟ ٠

وتنهد فرويد وهز رأسه مرة أخرى :

ـ « لا شيء » ٠

ـ وذهلت « لا شيء » هل قطعنا كل هذا الشوط لـكى نقف عند هذا الحد ٠

ـ « أجل لا شيء ـ لا أعلم كيف أصل الى تلك المشـاعر الا من خلال تلك الطريقة الفجة العاجزة ألا وهى التنويم » ٠

ـ فقلت : « عاجزة ؟ » وجذبت كم سترته وأنا أقول : « بالتأكيد يا دكتور فرويد » ٠٠

ـ « أجل عاجزة لأن المريض فى هـذه الحالة لن يرغب ـ بل لن يستطيع ـ أن يتقبل شهادته هو نفسه عندما يعود الى وعيه ٠ لن يصدقنى ولن يصدقك بل سيتهمنا بالـكذب والافتراء » ٠

ـ « ولـكن ٠٠ » ٠

ـ « يا دكتور واطسون لو لم تكن أنت هنـا وشـاهدت بنفسك ، هل كنت تصدق ؟ » ٠

ـ واعترفت بأننى بالفعل ما كنت لأصدق ٠

ـ « حسنا ها هنا توجد مشكلتنا ٠ وعلى أية حال فمن المشكوك فيه أن يظل هولمز هنا لمدة كافية تسمح لنا بالتوغل فى أعماق ذاته بأية وسيلة أخرى ٠ انه يتعجل الرحيل » ٠

وتجادلنا في الموضوع عدة دقائق ، ولكنى أدركت منذ البداية انه على صواب . ان أى أساليب قد تساعد شرلوك هولمز لم تكتشف بعد .

وقال لى فرويد : « تسلح بالشجاعة يا أخى ان صديقك ، فى نهاية الأمر ، هو انسان يقوم بواجباته . انه يؤدى عملا نبيلا بل ويؤديه ببراعة . ورغم تعاسته فانه ناجح فى عمله بل ويحبه الناس . وسيأتى الوقت الذى سيكتشف فيه العلم مغاليق أسرار العقل البشرى . وعندما ياتى ذلك الوقت لا شك عندى فى ان شرلوك هولمز سيكون مسئولا عن الوصول اليه شأنه شأن كل الآخرين . سواء تخفف عقله من احماله المخيفة أم لم يتخفف » .

وجلسنا صامتين لفترة من الوقت ، وبعدها أيقظ فرويد المخبر السرى من غفوته . ولم يتذكر شيئا كما أمر .

واستفسر هولمز وهو يشعل غليونه : « هل قلت شيئا ذا أهمية ؟ » .

ـ وأجابه فرويد مبتسما : « أخشى ان ما قلته لم يثر اهتمامى » وتشاغلت أنا بالنظر فى اتجاه آخر متفحصا ، لآخر مرة ، صفوف الكتب المتراصة . ثم توجه بالسؤال الى فرويد : « وما الذى ستفعله بالنسبة للبارونة ؟ » .

ـ « سأفعل ما أستطيع » .

وابتسما وسرعان ما تبادلنا تحيات الوداع مع بقية أفراد المنزل ، بولا ، وفراو فرويد ، والصغيرة آنا التى بكت بحرقة وهى تلوح بتحيات الوداع ونحن نستقل العربة بمنديلها الصغير الذى بللته الدموع . ووعدها هولمز بأنه سيعود يوما ما ويعزف على الكمان من أجلها .

وخلال رحلتنا الى محطة القطار غرق فى صمت .وبدت عليه علائم التفكير العميق . وظل كما هو بحيث اننى لم أرغب فى ازعاجه ولو أن تغير مزاجه آدهشنى وأقلقنى . الا أننى عندما رأيته بعد أن وصلنا يتجه الى رصيف القطار المؤدى الى ميلانو اضطررت للتدخل ولكنه ابتسم وهز رأسه :

ــ « كلا يا واطسون لا يوجد أى خطأ » .

ــ « ولكن قطار دوفر لا يقوم من هذا الرصيف » .

ــ « لست عائدا الى انجلترا » .

ــ « ليس بعد ، أعتقد اننى أحتاج لبعض الوقت أخلو الى نفسى ، أحتاج الى وقت للتفكير . أما أنت يا صديقى فاستجمع شجاعتك . ستذهب الى انجلترا بدونى » .

وقلت مرتبكا وقد أذهلنى تقلب الأحداث : « ولكن متى ستعود ؟ » .

وأجاب بغموض : « ساعود يوما ما » ، وأضاف بحيوية : « أخبر أخى بقرارى واسأله أن يطلب من مسز هدسون الابقاء على مسكنى كالمعتاد وألا تلمس شيئا . هل هذا واضح ؟ » .

ــ « ولكن يا هولمز .. » .

لم تكن هناك جدوى من المناقشة . كانت خطاه أسرع منى بكثير . ونظرت حولى فى المحطة المزدحمة عاجزا وغاضبا من نفسى لعدم قدرتى على التعامل معه ووددت لو كان فرويد معى .

ــ وقال لى بحنان وهو يمسكنى من ذراعى : « ياصديقى

العزيز لا تقس على نفسك · أؤكد لك أننى سأتعافى تماما ولكنى أحتاج الى وقت ، وقد يطول هـذا الوقت » وسـكت برهة ثم استطرد : « ولكننى سأعود الى شارع بيكر وهذا وعد منى · أرجو أن تبلغ تحياتى الى مسز واطسون » ·

وضغط على يدى وهو يركب قطار ميلانو الذى بدأ فى الحركة ·

ـ « ولكن يا هولمز كيف ستعيش هل لديك أى مال ؟ » ·

كنت أمشى بجانب القطار بخطوات تتسـع مع ازدياد حركته ·

واعترف مبتسما : « ليس لدى الكثير ، لكن معى كمان واعتقد اننى سأستطيع اعالة نفسى بأكثر من وسيلة عندما تشفى ذراعى » واستطرد ضاحكا : « واذا أردت أن تتـابع حركتى عليك بمتابعة المسار الفنى لموسيقى عازف عـلى الكمان يدعى سيجرسون » ثم هز كتفيه وقال : « واذا فشلت فى ذلك فسأبرق الى ميكروفت طالبا الدعم

ـ فقلت : « ولـكن ماذا عن قرائك ـ قرائى ·· ماذا سأقول لهم ؟ »

كنت أجرى بجانب القطار الآن ·

وأجاب : « أخبرهم بما شـئت ، قل لهـم ان مـدرس الرياضيات قد قتلنى ، وعلى أى الأحوال فهم لن يصـدقوك أبدا » ·

وزادت سرعة القطار بحيث لم تستطع ساقاى متابعته ·

كانت رحلة عودتى خالية من الأحداث · فقد غفوت معظم الطريق ، وعندما نزلت من القطار فى محطة فيكتوريا كانت زوجتى العـزيزة تنتظرنى بابتسـامة عريضـة وذراعين مفتوحتين ·

النهـــاية

المـــؤلف

نيكولاس ماير مؤلف هذه الرواية كاتب انجليزى يعيش فى أمريكا • ولم تعرف له مؤلفات شهيرة مثل هــذه الرواية التى لاقت رواجا وأخرجتها السينما فى هوليود • وقد بذل المؤلف جهدا كبيرا فى كتابتها اضطره للرجــوع الى عشرات المؤلفات التى كتبت عن فرويد وعن شرلوك هولمز •

المترجـــم

أســتاذ علم النفس بآداب ســوهاج وزميــل الجمعيــة النفســية البريطانيــة ـ ترجم الى العربيــة من الانجليزية والفرنسية عددا من أمهات الكتب فى علم النفس مثل أزمة علم النفس المعاصر لجورج بوليتزير ونظريات الشــخصية لهول وليندزى وفن العلاج النفسى لأنتونى ستور وله عدد من المؤلفات بالعربية مثل العــلاج النفسى الجمعى ، ونظريات التعلم ، والارشاد النفسى •

اقرأ فى هـذه السـلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطـة مقـابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغرافيا فى مائة عـام	ب · و · فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر · ج · فوربس
الأرض الغـامضة	ليسـتر ديل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر الن
المرشـد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	آولج فولـكف
الهوية القومية فى السينما العـربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيـد وليـام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عـزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسـوى
ديـلان توماس	اشراف س · بى · كوكس
الانسـان ذلك الكائن الفـريد	جـون لويس
الرواية الحـديثة	جـول ويست
المسرح المصرى المعـاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	انـور المعـداوى
القـوة النفسـية للأهـرام	بـل شـول وادينيت
فن الترجمـة	د· صـفاء خلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
سـتندال	فيكتـور برومبير

رسائل واحاديث من المنفى | فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية) | فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون | سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى | ف . ع آدنيكرف
ادب الأطفال | هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات | د. نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء | د. فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح | جلال العشرى
الجحيم | هنرى باربوس
صنع القرار السياسى | السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان | جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال | د. روجر ستروجان
تربية الدواجن | كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة | ا . سبنسر
النحل والطب | د. ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى | جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤ | د. اينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة | د. جون شندلر
الصحافة | بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى | د. غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها | د. رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير | د. محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج) | فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥ | شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار | د. محيى الدين احمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج· دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد	د· جوهان دورشنر
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د· السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د· مصطفى عنانى
مختارات من الادب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل · باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابريل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف · س
أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س · م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د· عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د· سمبسون ونورمان د · اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د· انور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روستو
تبسيط الكيمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون يوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شاندرا ويكراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر ٠ بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	ارنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د٠ صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ٠ كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا ٠ هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر	جاك كرابس جونيور

عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميــــرى
ترانيم زرادشــت	اختيار / د٠ فيليب عطيــة
الســـينما العـــربية	اعداد / مونى براخ وآخــرون
دليـــل تنظيــم المتــاحف	آدامز فيـليب
ســقوط المطر وقصص اخـرى	نادين جورديمــر وآخرون
جماليـــات فن الاخـــراج	زيجمبونت هبنــر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ســــتيفن اوزمنت
الحملة الصـــليبية الأولى	جــوناثان ريـلى ســميث
التمثيـل للسـينما والتليفزيون	تــونى بــار
العثمـــانيون فى أوربا	بــول كرلنـــر
صـــناع الخـــلود	موريس بيــبر برابر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)	الفـــريد ج ٠ بتــلر
رحـــلات فارتيمــا	رودريجـــو فارتيمـــا
انهم يصـــنعون البشر (٢ ج)	فانس بكـارد
فى النقد الســينمائى الفرنسى	اختيار/ د٠ رفيق الصـــبان
الســـينما الخيــالية	بيتــــر نيكوللز
الســـلطة والفـــرد	برتداند راصـــل
الأزهـــر فى ألف عـــام	بيــــارد دودج
رواد الفلســـفة الحـــديثة	ريتشــــارد شــاخت
ســـفر نامة	ناصر خسرو عـــلوى
مصر الرومانيـــة	نفتـــالى لـــويس
الاتصال والهيمنة الثقـــافية	هــــربرت شـــيلر
مختارات من الآداب الآســـيوية	اختيار / صــــبرى الفضـــل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	أحمـــد محمـــد الشـــنوانى
الشموس المتفجرة	اســـحق عظيمـــوف
مدخـــل الى علم اللغـــة	لوريتـــو تـــود
حـــديث النهـــر	اعـــداد/ سوريال عبد الملك
من هـــم التتـــار	د٠ أبرار كــــريم الله
ماســـتريخت	اعداد/ جابر محمـــد الجـــزار
معـــالم تاريخ الانسانية (٤ ج)	هـ ٠ ج ٠ ولـــز

الحمـلات الصـليبية — ستيفن رانسيمان
حضـارة الاسلام — جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون (٣ ج) — ريتشارد ف · بيرتون
الحضـارة الاسلامية — ادمز متز
الطفـل (٢ ج) — ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر — بادى اونيمود
السحر والعلم والدين — فيليب عطية
الكون ذلك المجهول — جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج — محمد زينهم
حرب المستقبل — مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية — سونداري
الاعلام التطبيقي — فرانسيس ج · برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية — ج · كارسيل
فن المايم والبانتومايم — توماس ليبهارت
تحول السلطة — الفين توفلر
التفكير المتجدد — ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية — كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام — جوزيف · م · بوجس
خفايا نظام النجم الأمريكي — بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج) — جورج ستاينر
ما هى الجيولوجيا — ويليام هـ · ماثيوز
الحمر والبيض والسود — جارى ب · ناش
انواع الفيلم الأميركي — ستالين جين سولومون
رحلة الأمير رودلف ٢ ج — عبد الرحمن الشيخ
رحلات ماركوبولو ٣ ج — عبد العزيز جويد
الفيلم التسجيلي — محمود سامى عطا الله
الرومانتيكية والواقعية — يانكو لافرين
نظرية التصوير — ليوناردو دافنشى
تاريخ العلم والحضارة فى الصين — جوزيف نيدهام

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٣٠٦٣

ISBN — 977 — 01 — 4708 — 7

هذا الكتاب رواية تتصور لقاء حدث بين العالم النفسانى الشهير سيجموند فرويد وبين البوليس السرى المعروف بشرلوك هولمز.

ولقد تعاصر ظهور الروايات التى كان شرلوك هولمز بطلها مع ظهور الدكتور سيجموند فرويد ونظرياته التى بدأت ثورة فى علم النفس الحديث.

ولا شك أن شرلوك هولمز كان شخصية روائية، لم توجد إلا فى الروايات التى أبدعها الكاتب الانجليزى سير آرثر كونان دويل ومع ذلك فإن الملابسات التى أحاطت بعمل الرجلين [هولمز وفرويد] جعلت خيال الكاتب يصل إلى فكرة الجمع بينهما فى عمل شيق مثير تتصدر قائمة الكتب الأكثر بيعا لفترة طويلة.

مؤلف الكتاب، نيكولاس ماير روائى أمريكى معاصر تعتبر هذه الرواية أشهر أعماله وقد أخرجتها هوليود فى فيلم سينمائى فى السبعينيات.

مترجم الكتاب الأستاذ الدكتور لطفى محمد فطيم أستاذ علم النفس بكلية الآداب بسوهاج وزميل الجمعية النفسية البريطانية.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب